

يوميات باحثة مصرية فى :

حلايب

د . نادية بدوى

دار الهلال

تقديم

كان حلما.. ولايزال.. هنا أو هناك!

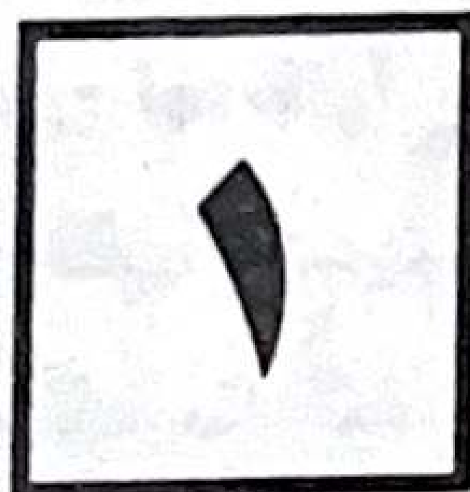
رجل شيخ عجوز.. يعرف أسرارها وخباياها..

هو الذى يملك أن يفسر لى سر الموت والحياة، هو القادر على أن يقول لى: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين المصير؟.. هو صاحب المعرفة.

ووقعت عيناى على جدى والد أمى.. رجل طيب حنون يحبنى كثيرا.. التصقت به وتعلقت به كثيرا، لكنه لم يقل لى شيئا... وكانت الطامة الكبرى حين لفظ أنفاسه الأخيرة وأنا نائمة فى حضنه!! صمت جدى للأبد وتركنى بمزيد من الحيرة والجهل.. ولعنت الموت الذى أخذ منى شيخى العجوز.

والرغبة فى المعرفة شجرة تنمو بداخلى يوما بعد يوم.. وأنا لا أملك ماأرويها به.. وبدأت رحلتى فى البحث عن الشيخ العجوز.. وعن سر الحياة.. وللآن لم أعثر عليه.. ولكن الرحلة بدأت.. رحلة المعرفة.

نادية بدوى



فكرة عن الصحراء الشرقية

الصحراء الشرقية تضم سلسلة فقرية تمثل جبال البحر الأحمر التى تمتد موازية للبحر وتترك بينها وبينه سهلا ساحليا ضيقا، وتعتبر جبال البحر الأحمر الحد الشرقى لحوض النيل، إذ تنحدر على جوانبها الغربية أودية طويلة تنتهى إلى البحر وهى أكثر سرعة وانحدارا، وعلى جوانبها الغربية أودية تتصل بالنيل وهى أكثر انحدارا من التى تتصل بالبحر، وتنقسم الصحراء الشرقية الى إقليمين:

الأول: وهو الإقليم الشمالى هضبة الخراسان النوبى أو هضبة العبابدة.

الثانى: الاقليم الشمالى ويسمى هضبة الصخور الجيرية أو هضبة المعازة.

ويفصل بينهما الخط الواصل بين قنا والقصير.

وتمتد بطول الصحراء الشرقية قمم جبلية تتفاوت فى ارتفاعها ومنها مجموعة جبال الفرايد ومتوسط ارتفاعها ١٣٦٦م، وجبال أبرق ومتوسط ارتفاعها ١٣٥٣م، وجبال الجرف وارتفاعها ١٧٣٦م، وتعتبر سلسلة جبال علبة الممتدة جنوب مصر أعلى قمم جبلية فى مصر حيث يصل ارتفاعها الى ١٩١٢م، وفى الشتاء تتكون الثلوج فوق قمته.

ومن أهم الأودية فى الإقليم الجنوبى والتى تتصل بالنيل هى وادى العلاقى ـ وادى الخريط ـ وادى شعيت ـ وادى عباد ـ وادى الحمامات، وهناك من الأودية التى تتصل بالبحر ومنها وادى الجمال ـ وادى الحمى ـ وادى القصير.

والصخور النارية هى أكثر أنواع الصخور انتشارا فى الهضبة الجنوبية، وصخور الجرانيت هى أكثر الانواع النارية شيوعا، إذ تتكون منها بعض الكتل الجبلية كجبل حماطة والفرايد وعلبة، أما الصخور الرملية فإنها تغطى سطح الهضبة الجنوبية بالإضافة إلى التكوينات الرسوبية المتمثلة فى طبقات الحجر الجيرى المتجبس.

والصحراء الشرقية غنية بثرواتها المعدنية سواء بباطن الأرض أو فى القمم الجبلية ومنها «الذهب ـ الحديد ـ النحاس ـ القصدير ـ الفوسفات ـ المايكا ـ التلك ـ الرخام».

وتعتمد الصحراء الشرقية بصفة عامة على الأمطار التى تسقط على سلاسل جبال البحر الأحمر، ثم تنساب منها على هيئة سيول تنحدر إما شرقا فى إتجاه البحر وإما غربا فى اتجاه النيل، وسرعان ماتتسرب هذه المياه فى رواسب الرمال والحصى التى تملأ بطون الوديان، وإذا ما اعترض مسير هذه المياه سد باطنى يؤدى إلى تجمعها ويعوق سيرها صوب النيل أو البحر ؛ ويتكون فى هذه الحالة خزان طبيعى للمياه الجوفية.

ولهذا نجد الآبار هى أكثر الموارد المائية انتشارا فى الصحراء الشرقية، فالإقليم الجنوبى أو هضبة العبابدة، والبشارية غنى بتلك الآبار والتى ساعدت وسهلت عملية اختراق الصحراء منذ أقدم العصور.

ومنها ماهو غنى بالمياه الصالحة للشرب مثل آبار «السنطة ـ عمريت ـ ديت ـ مبيضة ـ السلاتين ـ هتريت ـ حماطة ـ الشلاتين». بالإضافة إلى ينابيع الماء العذب التى تنبثق انبثاقا طبيعيا من باطن الأرض ومن بين الصخور مثل ينابيع «أبرق ـ أبى سعف ـ منيحة» وهناك من الآبار التى جف ماؤها تماما مثل آبار «أم الجبال ـ سبريت ـ البرامية ـ الفواخير».

ويسود المنطقة مناخ صحراوى مدارى جاف صيفا يميل إلى البرودة شتاء، ويسود القسم الشمالى من الهضبة الجنوبية الرياح الجافة، أما القسم الجنوبى منها فيخضع لتأثير الرياح الجنوبية الشرقية الرطبة.

سكان الصحراء.. من هم ؟.. ومن أين جاءوا..؟

منذ القدم والصحراء الشرقية آهلة بالسكان وكان اسمهم فى الزمن القديم البليمين، وأسماهم قدماء المصريين ميجا أو ميجاوى وهى كلمة فرعونية تعنى الرجل المحارب وذلك لأنهم استعانوا بهم فى مختلف الأعمال الحربية والخاصة بحماية

الباب الشرقى لمصر وهو ساحل البحر الأحمر. ثم حرف الاسم بعد ذلك إلى بجا وتعتبر البجا من الجنس الحامى الذى عبر البحر الأحمر من آسيا إلى إفريقيا منذ أقدم العصور، وفى الغالب أنهم من سلالة أولاد كوش بن حام الذين هاجروا للسودان بعد الطوفان .

وظلت البجا تعيش فى الصحراء الشرقية على امتدادها فى مصر والسودان وذلك منذ ٤٠٠٠ ق.م.

ويؤكد «سليجمان» العالم الانجليزى أن السلالة التى تقطن الصحراء الشرقية بمصر والسودان شديدة الشبه بسلالة القدماء المصريين وخاصة عصر ما قبل الأسرات وقد استطاعوا الحفاظ على نقاء سلالتهم بعزلتهم الشديدة داخل الصحراء وقبيلتى العبابدة وبنى عامر شديدى الشبه بقدماء المصريين.

ويتكلم البجا اللغة الكوشية حيث كانت اللغة الكوشية مثل البربرية كتلة صلبة قبل وصول اللغة العربية، ويسميها الألمان اللغة التبداوية ، وهى لغة غير مكتوبة ولامقروءة وإنما تورث من جيل إلى جيل، وهى تحتوى على الكثير من الكلمات الفرعونية .

وعن ديانة البجا قبل دخول المسيحية إلى بلاد النوبة، فقد كانت خليطا من مصرية قديمة ويونانية ومروية، فقد عبدوا إيزيس وأوزوريس وكانوا يحجون كل عام إلى معبد فيلة ويرجعون للصحراء حاملين تمثال إيزيس لتجلب لهم الخير وتدفع عنهم الشرور، ومع انتشار عبادة إله الشمس فى حضارة هليوبولس القديمة تأثروا بها وعبدوا إله الشمس وكان من عاداتهم تقديم الضحايا البشرية لإله الشمس كنوع من القرابين.

وظل البجا على وثنيتهم، يقاومون كل محاولة تثنيهم عن دينهم حتى القرن السادس الميلادى، وبعد فتح مصر بأربع سنوات حيث تم فتح جنوب مصر، وبدأ الإسلام يغزو المملكة النوبية المسيحية، فى الوقت الذى كان فيه البجا يخرجون من الصحراء ليغيروا على سكان الوجه القبلى ويسلبوهم أموالهم وتجارتهم ويرجعون للصحراء معتمدين على جهل أهل وادى النيل بمجاهل الصحراء.

وفى تلك المرحلة تم عقد ثلاث اتفاقيات بين المسلمين وقبيلة البجا لإنهاء حالة الحرب بينهم والسماح للقبائل العربية بالعيش بأرض البجا واستغلال مناجم الذهب المنتشرة بوادى العلاقى، وكانت النتيجة استقرار بعض القبائل العربية فى أرض البجا ومنهم قبيلة الكواهلة الذين اشتدت شوكتهم وتزوجوا من البجا فقويت بهم البجا، وجاءت المصاهرة بين الكواهلة والبجا كخاتمة للصراع بين البجا والعرب والمسلمين، كما كانت بداية لظهور فروع قبائل البجا المعروفة لدينا الآن والتى كانت معروفة فى التاريخ القديم بأسماء مغايرة، فقد كان العبابدة معروفين باسم الحدراب ، والقوم الذين يسكنون على حدودهم وهم البشارية يسمون باسم الرنافج وذلك طبقا لما جاء بكتاب المقريزى «الخطط التوفيقية».

وكان النسب فى قبائل البجا أموى ولكن بعد دخولهم الإسلام تحول النسب إلى النظام الأبوى، وعرفت القبائل فيما بعد بأسمائها العربية المعروفة لدينا الآن وهى «العبابدة البشارية ـ الهدندوه ـ الأمرار ـ بنى عامر» ومعظم تلك الفروع لازالت تقطن الصحراء وتتكلم اللسان البجاوى فيما عدا العبابدة الذين يتحدث معظمهم اللغة العربية، وربما يرجع ذلك إلى أن العبابدة كانوا فى العصور السابقة مسيطرين على ميناء عذاب، والذى كان الميناء الرئيسى لسفر الحجاج «حجاج إفريقيا الشرقية» إلى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج».

وينسب العبابدة إلى جدهم عباد الثالث المدفون بوادى عباد «قنا» والذى يرجع بنسبه إلى الزبير بن العوام، وتنقسم العبابدة إلى عدة بطون كبيرة، انقسمت بدورها إلى عدة عمائر وبطون وعشائر وهم :

١ ـ الشناتير ـ العبوديون ويرجع نسبهم إلى عبود بن عباد الثالث.

٢ ـ المليكاب ـ الفقراء ـ العكارمة وهم ينتسبون إلى عبد الله الفقرى بين عباد الثالث.

٣ ـ العشباب وهم من نسل عشاب بن عبد الله بن عباد الثالث.

ومما هو جدير بالذكر أن كل فروع قبيلة العبابدة نزحوا لوادى النيل واندمجوا

مع سكانه فيما عدا قبيلة العشباب الذين لايزالون يقطنون الصحراء الشرقية ابتداء من الخط الواصل بين قنا والقصير وحتى آخر حدود مصر والسودان. ومع نمو القبائل وتشعبها نجد أن قبيلة العشباب نفسها قد انقسمت بدورها إلى عدد من العشائر وأهمها قبيلة الجامعاب والحمداب.

أما عن قبيلة البشارية فإنهم ينتسبون إلى جدهم بشار بن كاهل ويرجع بنسبه إلى قبيلة الكواهلة التى تنحدر من نسل الزبير بن العوام، وقد تزوج بشار من امرأتين من البجا إحداهما أم ناجى والأخرى أم على، ولذلك نجد ان قبيلة البشارية تنقسم إلى فرعين وهم بشارية أم على ومعظمهم مستوطنون بالصحراء الشرقية المصرية والتى تتفرع إلى بطون كثيرة منها: « العلياب ـ عميراب ـ همداوراب ـ شنتيراب». وتلك تفرعت إلى عشائر صغيرة، وهناك بشارية أم ناجى وهم يسكنون الصحراء الشرقية السودانية.

خطوتى الأولى بالصحراء

تحرك القطار متجها لأسوان فى ليلة شتاء قارس البرد.. تجمدت أطرافى من البرد.. واصفر لونى من الرعب.. انزعج جارى خوفا علىَّ.. هو لايعرفنى.. ولكنه مصرى.. يحمل بداخله الأصالة والشهامة وقدم لى جاكتة ليحمينى من البرد .. شكرته.. فالبرد ليس مشكلتى ولكنه الجهل.. فتلك أول مرة أسافر فيها بمفردى.. وأول مرة أسافر فيها لأسوان، ولاأعرف أحدا هناك.. فسألنى: هل أنت ذاهبة للآثار؟ فأجبته: إننى ذاهبة لأبحث عن العبابدة.. وزادت حيرة الرجل.. هل هم أهلك؟

ـ لوكانوا أهلى لما كان عندى مشكلة.. أنا أبحث عنهم لأدرسهم ولأنال درجة الماجستير، وكل معلوماتى أنهم كانوا يعيشون بجوار قبائل النوبة فى موطنها القديم قبل بناء السد العالى، ولا أعرف موطنهم الآن.

وكانت المفاجأة أن جارى جيولوجى يعمل بصحراوات أسوان، وقد شاهد العبابدة مرارا فى الصحراء.. ملأت صدرى هواء، فهاهم العبابدة موجودون وكنت أظنهم اندمجوا مع سكان وادى النيل.. الآن أمسكت بطرف الخيط.. ولكن مشاكلى مازالت قائمة.. بدت الحيرة على وجهى ـ فبادرنى جارى: ماذا يقلقك؟ أنا عاوز أساعدك..

أول مشكلة: أين أنزل فى أسوان؟.. فأنا معى أربع حقائب كبيرة الحجم.. واحدة منها فيها ملابسى الشتوية الثقيلة.. تقريبا حملت كل ملابسى.. وتضم فى أغلبها سويترات وبنطلونات جينز وأكثر من حذاء..فأنا فى طريقى لرحلة مجهولة ولاأطمئن لظروفها.. وفى الثانية أحمل الأوراق والخرائط وجهاز التسجيل.. الكاميرا.. الشرائط وكل مايلزمنى لجمع وحفظ المادة العلمية..

ولم تدخر أمى جهدا فى صنع الفطائر والحلوى والأطعمة.. ولم تبال بثقل الحقائب وكل همها أن تجمع كل مايخطر على بالها من الأطعمة الجافة وغيرها.. ضحك جارى وطمأننى.. سوف تنتظره سيارة فى محطة القطار وبذلك تكون مشكلة حمل الحقائب قد حلت.. وأنه لن يتركنى حتى يطمئن على مكان إقامتى وأيضا متابعة خطواتى حتى أصل الى العبابدة.

سرت الحرارة فى جسدى وتبدد الثلج.. من أطرافى ومن قلبى.. حمدا لله.. الليل يمضى نحو النهار.. وسكان القطار جميعهم نيام يملأون الطرقات... يفترشون الأرض ومنهم من نام على الرفوف المخصصة لحفظ الحقائب.. لم أستطع الخلود للنوم فأنا لم أتعوده فى المواصلات العامة.. وفجأة.. دب الرعب فى قلبى.. القطار يحترق.. النار تحيط به من الخارج.. النار مشتعلة يمينا ويسارا.. ولكن القطار لم يتوقف.. مع السكون تسمع صوت النار وهى تلتهم الأشياء.. لكن ماالذى يحترق؟ إنه ليس القطار! أيقظت جارى.. فنظر إلىّ وقال: لاتقلقى دى غيطان القصب،لازم يحرقوا الأرض بعد جمع المحصول لتنقيتها من الأعشاب.. وخلد جارى للنوم مرة ثانية.. وبقيت شاردة حتى خرج القطار من وسط حقول القصب.. وفى الأفق بزغت الشمس وطلع النهار.

وصل القطار وكان صديق جارى فى انتظاره ومعه السيارة، وانتحى الصديقان جانبا ثم عادا إلىّ والبشاشة تعلو وجه الصديق وهو يرحب بى ويطمئننى بأنهما ـ الاثنين ـ أخوان لى وأن قضيتى هى قضيتهم، و لن يتركانى حتى أحقق آمالى.

أقبل عم «كرم الله» ليحمل الحقائب وأنا مشفقة عليه فهى ثقيلة.. وابتسامته تقول: ارتاحى فأنت بين أهلك.. وانطلقت السيارة إلى استراحة «أبو سويل» التى تبعد ٧ كم عن أسوان.. وهى على ربوة عالية تسجد تحتها مدينة أسوان كلها. وأسرع جارى يبدد سؤالى.. سوف نستريح ونتناول الغداء وبعدها يدبرها ربنا.

المشهد رائع.. الرمال الصفراء تتعانق مع خضرة النخيل والنيل يلفها بالحنان والشمس تمنح الجميع النور والدفء.. كم أنا سعيدة.. تبدد خوفى.. أخذ الأمل والأمان طريقهما لنفسى.

مع الغروب ذهبت مع الأصدقاء لمبنى محافظة أسوان لمقابلة المحافظ.. ولكنه مسافر.. وسكرتير المحافظ لايستطيع حل المشكلة والفصل فى الأمر.. قال لى: ممكن تمرى علينا بعد يومين.. هممت بالرحيل والقلق يعترينى.. بادرنى عم «حسين» أحد الجالسين فى الحجرة قائلا: روحى لحسن فخر الدين مدير الثقافة.. ده راجل خدوم ويمكن يساعدك.

فى قصر الثقافة قدمت نفسى للصديق الكريم «حسن فخر الدين» رجل نوبى الأصل.. مصرى الحضارة.. رحب بى وبأصدقائى كأننى من عشيرته.. استمع لى.. وعدنى بالمعاونة والرعاية.. سألته عن مكان أقيم به فأشار علىّ ببيت الشباب.. ورفع سماعة التليفون وتحدث إلى مديره.. وأوصى بى خيرا.. ودعنى الرجل النوبى الأصيل على أن أعود اليه غدا الجمعة لنتدارس الموضوع بالتفصيل.

الرحلة كلها... مشاكل كبيرة وصغيرة.. تافهة وخطيرة.. رئيسية وهامشية، مع بداية المشكلة أمتلىء بالقلق.. ثم سرعان مايتلاشى وأشعر بالتفاؤل هكذا عشت رحلتى كلها.

وحلا لمشكلة الحقائب عرض علىّ أصدقائى أن آخذ معى اللازم منها وما يسهل

حمله.. وفى بيت الشباب الدولى سكنت غرفة مزدحمة بها خمسة عشر سريرا كل منها بدورين.. وجاء حظى فى الطابق الثانى من السرير.. وكل رفاقى فى الغرفة من الأجانب.. بدلت ملابسى لأدخل فى ملابس النوم.. فقد مر يومان بلا نوم.. واستقر جسدى على السرير.. البرد شديد ولكن لايهم.. فالدفء يسكن نفسى.. فأنا الآن فى أسوان.. نجحت.. قادتنى قدماى لأول مرة خطوة فى رحلة المعرفة.. رحلة المليون ميل.

شىء غريب.. مع شروق الشمس استيقظت من نومى.. كنت أظن أننى سآخذ للنوم يوما كاملا لأعوض التعب فى الأيام السابقة.. وبكل النشاط والحيوية والأمل أخذت حمامى وبدلت ملابسى وخرجت مسرعة إلى النيل.. إلى شوارع أسوان المدينة الدافئة الجميلة.. المدينة التى سكنها أهلى وأجدادى.. الفراعنة أصحاب الحضارة التى سجد لها العالم منبهرا بفكر وفن هذا الشعب، أنا أيضا فخورة.. صحيح أن الحجارة صامتة ساكنة.. لكنها شاهدة ناطقة بعد الزمان بينى وبين أجدادى.. ولكن الحبل الأبدى يربط بيننا.. تغيرت ملامحى.. ولكن الدم فى عروقى مصرى.. وإرادتى تقول: إننى ابنتهم ولدىّ تصميم على أن أعيد حضارتهم حية ناطقة فى الزمان والمكان.

فى قصر الثقافة وجدت وفدا من السينمائيين السويسريين جاءوا لأسوان احتفالا بأسبوع الفيلم السويسرى بالمدينة القديمة.. وعرض علىّ حسن فخر الدين أن أصحبهم فى رحلة لمشاهدة الآثار وجسم السد العالى كفرصة لمشاهدة أسوان وحلا لمشكلة عدم وجود مترجم يصحبهم.

عند الظهر تناولت غدائى مع أصدقائى.. الغداء الذى أعده لى خصيصا «عم كمال» طباخ استراحة المناجم فى أسوان ترحيبا لى.. وكان هناك حشد كبير من الچيولوچيين الذين قدموا من معسكراتهم فى الصحراء.. فاليوم أجازة (الجمعة) والجميع يأتون لقضائها بأسوان.. ودار الحديث بعد الغداء عن العبابدة وأخذ كل منهم يقص خبرته مع البدو المنتشرين فى عمق الصحراء.. والصعوبات التى تواجه

الغرباء.. وقسوة الحياة فى الصحراء.. وضعف الإمكانيات.. هذا فى جانب وفى الجانب الآخر الزواحف المنتشرة وخاصة ثعبان «الطريش».. وتناثرت الحكايات عن البعض الذين قتلهم الطريش بسمه.

أخذنى الصمت بعيدا.. هؤلاء رجال.. تحملت هيئة المساحة الچيولوچية تدبير حياتهم بتوفير وسائل المواصلات وأماكن الإقامة والأدلة لمصاحبتهم داخل الوديان.. والطباخون والعمال لتيسير شئونهم.. ورغم هذا فهم يشكون مرارة الحياة فى الصحراء.. دب اليأس فى نفسى وشعرت بالضيق والعجز أين أنا من هؤلاء؟ فأنا فتاة وحيدة.. وإمكانياتى المادية محدودة.. فأنا أجرى هذا البحث على نفقتى الخاصة إذا تغلبت على العقبات المادية.. كيف أنتصر على قسوة الصحراء وزواحفها.. أدرك «عم كمال» شرود ذهنى فربت على كتفى وقال لى: منصورة إن شاء الله.. ياللا بينا نروح لنافع البشارى. مشينا فى أحياء أسوان القديمة مخترقين شارع السوق حتى وصلنا إلى حى البشارية ويضم مساكن البشارية المستقرين بأسوان.. وهى على نمط بيوت الفلاحين المتلاصقة.. ويضم كل مسكن حوشا كبيرا مفروشا بالكتب والحصر للضيوف يفتح عليه باب صغير يدخل منه لغرف السكن.. وبالمسكن حظيرة للأغنام والطيور.

دق عم كمال باب مسكن.. أطلت من وراء الباب سيدة على رأسها غطاء أسود يغطى وجهها أيضا.. وقالت: نافع مش موجود.

تجمع الشباب والأطفال والنساء حولنا ينظرون فى وجهى ويتفحصون ملامحى وسمعتهم يقولون: لا مش هى. هممنا بالرحيل وعم كمال يبعد الأطفال من طريقى وكان شاغلى أن أعرف ماذا يقصد هؤلاء؟ ولماذا رفضوا استقبالى؟.. الحديث لعم كمال: أصل يابنتى فيه واحدة.. باحثة زيك كده جت هنا ومعاها فلوس كثيرة وبتنزل العلاقى وبتشغل معاها ناس البشارية وبعدين حصلت مشاكل كثيرة والناس كرهتها.. وبقوا يخافوا من أى غريب.. وبتلقائية شديدة يقول عم كمال: أنا خايف عليكى يابنتى مابلاش العبابدة دول ماتروحى للنوبيين دول ناس طيبين وموجدين هنا فى كل مكان.

عدت لمكان إقامتى وأنا مشلولة الفكر.. كيف أتغلب على هذه الصعوبات؟ لابد من إعادة التفكير فى الأمر كله من جديد.

فى الصباح ذهبت لأخى حسن فخر الدين فى قصر الثقافة وقصصت عليه ماحدث فأشار علىّ بمقابلة المحافظ.. وفى مكتب المحافظ الدكتور شوقى المتينى قدمت أوراقى التى تثبت شخصيتى وتوضح المهمة التى أنا بصددها.. فنظر إلىّ سيادته وقال: عاوزة تقابلى الحاج «ناصر» ولاّ «شهيرة»؟.

فقلت له: أنا لاأعرف من هم؟ الحاج ناصر عضو مجلس الشعب وشيخ قبيلة العبابدة وهو مش موجود حاليا.. وشهيرة باحثة تعمل فى العلاقى.

فسألته عن الجهة التى تتبعها تلك الباحثة فأجابنى بأنه لايعرف.

وسألته المعاونة فى تدبير إقامتى بأسوان وتسهيل مهمتى ولكنه اعتذر لقصور إمكانيات المحافظة.. وودعت السيد المحافظ وانصرفت.

ورغم الأبواب الموصدة إلا أن طاقات من النور تبعث فى نفسى الأمل.. فالناس فى كل مكان يسعون لمساعدتى.. ويرشدوننى الى الأشخاص الذين يمكنهم مساعدتى.. فى دراو.. فى إدفو.. فى أسوان.. عدت الى أصدقائى الچيولوچيين فوجدتهم مهمومين أكثر منى ومشغولين بحل مشكلتى.. وقد بحثوا عن الحاج ناصر وعلموا بوجوده فى قريته «البحيرة» بإدفو واقترحوا علىّ أن أسافر إليه.

ركبت السيارة البيجو المتجهــة الى إدفو وأوصى صــديقاى السائق أن يوصلنى إلى مسكن الحاج ناصر بالبحيرة وهى قبل مدينة إدفو بحوالى ٥ كم وتبعد عن أسوان حوالى ٩٥ كم، ويتمركز العبابدة الفلاحون فى قرى الفوزى والعدوة والبحيرة فى الشرق، وهؤلاء نزحوا إلى الريف منذ مايقرب من مائة عام وتعلموا الفلاحـة واستوطنـوا تلك الأرض ، وانخرطوا مــع سكان وادى النـيل وأخذوا عنهم تقاليدهم وعاداتهم بعد أن هجروا حياة البداوة بكل ملامحها وهم أصحاب قصة بهيــة وياسين ، فهى قصــة حقيقية أبطالها من قبيــلة الجبرنات وهى فرع من العبابدة.

المنزل على طريق الأسفلت تحيط به حديقة صغيرة وأشجار النخيل ويظهر خلفه مسجد كبير بناه الحاج ناصر.. دق السائق الباب.. أطلت سيدة عجوز وأخبرها السائق بزيارتى لهم، رحبت بى العجوز بعد أن أبلغنى أن الحاج ناصر فى قرية مجاورة يفض نزاعا نشأ بين بعض الأفراد.. قدمت لى الإفطار والشاى وجلست تسرى عنى وتحدثنى عن شبابها وصباها.. استمتعت كثيرا بصحبتها.. ومع غروب الشمس أقبل الحاج ناصر ورحب بى.. أخبرته بمقصدى فأخذ يحدثنى عن العبابدة، فمنهم الفلاحون ومنهم البدو وهم منتشرون داخل الصحراء يسكنون الخيام ويرعون الإبل والأغنام ولايعيشون فى تجمعات سكنية بل تعيش كل أسرة بمفردها، فسألته مساعدتى فى النزول إليهم فأجابنى بأنه أمر مستحيل لأنه يجب أن تكون معى سيارة مجهزة للصحراء ودليل يخوض بى عبر وديانها.. ولم أستشعر منه الرغبة فى مساعدتى فهممت بالرحــيل .

وقفت على الطريق الأسفلتى والظلام شديد.. لايبدده سوى كشافات السيارات على الطريق.. والهواء شديد.. وقفت سيارة متجهة لإدفو.. أخبرت السائق بمقصدى فى العودة لأسوان فأخبرنى السائق أنه من الصعب.. فلا توجد سيارات متجهة لأسوان الآن فالوقت متأخر (١١ مساءً) وبدد حيرتى بقوله: مافيش حل غير إنك تباتى فى إدفو. ولكن أين؟ أنا لاأعرف أى مكان فى إدفو.. فعرض علىّ أن يستضيفنى فى مســكنه مع زوجته وأمه.. لكن لابد أن أعود إلى أسوان فلى أصدقاء فى انتظــارى وسوف يصيبهم القلق إذا لم أعد.. ولا توجد وسيلة للاتصال بهم.

انبرى أحد الركاب قائلا: «تيجى تاخدى جطر الساعة واحدة».. لكن كيف انتظر ساعتين فى المحطة والبرد شديد.. وإذا استطعت فإننى سأصل إلى أسوان عند الفجر وتظل مشكلة قلق أصدقائى قائمة .

فوضت أمرى إلى الله ولزمت الصمت... وصلت إدفو وكانت مفاجأة.. أن هناك سيارة بيجو متجهة لأسوان وبها مكان لراكب واحد.. أخذ السائق يضرب كفا بكف ويقول: «أنت أمك داعيا لك.. روحى ربنا معاكى» ورفض أن يأخذ الأجرة وأوصى السائق الآخر أن يوصلنى إلى مكان إقامتى فى أسوان ولايأخذ منى أجرة !! فَرَّت الدموع من عينى.. أنا لست فى غربة.. أنا وسط أهلى وعين الرحمن ترعانى.

فى الصباح جاءنى «محمد» جارى فى القطار وأخى فى الرحلة ليطمئن علىّ.. قابلته وخيبة الأمل تعلو وجهى.. أبلغته بقرارى وهو العودة للقاهرة وتسجيل موضوع آخر للماجستير.. وأننى سوف أعد حقائبى وأخرج لحجز تذاكر العودة.. رحل صديقى وهو حزين لحالى.

جلست أنتظر حتى حين موعد الرحيل.. هلَّ علىّ صديقى ووجهه متهلل بالفرح وبادرنى بقوله: «لن تعودى للقاهرة.. إنت هاتسافرى لمرسى علم الآن.. سوف تنتظرك سيارة فى إدفو شرق تقل بعض الچيولوچيين!! ياله من مفاجأة!!

أسرعت لأحمل احتياجاتى الضرورية، وأجمعها فى حقيبة واحدة.. وتوجهنا إلى موقف البيچو، وأوصى صديقى السائق أن ينزلنى عند نقطة الشرطة قبل صعود الكوبرى الذى يصل بين إدفو شرق وإدفو غرب.. ودعت صديقى ولسانى يتلعثم لا أجد الكلمات التى أعبر بها عن شكرى وامتنانى.. أعطانى صديقى «مطواة» لأحمى بها نفسى من إنس الأرض ودوابها ولكننى تركت حمايتى على الله فوقانى شر القتال. وقفت بجوار نقطة المرور وأنا أنظر يمينا ويسارا.. تقدم منى عم «كرار» عرفنى من شكلى وحقيبتى الكبيرة.. بعد قليل جاءت السيارة، وبها اثنين من الچيولوچيين.. وتحركت السيارة ، اللون الأخضر يختفى بعد أن صاحبنا لمسافة ليست كبيرة وهى منطقة وادى عباد.. بعدها بدت الصحراء برمالها وجبالها، كنت مشدودة إليها أبثها سعادتى وأملى فى تحقيق ماأقر الجميع بأنه المستحيل.. غابت الشمس.. اختفى قرصها وراء قمم الجبال.. لقد وصلنا بعد أن قطعنا مسافة ٢١٨ كم فى أربع ساعات.. وقفت السيارة أمام استراحة على ربوة عالية.. خرج لاستقبالنا السيد المهندس «رفعت السرتى» مدير مركز تعدين مرسى علم.. رحب

بى.. وبث فى نفسى الطمأنينة ووعدنى بالمعاونة فى حدود الإمكانيات المتاحة وقد صدق فى وعده استضافتنى زوجته فى المسكن المخصص لهم، وتولى هو تقديمى للبدو المقيمين بالمنطقة فى الصباح رأيتها.. مرسى علم مركز صغير على البحر مباشرة، يضم بعض الاستراحات والأكواخ المتناثرة وهى مساكن للمهندسين والعمال، ويخدم المركز البعثات الچيولوچية الموجودة بالمنطقة ويعمل على اكتشاف المعادن والخامات التعدينية، ويتناثر حولها البدو فى خيامهم داخل الصحراء.. ويتولى المركز توفير مياه الشرب التى تنقلها السيارات من إدفو أو من القصير، كما تتولى «البوسطة» توفير الطعام (مصطلح يطلق على السيارة التى تنزل إلى أقرب مركز وغالبا مايكون القصير التى تبعد ١٣٣ كم شمال مرسى علم وتعود محملة بكافة الاحتياجات من الطعام).

وقد صدر قرار بمحافظة البحر الأحمر عام ١٩٨٤ بإنشاء عدد من القرى عبر الصحراء لتكون بمثابة مراكز يتجمع فيها البدو ليتيسر تقديم الخدمات الإنسانية لهم، وتضم قرى مرسى علم ـ الشاذلى ـ حماطة ـ أبرق ـ الشلاتين ـ وادى الخريط ـ وادى عباد وخلال عام ١٩٩٠ صدر قرار بتحويل مرسى علم إلى مدينة تتبعها إداريا القرى المنتشرة بالصحراء، ويتعاون الآن مركز التعدين مع مجلس المدينة فى إدارة المنطقة خاصة بعد أن قامت وزارة التعمير ببناء مساكن للبدو وتم توطين بعضهم.

وعلى ساحل البحر بعد مدخل طريق إدفو بضعة أكواخ مقامة من القطع الخشبية مع بعض الصفائح، وتستخدم الأقمشة لسد الفراغات بينها، وليس لها أشكال معينة ولايضمها شكل تنظيمى، وأمامها سياج كبير من الصفيح كحظيرة للطيور والأغنام وينتشر أمامها مجموعة من البراميل القديمة تستخدم لحفظ المياه، وفى أحد تلك الأكواخ جلست إلى «تونس».. عجوز لها من العمر مائة وبضع سنين، وهى بمثابة شيخ للمنطقة، تعودت لقاء الغرباء من أبناء وبنات وادى النيل، وأبلغها المهندس رفعت بأننى ضيفة من مصر وأرغب فى الاستئناس بها.. فمدت يدها وجذبتنى لأكون بجوارها وقالت بلهجة متصلة: «رايجة طيبة زينة مافى عوج بلادكم

حبيبة» وكلها كلمات للتحية وسألتنى: «إنت جادمة فردين؟» بمعنى: بمفردك فأجبتها بالإيجاب فقالت: إحنا ناس فجرا (فقراء) وبلادنا رمل وجبال لا فيها زرع ولاموية (ماء) بنرعى الغنم والعنز (أشارت إلى الأغنام التى ترعى حولها) والحمد لله من يوم ماجانا جمال (جمال عبد الناصر) وإحنا فى خير.. جاب لنا الدقيق والموية والخام (قماش الدمور) وكنا زمان نلجى (نجد) الخيش نلبسه والا مافيه نحمد الله على أى خلج (أى قماش لستر العودة) وسايحين فى الجبال نشرب الموية المرة من البير وكل يومين نلجى لنا جدر كده (حفنة) ذرة ولا قمح نجرشه بضروسنا أو إذا كان مافى نلم الزلط السوس (الصغير) ونضعه تحت لساننا علشان يابنيتى «الروح غالى» ونادت تونس على ابنتها بلغة لم أفهمها وتحدثت اليها.. وبعد قليل جاءت «بخيتة» ووضعت على الأرض «القصعة» موقد النار وكوز من الماء وبعض علب الصفيح ذات أحجام مختلفة، ومدت تونس يدها إلى حبل معلق فى صدرها وبه عدد من القروش القديمة (القرش الأبيض المثقوب) وأمسكت بأحدها وفتحت به العلب الموجودة أمامها وأخرجت إناء من الفخار يشبه القلة الصغيرة يسمونه «جبنة» بفتح الجيم ويجلبونه من السوق حيث يتوفر هذا النوع من الطمى فى كسلا وأخرجت من علبة ثانية من القماش القديم تحتفظ فيها بحبوب البن وقطعة أخرى تحتفظ فيها بالجنزبيل والفلفل الأسود الحصى، وحمصت البن فى صفيحة قديمة ثم ألقت به على قطعة من السعف مشغولة على شكل دائرة (هبوبة) ليبرد ووضعت كوز الماء على النار ليغلى.. وقامت بجرش البن وبعض الجنزبيل والفلفل الأسود فى «الفندق» (إناء من الخشب مخصص لطحن البن فقط) وحملت المجروش ووضعته فى الجبنة وصبت فوقه الماء المغلى ووضعت الجميع على النار، وأخرجت لفافة كبيرة من القماش من داخل علبة صفيح وفتحتها وأخرجت مجموعة من الفناجين (صغيرة وبدون يد) ووضعت فى كل فنجان بعضا من السكر ثم صبت عليه القهوة المغلية وتحسست الرمال تحركها يمينا ويسارا حتى أخرجت عصا صغيرة قلبت بها السكر وقدمت لى فنجانا قائلة: الجبنه دى نرجد ونجوم عليها بمعنى أنهم يشربونها فى الصباح والمساء، شربته وأعدته إليها فعاودت تصب لى ثانية وقالت:

شرب الجبنة يابنيتى فرادى» بمعنى أن أشرب عددا فرديا من ١:١١ مرة فهم لايقبلون العدد الزوجى فلا يصح أن أشرب فنجانين فقط .

لاحظت تونس أننى أرتعد من البرد والرياح شديدة ونحن جالسات على البحر وفى شهر فبراير فقالت لى: «أنتم ناس ريف مابتتحملو إحنا ناس جبل لانحمل على رسمنا إلا الخلج» فهى لاتلبس سوى جلباب قديم مفتوح الصدر من الدمور وشعرت باستئناس تونس بى.. أخذت تحدثنى عن طفولتها قائلة: «كنت جنون «طفلة» لما شاطت «حدثت» المجاعة فى السودان (حدثت تلك المجاعة عند احتلال السودان عام ١٨٨٢) ركبنى صابر (والدها) أنا وسليمان (أخاها) على الجمل ودرج «مشى» لحدرابة وحلايب جعدنا فيها شوية لكن الحال كانت صعبة يابنيتى ماكان فى خلج، صابر جاب لنا جلد الناجة وربطه على وسطى أنا وسليمان مافيه وكل «طعام» غير الزلط تمد يدها للأرض تجلب بعض الزلط الصغير وتضعه تحت لسانها كنوع من التصوير الحى للواقع الذى عاشوه ويعيشه آلاف منهم فى الصحراء، ورحلوا من حلايب إلى رأس بناس ثم مرسى علم حيث عمل والدها ثم زوجها كأدلة للبعثات الجيولوجية.

وكنت أسجل حديث تونس على شريط كاسيت وكلما مر بعض الوقت تطلب منى سماع صوتها فتلك أول مرة ترى فيها جهاز تسجيل وكنت أرى على وجهها السعادة الممتزجة بالدهشة من هذا الاختراع الذى يحفظ صوتها ويعيده للأسماع ثانية، ودهشتها الكبرى أن الجهاز يعيد الحوار كله ولاينسى كلمة.

سعدت كثير بلقائى مع تونس، وسعادتى لم تكن من منطلق حصولى على معلومات تخدمنى فى بحثى، ولكن سعادتى كانت نتيجة لتواصلى معها بشكل إنسانى، لقد ارتبطت بتونس كثيرا وأصبحت العلاقة بيننا فيما بعد علاقة أم وابنتها، تقلق علىّ وتهتم بشئونى أثناء اقامتى بمرسى علم، وأنا ألجأ اليها وأستشيرها، فهى رغم سنها إلا انها تملك ذاكرة قوية وتتميز برجاحة العقل وصواب الرأى.

فى اليوم التالى ذهبت لخيشة حميدة (الخيمة لديهم تسمى خيشة) وهى غرب البحر بمسافة ٢ كم خلف الجبال الممتدة على الساحل، وزوج حميدة متوفى، وتعيش هى وابنتها فى الكوخ وقد خرج زوج ابنتها للرعى، والفتاة لم تحمل رغم مرور سبعة أشهر على زواجها، وقد عزمت حميدة على زيارة قبر الشيخ فرحان ونحرذبيحة له لعل الله يأتى بالفرج، ودعتنى حميدة لأشاهد الخيمة ووقعت عينى على البراميل التى تحفظ بها المياه، وكان مشهدا مروعا، فالبراميل يغطيها الصدأ من الخارج، ومن الداخل لونها أخضر من كثرة الطحالب التى تغطى الجوانب وعلى السطح تسكن كائنات كثيرة لها شكل الدود، ولا أعرف كيف سار الحديث بينى وبين حميدة، وكل ماأذكره أننى كنت فزعة، فتلك هى المياه التى شربتها، وثارت معدتى علىّ، فكم من تلك الديدان نزلت جوفى، ولزمت الصمت لدقائق غابت فيها حميدة ثم عادت الىّ وأهدتنى كيسا من النايلون به حوالى عشرون بيضة، فسألتها أن تبقيها لها ولكنها أفهمتنى أنهم لاياكلون لحوم الدواجن والطيور وكذلك البيض فهى محرمة فى تقاليدهم، فأخبرتها انها حلال وليست محرمة فقالت لى مثلا شعبيا لديهم يقول: من خل بعادته قلت سعادته ويعنى أن من يترك عادات أهله يفقد السعادة، وقد كان بدو الصحراء يعتبرون البيض هو براز الدجاجة ومن هنا جاء تحريم أكلها، وهم أيضا لاياكلون السمك، وغذاؤهم الرئيسى هو لحوم الإبل والأغنام، فى حين نجد أن البدو الذين يعيشون على الساحل يأكلون السمك.

كانت لدى حاجة ملحة لمعرفة سبب تربيتهم للدواجن رغم أنهم لاياكلونها، فأجابت حميدة بأنهم يربونها استمتاعا بشكلها وللاستئناس بها، ودعت حميدة وعدت إلى مقر اقامتى سيرا على الأقدام فهى فرصة للمشى والاستمتاع بدفء الشمس وفرصة للتفكير. وفى الطريق قابلت مجموعة من البدو ومعهم «أحمدانى» وهو ميكانيكى بورش مرسى علم وأخبرونى أنهم ذاهبون لحضور فرح بوادى شواب، وعلى الفور عرضت عليهم الذهاب معهم، فرحبوا بى، واتفقنا على أن تمر السيارة علىّ بعد العصر، وتلك كانت طريقتى فى الترحال.

حان وقت الرحيل، وركبت أنا وأحمدانى بجوار السائق «شاذلى» وأخذت

السيارة تمر على الأكواخ لتجميع الذاهبين للفرح، وركب الجميع فى صندوق السيارة فهى سيارة نقل، وكل منهم يحمل معه هدية عبارة عن خروف أو جوال فحم أو بعض الشاى والسكر وتحركت السيارة فى اتجاه الجنوب حوالى ٣٠كم جنوب مرسى علم فى اتجاه أبو غصون، ثم انحرفت غرب البحر فى مدق حوالى ٧٠ كم حتى وصلنا لوادى شواب مع آخر ضوء للشمس وهذا الوادى يغنى قصيدة فى الحب، فهو متسع جدا تحيط به الجبال من كل جانب وتترك فتحة صغيرة تجاه الشرق تسمح بالدخول إليه، ووسط الوادى شجرة عجوز تمتد فروعها لتظلل على كوخ تسكنه أسرة العروس، وتتناثر الحشائش الخضراء على أرض الوادى، وفى أول الوادى كوخ نصب خصيصا لاستضافة المدعوين، قدمنى أحمدانى لهم وأقبل الرجال للترحيب بى، وأخذ العريس يسكب علىّ الروائح فهذا تقليد لديهم للترحيب بالغرباء وخاصة فى الأفراح، والعريس أو الأمير، هكذا يلقبونه طوال فترة مراسم الفرح التى تستمر ٤٠ يوما هو حسين أبو رحب، بشارى الأصل يبلغ من العمر سبعين عاما، طويل القامة أسمر اللون، ملامحه دقيقة يلبس التكشتية وهى جلباب قصير يصل للركبة وأسفله سروال واسع يشبه سراويل الصيادين وهما من اللون الأبيض ومن فوق التكشتية الصديرى، وغالبا مايكون رماديا أو أزرق ووفق كل هذا الشجة وهى عبارة عن خمسة أو ستة أمتار من الخام «الدمور» وتلف حول الوسط مرتين ثم يلقى بطرفها على الكتف الأيسر، وقد كانوا فى الماضى يلبسون «الشجة» فقط تلف حول الوسط لتغطى منطقة الوسط والعورة ويلقى بالأطراف على الكتف، وكان حسين فى قمة أناقته فهذا يوم عرسه رغم أنه متزوج من ثلاث وهذه الزوجة هى الرابعة، وهى من أسرة عبادية وتبلغ من العمر ١٢ عاما، إلا أنه لم يفته أن يمشط شعره بالشكل الذى اشتهرت به قبيلة البجا، وهو تسريحة «هنكليت» حيث يقسم الشعر لجزئين الأعلى على شكل كنيش وتوضع فيه شوكة الشعر «خلال» والأسفل يضفر على شكل جدائل صغيرة تتدلى منها سيور الجلد المجدول مع بعض حبات الودع وكان حسين أبو رجب يمازحنى ويتحدث إلىّ بالرطانة «لغة البشارية» ولم يكن لى بهادراية فى ذلك الوقت، وأنا أحدثه بالانجليزية وكان هذا مثارا لإدخا

البهجة ورسم البسمة على وجوه الحاضرين، وقدم لى حسين سلطانية بها ماء لأشرب، ولعلمى أن تلك المياه مجموعة من فوق قمم الجبال ومليئة بالشوائب فقد قلت له: إننى مثل إبلكم لاأشرب كثيرا، وطلب منى حسين أن ألتقط له الصور وهو يرقص وبدا الجميع يرحبون بى وقام الأمير نفسه ليعد لى «السلات»، وهى اللحم المشوى، وطريقة الشىّ تتم بجلب حجارة البازلت السوداء ووضعها على النار حتى تمتص الحرارة ثم يوضع فوقها أجزاء الذبيحة وكانت عينى معلقة بالأمير يتحرك بخفة ورشاقة فخورا ومعتزا بنفسه وترى فى عينيه الإصرار والتحدى للحياة والإقبال عليها بروح شاب فى العشرين معلنا أنه سوف يستمتع بالحياة حتى آخر أنفاسه وسرعان ماتذكرت مافعلته بنا المدينة وكيف يشيخ الشباب وهم يستقبلون الحياة.

الظلام يخيم على المكان فالقمر لن يظهر إلا فى آخر الليل فنحن فى آخر الشهر العربى، وقبة السماء مرصعة بالنجوم وجلستنا تتم فى ضوء فانوس معلق فى سقف الكوخ، وسألت عن العروس وأهلها حتى أسلم عليهم، فأبلغونى أن من تقاليد العبابدة ألا تحضر العروس وأهلها من الدرجة الأولى الاحتفالات، فبدت الدهشة على وجهى ولكنها لم تدم كثيرا حيث بادرنى أحمدانى بالقول بأن هذا نوع من الاحترام بين الأسرتين فمنذ أن ينوى الشاب الزواج من فتاة معينة، فإنه يتحاشى أهلها خاصة حماته فلا يكلمها ولايجلس معها، ويصل الأمر أحيانا الى أنه لايمر بالمنطقة التى تسكن بها، وقص علىّ أحمدانى قصة توضح مدى تحكم تلك العادة فى سلوكهم فقد كانت سيدة عجوز ترعى حفيدها بعد وفاة أمه ووافته المنية ولم تجرؤ السيدة على مخاطبة والده (زوج ابنتها)، الذى يقيم على مقربة منها وانتظرت يوما ونصف حتى جاءها زائر فطلبت منه إبلاغ والد الطفل بوفاته، وهذا التقليد ينبىء عن عادة تجنب الحماة وهى منتشرة لدى قبائل افريقية كثيرة، ولم يدر بخلدى أنها موجودة عندنا فى جنوب الوادى .

طلبت منهم أن أذهب لكوخ العروس لأهنئها، فأشاروا علىّ أن أسير في اتجاه الضوء الخافت فى بطن الجبل، ومشيت مسافة كبيرة فى ضوء بطارية حتى وصلت

إلى الكوخ، سلمت على والدى العروس والنساء بالخارج وزحفت على ركبتى حتى أتمكن من دخول الكوخ فارتفاعه لايزيد عن متر، وبابه أقل ارتفاعا، وجدت العروس جالسة ترتدى فستانا مزركشا أحمر اللون وفوقه الشجة البيضاء وسلمت عليها وقدمت لها الحلوى وكانت هى فى حالة تشبه الصلاة، تتمتم بكلمات هامسة هى فى الغالب دعوات ولكنها ليست بالعربية، وتركت العروس لصلاتها وخرجت لأجلس مع أسرتها وراقبت النساء وهن مشغولات بإعداد الطعام، ولفت نظرى وجود سيدة تقوم بدور القائد لمجموعة من النساء، فسألت عنها وعرفت أنها الزوجة الأولى للعريس حسين أبو رحب، فمن تقاليد العبابدة أن تتولى الزوجة الأولى الإشراف على مراسم الزواج والقيام بأعمال الضيافة طوال فترة الفرح وتتلقى التهانى، وتساعد الزوجات الأخريات فى إعداد الطعام، ويتم ذلك بعد أن يخبر الزوج زوجته الأولى برغبته فى الزواج ويقدم لها هدية تسمى «رضوة» وهذا لا يعنى أن الاحساس بالغيرة منعدم لدى المرأة البدوية ولكنها لاتستطيع الإعلان عنه، والحقيقة أن ثقافة المجتمع هى المسئولة عن الحدة واللين فى المشاعر المختلفة كالحقد والغيرة والحب.. الخ.. وجلست بجوار والد العروس وقد بدا عليه الحزن فسألته عن السبب، وبلهجة المغلوب على أمره قال: « يابنيتى أنا زول فجير وداير أعرس بنتى لابن عمها لكن حسين طلبها وهو زول جوى، وجال إذا عرسها زول تانى ها يجتله ويجتل البهائم الدج يقصد أن حسين هدد بقتل أى انسان يقبل على الزواج بالفتاة غيره، وأنه سوف يقتل أغنام الرجل ايضا، ولكنه فى النهاية سلم أمره لله ووافق على الزواج، طيبت خاطر الرجل ورجوت الله أن يكون زواجا مباركا، وودعت الرجل وعدت إلى خيمة الضيوف فى أول الوادى، ولاحظت أن أعدادا كبيرة من الضيوف قد حضروا ولكنهم مشتتون فكل اثنين أو ثلاثة فى ركن يتحدثون وبعضهم جالس والبعض واقف، وجلستاًانتظر نهاية الأحاديث لكن الوقت يمر، فالساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل والبرد شديد والهواء يصفعنى من كل جانب، وسألت أحمدانى عن الوضع فأخبرنى أن أحد الضيوف قدم مؤخرا وعلم بوجودى وهو يصر على رحيلى وعدمَ حضورى للفرح، وقد انقسم الحاضرون قسمين أحدهما يرغب فى

وجودى من منطلق كرم الضيفة والعريس من هذا الفريق، والفريق الآخر يطلب رحيلى باعتبارى غريبة وهم يشكون فى الهدف الذى من أجله جئت لموطنهم، وحتى أطمئنهم عرضت عليهم أن يأخذوا المسجل والكاميرا ويتركونى أحضر المشاهدة فقط ولكنهم أصروا، واحتدت المناقشة بينهم وانبرى زعيم المعارضين شاهرا سيفه وأسرع الباقون برفع السيوف وكان لابد من اتخاذ القرار بالرحيل فالموقف لايحتمل، وكانت الساعة انذاك قد بلغت الثالثة صباحا، رحلنا أنا وأحمدانى والسائق وبعض البدو الذين غضبوا لهذا التصرف، وعند الكيلو ١٤ قبل مرسى علم تعطلت السيارة، ومن حسن الحظ أن على مقربة منا يسكن أولاد بركة وهم صيادون من فرع الكريجاب (عبابدة) فتوجهنا إليهم سيرا على الأقدام ونظرا لتأخر الوقت وقد خلد الجميع للنوم فقد اقترحت أن أنام فى السيارة على أن يناموا هم فى كوخ قريب منى، وذهب أحدهم وعاد حاملا بطانية وإبريق به ماء، وصعدت إلى كابينة السيارة، ولففت نفسى بالبطانية ولكن أبدا لم تطاوعنى نفسى على النوم، فالقمر قد أضاء السماء وسطع ضوءه على سطح البحر والمكان هادىء من الأصوات إلا صوت الهواء حين يصطدم بالأشياء وقمم الجبال، وجلست أنظر حولى، أين أنا؟ وكيف قدر لى هذا؟ لم يخطر ببالى يوما أن أقوم بهذه الرحلة..كنت أحلم.. مجرد حلم غير قابل للتحقيق أن أقوم برحلات علمية كبيرة مثل مارجريت ميد الأنثروبولوجست الأمريكية التى درست الهنود الحمر وسكان غينيا الجديدة، ويبدو أن الحلم قد خطا نحو التحقق فتلك خطواته الأولى.

وبدا قرص الشمس بازغا من البحر متوهجا بالضوء الأحمر على مياه البحر الزرقاء، ونزلت من السيارة بعد أن قدم رفاقى واستيقظ أولاد بركة وجلسنا نشرب الشاى وعرفوا ماحدث لنا فى فرح وادى شواب وأسفوا أشد الأسف لما حدث، وأحسست تعاطفهم معى، وعرضوا علىّ أن أخرج معهم فى رحة الصيد فوافقت على الفور، فتلك فرصة طيبة للحوار والملاحظة دون أن أعطلهم عن عملهم، ودعانى صلاح للتعرف على زوجته وأمه «سبرات» وبدت على وجوهم البشاشة والترحاب ودعونى للبقاء معهم ووعدتهم بذلك بعد عودتى من البحر، فى البحر كنت أمارس

هوايتى صيد السمك، وقد مارستها كثيرا طوال فترة وجودى على الساحل وفى أوقات فراغى، وعلمت من صلاح أن فرع الكريجاب هم فقط الذين يعملون بصيد الأسماك وهم منتشرون بطول الساحل، وتنطوى نظرة بقية البدو لتلك المهنة على معنى الاحتقار، ويطلقون عليهم السماكة والدليل على ذلك أنهم لايتزوجون منهم، والكريجاب ينتمون لجد فرعونى عرف باسم «منتون» وهم آخر فرع من فروع العبابدة دخولا فى الإسلام، وذلك بعد عجزهم عن دفع الجزية وقد ورث صلاح المهنة عن والده، وهو يبيع جزءا من صيده لتجار السمك بالقصير والعاملين بمرسى علم، وهكذا يكون تبعا للظروف كوجود سيارة، واذا لم تتوفر فإنه يقوم بتصنيع السمك «فسيخ أو بكالاه» ومن دخله يشترى لوازم الصيد وينفق على أسرته وأحيانا تأتى بعض المراكب السعودية إلى عرض البحر ليبادلوهم السمك ببعض المنتجات كالأجهزة الكهربائية أو المنتجات الغذائية كالشاى والبن والدقيق، وَهَمَّ صلاح بلم الشبكة وقد رزقنا الله بكمية من السمك وعاد القارب الشاطىء، ومشينا حتى وصلنا للكوخ فهو على الجانب الآخر من البحر فى بطن الجبل، وجلست أراقب «سبرات» وهى تشوى السمك، فالماء قليل والسمك طازج ولاضرر من شيه هكذا كما هو، وفى جانب آخر من الكوخ قامت زينب بصنع خبز السنامة وهو يشبه الرقاق وكلما نضجت رقاقة وضعتها فى مشنة كبيرة لها غطاء من السعف، وحان وقت الغداء ودعونى لأتناول غدائى مع الرجال وهذا تشريف كبير لى، فمن عادتهم ألا تأكل المرأة مع الرجال بل تنتظر حتى ينتهى الرجال من تناول طعامهم ثم تجلس إليه هى وأطفالها، وأثناء تناول الشاى سألنى صلاح بركة أن أعفو عما حدث بالأمس وأنهم جميعا يرحبون بوجودى معهم، وعرض علىّ أن احضر لأقيم معهم فى خيمتهم فى أى وقت، ونعت ناس الفرح بالجهل حيث أنهم لم يتعودوا لقاء الغرباء وعبرت لصلاح وأسرته عن شكرى ورحلت فأنا فى حاجة للنوم بعد يومين من اليقظة المستمرة .



الكنــــز مدفــون بالجبــــل

الجبال شاهقة الارتفاع أدخلت فى نفسى الإحساس بالقزمية وأنا أعبرها للدخول لوادى أم عشيرة أحد وديان العلاقى.. الخوف يحيط بخطواتى.. فالرمال ممتدة لمنتهى بصرى وكأن الخضرة لم تعرف طريقها لهذا الوادى الفقير فى مائه وأشجاره، ورغم هذا وجدت نفسى تستجيب للشعور بالسرور لرؤية الجمال البادى من تعانق الجبال الصخرية السوداء بالرمال الناعمة الصفراء، ورغم البرد القارس الذى يواتينا فى شهر يناير إلا أن الشمس قد حنت علىَّ فدثرتنى بأشعتها وأسكنت فى قلبى وجسدى الدفء، ولكن الشيخ على وهو من البشارية القاطنين للمنطقة يرغمنى على أن أشعر بالبرودة الشديدة.كلما نظرت إلى لباسه الرقيق من قماش الدمور والذى تزيد فتحاته عن الأجزاء المرقق فيه.

وأنا ألبس الصوف من رأسى لقدماى.. سبحان الله وصدق أجدادنا حينما عبروا قائلين (يعطى الغطا على قدر البرد) فرغم ملابسى الكثيرة إلا أن إحساسى بالبرد كبير. ويقص شيخى علىَّ قصة الكنز المخبأ فى الجبل.. فجبل أبو سيفين أحد القمم المطلة علينا يحمل فى باطنه كنز ثمين من الذهب والياقوت والزمرد وهو مرصود، وسألته عن معنى الرصد فأجابنى إن هناك حراس من الجن يحيطون بالمكان ويؤذون أى إنسان يحاول السطو على الكنز، وهم يظهرون فى الليل ويضيئون المكان بالمشاعل وآخرهم رجل قدم من المغرب ومعه عدة وعتاد كثيرة أهمها أساليب السحر المغربى.،. والسحرة المغاربة لهم شهرة واسعة على مستوى العالم العربى ودائما مايوصفوا بالمهارة الفائقة فى اعمالهم السحرية يليهم السحرة السوادنيين. أقام الرجل فى الوادى لمدة شهرين ومعه بعض أتباعه وخدامه وكان يمضى ليله كله فوق قمة الجبل يتلو التعاويد لفك طلاسم السحر ويروى الشيخ علىَّ

أنه وكثير من البدو كانوا يرون ألسنة النار تتصاعد من قمة الجبل فقد كان المغربى يخوض حربا ضد الجن ويسعى بسحره لهزيمتهم حتى يخلوا له السبيل للكنز، ولكن المعركة انتهت بانتصار الجن كما يبدو.. فقد غاب الرجل ولم ينزل لأتباعه كعادته فى صباح كل يوم.. وكيف ينزل وقد وجدت جثته محترقة تماما.. وتم دفنه أسفل الجبل ليكون شاهدا ومنذرا لأى انسان يراوده فكره بالسطو على الكنز، ولم يرهبنى الحديث فحملت عدتى من الأوراق والكاميرا وجهاز التسجيل وماتيسر من الطعام والشراب وصعدت الجبل بصعوبة بالغة لأنه صخرى، ولم تستطع السيول ان تنال منه وتحفر لها مجرى على وجهه، واستغرق صعودى للجبل مايزيد عن ساعتين وانتظرتنى المفاجأة حينما وصلت لقمته.. إنه الكنز..!! وهو مطلسم ولكن ليس من الذهب إنما نقوش فرعونية محفورة على صخرة كبيرة مربعة الشكل وتحيط بها النقوش من كل جانب.. ولم أتمكن من التقاط الصور الفوتوغرافية للنقوش لأننى واقفة فوق الصخرة ولاتوجد مسافة بجوارها تسمح لى بالوقوف والتصوير واكتفيت بأن أنقل النقوش على أوراقى كاملة كما رأيتها، اسرعت بالنزول للوادى فالجبل شاهق ويحتاج لتركيز شديد حتى تتمكن من ضغط توازنك فوق قمته.

جلست أتأمل النقوش واتساءل أهى رسالة من الفراعنة لأحفادهم لتبلغهم شيئا عن التاريخ أم إنها رموز تنبئ عن كنز حقيقى مدفون داخل الجبل. وربما علماء الهيروغليوفية يكونون قادرين على فك تلك الطلاسم وكشف المجهول الذى حسبه الناس ذهبا.

جلست فى الليل مع الشيخ علىّ وبعض البدو أقص عليهم مارأيته فوق الجبل وأشرح لهم عن تاريخ الفراعنة وحضارتهم ولكنهم أبدا لم يتنازلوا عن فكرة الكنز المطلسم.. وفى جلستنا هبت عاصفة رملية شديدة صداها قوى وهى تصطدم بالجبال وفجأة سقط شيئا فوق رأسى! ثم وقع فى حجرى مددت يدى وأمسكت به ثم ألقيته على الأرض وانا أصرخ من الألم الذى شعرت به فى رأسى ففتح مكى رفيقى فى الرحلة ـ الموظف بهيئة تنمية البحيرة ـ كشاف النور الذى بيده ليلقى بنظره على الحجر الذى اصابنى.. يصرخ مكى.. ويجرى قائلا عقرب.. عقرب ـ يمد

الشيخ علىّ بحجر ويقتلها عقرب كبير ولونها اسود وهى من أخطر أنواع العقارب لان سمها مركز حيث أنها لاتشرب الماء كثيرا.

الرعب تملك من مكى.. فالعقرب دقتنى (بمعنى لدغتنى) فى رأسى والموت محقق.. وأقرب وحدة لنا على بعد ٣٠٠ ك .م..، يعلو صراخ مكى لاجل إنقاذ حياتى.. فمن الصعب ربط مكان الإصابة وقطع مكان اللدغة بالموس كما نفعل إذا ماكانت اللدغة فى أى مكان آخر أسرع جار النبى وهو شيخ المنطقة ومن بدو العبابدة بحمى خنجر على النار وعلى ضوء الكشاف وفى مكان الألم وضعه بعد أن سمح للدم بالنزف طلب منى أن اصوم عن الطعام والشراب حتى الصباح... عدت للاستراحة الخشبية الموجودة على أطراف وادى أم عشيرة والتابعة لهيئة تنمية البحيرة، ودخلت غرفتى لأقضى ليلتى مع الألم والدموع والغريب أننى لم أفكر لحظة فى الموت فكان بداخلى يقين أننى سوف أعيش وأبرأ من جرحى ولكن الألم غير محتمل ولم يغمض لى جفن حتى الصباح، وخرجت لألقى ببعض الماء على وجهى وأمحو عنه الملوحة التى أصابته من دموعى.. وما أن وقعت عينى عليهم حتى عادت دموعى ثانية تنهمر بلا وعى.. فقد تجمع حول الاستراحة كل الرجال والعمال والسائقين والطباخين والموظفين بتوطين البدو والتابعين لجهاز تنمية بحيرة ناصر وأيضا البدو.. فكلهم قلقون وقد بذلوا الدعاء لله لينجينى من الموت المحقق.. وأقبلوا علىّ ليطمئنوا علىّ ويهنئونى بالسلامة وكانت دموعى هى تعبير العاجز عن بذل الشكر لقوم قلوبهم مليئة بالحب. الحب الإنسانى الذى جمل به الله خليقته على الارض.

أعلن «سيد تاعب» أنه سوف ينحر ذبيحة لله.. كرامة للدكتورة منى ودعا كل الحاضرين لتناولها وفى الظهيرة جاءنى صديقى مكى حاملا «ميكروكروم وقطن» لأغير على الجرح وأخمده وخرجنا جميعا لحضور الكرامة.. ولفت نظرى أن كل الرجال مشغولون بربط الخناجر على عضد أذرعهم اليسرى وانشغلت بذلك وكان انشغالى يشوبه القلق.. ياترى ماذا هم فاعلون؟ وتبدد قلقى حينما جلسنا إلى الطعام فالبدو يطهون اللحم بالعظم وتكون قطع كبيرة ولذلك لابد من استخدام

السكين او الخنجر عند تناوله ، لفصل اللحم عن العظم وتقطيعه لأجزاء صغيرة
يسهل تناولها وجلسنا مع الغروب نحتسى الجبنة ونخطط لرحلة لصيد الغزال حيث
ان الوادى يموج بالكثير منها وانبرى الكوبانى سائق السيارة يهتف الآن علينا
بالخروج للوادى ووجدتها فرصة أنشغل فيها عن آلامى.انطلقت السيارة، وسائقنا له
خبرة واسعة فى مطاردة الغزلان ، وأهم قاعدة فى المطاردة ألا تعطى فرصة للغزال
لكى تحتمى بالجبل بل عليك دائما طرحها بالوادى حتى يسهل الإمساك بها..
الغزالة تجرى بسرعة شديدة والكوبانى يرتفع بسرعة السيارة لأقصاها.. هلكت
الغزالة من التعب ونزل جارى للإمساك بها ولكن الكلب كان أسرع منه فقد قفز من
فوق الجبل بعد أن أطلقه أسياده وهم قوم من بدو البشارية وكانت معركة اشتركنا
فيها ثلاثتنا لإنقاذ الغزالة من أنياب الكلب ومحاولاتنا باءت بالفشل ولم يحسم
المعركة إلا وصول كرار شاهرا خنجره وبقدميه الشديدتين ضرب الكلب وحمل
الغزالة إلى صندوق السيارة وذبحها. وبخفة يد شديدة شق بطنها وتناول الكبد
وقسمه نصفين الأول على فمه مباشرة وألقى بالنصف الآخر لرفاقه، واستكمل عمله
ثم فعل بالكلوتين مثلما فعل بالقلب. وعندما انتهى من الذبح والسلخ أعطانى الجلد..
فقد أعلنت رغبتى فى الحصول عليه، وقسم اللحم نصف لنا ونصف له ولرفاقه،
وكنت مشغولة بالتقاط الصور ويدور بذهنى سؤال هل يشرب البدو الدم؟ ولكنه لم
يظل سؤالا فقد أبصرت كرار ورفاقه وهم يتناوبون كبش الدم بكفوف أيديهم
ويشربونه.. والشىء المدهش ان شعور التلذذ والاستمتاع يبدو على وجوههم وكأنهم
عطشى، نال منهم العطش كثيرا وشربوا المـاء بعد عذاب .

وقفز لذهنى سؤال جديد هل هناك علاقة بين شرب الدم وصفة الشراسة؟ فكل
سكان الصحراء يشربون الدم وجميعهم يتصفون بالشراسة والعنف رجالا ونساءً.
وتتجمع فى ذاكرتى الكثير من الأحداث التى رأيتها بعينى وأخرى سمعت عنها .

ومما وصل لمسامعى أن سيدة لها حبيب وزوجها لايرغب فى فراقها والرحيل
عنها فقررت الانتقام منه ليخلو لها وجه الحياة مع حبيبها، فخرجت فى الصباح
الباكر ودفنت السيف فى الأرض أمام باب الكوخ وذهبت لتجمع الحطب، وبعد
عودتها أخذت فى الصراخ والعويل منادية على زوجها لينقذها من أنياب الديب

فخرج المسكين مسرعا ومتحمسا لنجدتها، فسقط فوق السيف فانتفضت كفوف
قدميه وسالت الدماء على الرمال لتشهد بقسوة بنى آدم .

ومارأيته بعينى فى مطعم على مشارف مدينة كسلا يفوق الوصف والاحتمال
والمطاعم هناك لها نظام يختلف كثيرا عما ألفناه فالغرفة قديمة وحوائطها سوداء،
سقفها من فروع الأشجار وينتشر فى أرجائها بعض المناضد المكسرة، وملقى عليها
بالخبز والطماطم والبصل، وعلى جانب منها الأطباق وفى مدخل المحل قدره الفول
فوق موقد الفحم، والراغب فى تناول طعامه بالمحل عليه أن يتناول أحد الصحون
الملقاة ويحمل فيه حاجته من البصل والطماطم ويقوم على تنظيفهم بماء الترمبة
الموجود على بعد ٢٠ م من المحل ثم يعود بالطبق ليصب له الرجل صاحب المحل
كبشة من الفول ويحمل طعامه ويجلس القرفصاء فى ظل الأشجار المنتشرة ليتناوله.
ثم يدفع الحسـاب ويرحل ، ودخلت المحل لأتناول طعامى بنفس طريقة رواده..
ولـكنى لم أتمكن من الولوج داخل المـكان فقد التصقت بالمدخـل ولم أنفصل عنه
إلا بعد مرور زمن أظنه طويلا جدا فهول المنظر شل قدمىّ عن الحركة.. وأفقدنى
النطق.. فالرجل الهدندوى قد أمسك بشعر الزنجى بقوة وبرفسة من قدمه أوقعه
على الأرض وبيده الأخرى تناول الخنجر وفصل رقبة الرجل عن جسده ثم ألقى بها
على الأرض وخرج لينظف سلاحه بالماء ثم ربطه حول وسطه ونظر بزهو وفخار لكل
الحاضرين وانصرف وجثة القتيل اصبحت مثل الفرخة المذبوحة المفرفرة الدماء
تتناثر فى كل الاتجاهات ، وهى ترتفـع وتتحرك على الارض حتى وصلت للباب
التى أصبحت أنا وهو شيئا واحدا. لاتسألونى عن مشاعرى أنذاك فهى فوق
الكلمات والوصف.

والعجيب أن هذا الزنجى دفع حياته ثمنا لاعتدائه على الصحن الذى قام
الهدندوى على تنظيفه فقد دخل الزنجى فوجد صحنا نظيفا فحمله ليصب له الرجل
فيه الفول ولم يكن يدرى أنه فى حوزه آخر ولم يمهله الهدندوى، وجاءه من خلفه
ممسكا برأسه وقتله، وتلك القصة وقصص كثيرة أخرى تقول لنا بأن الشراسة صفة
أساسية يتميز بها الإنسان البجاوى فهى بصمة تركتها الصحراء وخلفها الزمان

على وجه شعب قديم. وظل شبح القتيل يطاردنى أياما كثيرة قضيتها فى رعب وقلق ولم يهجرنى إلا بعد ان غادرت كسلا إلى بور سودان وعجب العجاب ان رد فعل كل الحاضرين كان سلبيا تماما بل وصل الأمر أنهم كانوا فى صف القاتل فهو المظلوم فقد اعتدى على صحنه وكان السماحة والمغفرة ليست لها مكان فى قلوبهم. والحقيقة ان قبيلة الهدندوة مشهورة بين كل قبائل البجا على وجه الخصوص وقبائل السودان على وجه العموم بالشراسة والعدوانية.

سيادته بيقول وانا مالى ..!!

ذهبت لمكتبه مرارا وتكرارا فى محاولة للقائه ولكنه على الدوام مشغول. وأخيرا سمحوا لى بلقائه فى الليل وبعد التاسعة مساءا. قدمت له نفسى وشرحت له الهدف من وجودى بأسوان وقدمت له أوراقى التى تضم خطاب الجامعة وتصريح المخابرات الحربية ومخابرات حرس الحدود.. صمت الرجل.. ثم ألقى بأوراقى فى درج مكتبه ونهض معلنا نهاية المقابلة، واتجه للباب منصرفا وأثناء هبوطه السلم قال: «سوف أرسل بأوراقك للمخابرات العامة ومحذور عليك التحرك من مكانك والخروج من أسوان حتى تأتى الموافقة على وجودك وعملك».

تمر الأيام وكلما ذهبت للسؤال يأتينى الرد «تعالى بكرة» ماذا أصنع بتلك الأيام التى تمر دون عمل فقد جئت للعمل لا للاسترخاء ومشاهدة الآثار.. فقد جمعت مدخراتى للبحث وليس للفسحة على ضفاف النيل. مر عشرون يوما، وقربت نقودى على النفاذ فليلة واحدة باللوكاندة بـ ٣٠ جنيه خلاف الطعام، وفرض علىّ السكون ولكن روح التحدى التى تسكن جنبات صدرى قاومت ودعتنى للسفر فذهبت إلى دراو والمناطق المحيطة بها.

ووصل الفرج يحمل تصريح المخابرات العامة متضمنا الموافقة على وجودى وإجراء البحث، وسعيت للسيد المحافظ «قدرى عثمان» وبعد التحية.

ـ لقد وافقت المخابرات العامة على إجراء البحث ووجودى بالعلاقى ووادى حلفا.

المحافظ:: وانت عاوزة ايه د لوقت.

ـ محتاجة مساعدة سيادتكم بتوفير مكان للإقامة وسيارة لمدة أسبوع أنزل بها الصحراء.

المحافظ: وأنا مالى اساعدك ليه.. اللى ارسلوك يساعدوكى.

ـ أنا لم يرسلنى أحد أنا باحثة مصرية وأجرى البحث لصالح الجامعة المصرية.

تحرك السيد المحافظ منصرفا، واتجه إلى السلم ويحيط به الحاشية من المديرين وموظفى العلاقات العامة. ونظر إلىّ قائلا: «انت شايفة المبنى ده.. كله موظفين العدد فى الليمون.. مافيش شغل .. لما أحب اعمل بحث.. يبقوه يعملوه»

ونزل السيد المحافظ ومن خلفه هيئة المكتب.

من ذهولى من الموقف تسمرت فى مكانى حتى خلى المبنى تماما وأفقت على صوت الساعى يقول: «ياست هانم روحى بقى».

لا أعرف كيف قادتنى قدماى إلى اللوكاندة.. ولاأعرف كيف عبرت الشارع ووصلت سالمة رغم الدموع التى ملأت عيونى أثر الجرح.. نعم فقد جرحنى السيد المحافظ وكأننى كنت أستجدى منه حسنة فقد انقلب الوضع فهو يجلس على الكرسى ليخدمنى أنا والكثيرين من أبناء هذا الشعب، ولكنه نسى وجلس على كرسى الفرعون.

دارت برأسى أفكار كثيرة وكلها تدور حول العودة للقاهرة على أمل أن أتخذ موضوعا جديدا للبحث يتم إنجازه داخل جدران المكتبة.

نما إلى مسمعى أغنية يشدوا بها المراكبى على ضفاف النيل بيقول: «شدى الألوع يامراكبى مافيش رجوع .. شدى الألوع مافيش ركوع يامراكبى» وكأن تيار كهربائى سرى داخلى واستنفزت كل قواى وداخلنى إحساس أننى قادرة على تحدى العالم بأسره.

وقررت التحدى.. تحدى كل الجهلة الجالسين على كراسى المقاليد تحدى الصحفى الكبير الذى قال لى أننى مجنونة.. فى الوقت اللى الناس بتشيل قرش على قرش انتى رايحة تصرفى فلوسك على البحث.. بحث إيه وعلم إيه» بأرضى.. بمصر ، قررت تحدى الصحفى الكبير المتشدق بالديمقراطية والعدالة حينما قال لى: « روحى اشتغلى لصالح هيئة أجنبية.. بدل وجع القلب ماهم فى النهاية سيحصلون على شغلك يبقى تستفيدى» ولم يعنيه لحظة أننى أعمل بمنطقة استراتيجية وخطيرة بالنسبة لامن مصر،

تحدى المنافقين والمتشدقين بحب مصر وهم يبخلون بخير مصر ومالها على أبنائها.

وقبلت أن أكمل رحلتى فى عناء ومخاطرة.. قبلت أن أركب سيارة تحمل فحم وأخرى تنقل المياه وثالثة تنقل بنزين وتعرضت للقبض علىّ لأن السيارة التى كنت أستقلها كانت تحمل شحنة مخدرات. عشت فى درجة حرارة ٥٦ درجة و٣ تحت الصفر، شربت مياه الآبار والأمطار وتحملت الجوع لعدة أيام، إحتمل جسدى حمى الملاريا والمغص الكلوى وجلطة بالمخ.. احتملت وسوف أحتمل وتحديت وسوف أتحدى لأننى مصرية من نبت أرض مصر.

يـــوم على الشاطىء

كان الجو بديعا فى الأيام الخالية ولكن اليوم شديد الحرارة والرطوبة مرتفعة جدا، ويسميه البدو «أزيب» على الرغم أننا فى عز الشتاء وأصابتنى حالة من الحموضة الشديدة بمعدتى وفقدت القدرة على التنفس المكان بعيد فأنا على شاطىء أبو رماد أسكن فى كوخ زينب وأقرب وحدة صحية تبعد ١٥٠ ك . م. فى الشلاتين.. واللجوء إلى الطبيب أمل شبه مستحيل.. والأمل المتاح هو الصبر لعل الألم يرحل أو أنام، ولكن هيهات.. الوقت يمر والألم يتضاعف وأسدل الليل أستاره ورقدت على الرمال شغلت نفسى بإحصاء نجوم السماء. وكلما وصلت إلى رقم عشرة عدت ثانية

من جديد فالألم يشدنى والأرقام تفلت منى، وفجاءة أصوات كثيرة صادرة من اتجاه البحر! . الظلام حالك مع غياب القمر ولكن الرجال يحملون مشاعل بأيديهم ويبدون كالاشباح انكمشت داخل جسمى وكتمت أنفاسى من الخوف.. والمشهد أمامى يقول: إن هناك شيئا غير عادى فالقارب الصغير وسط الماء يلقى بكاوتشات «إطار السيارات» فى البحر والرجال يمسكون بها ويحملونها للشاطىء وآخرون يضعونها فى صندوق السيارة. طال الوقت وأظن أننى فقدت الإحساس بأطرافى من أثر ندى الفجر، ورويدا رويدا انسحبت روحى ودخلت فى نوم عميق لم أفق منه إلا والشمس فى منتصف السماء وأنا راقدة وسط الصخور ومياه البحر تغمرنى.. فالبحر يمد بأطرافه إلى منتهى الشاطىء ومع بزوغ الشمس أفقت من الغيبوبة.. مندهشة.. حالمة.. خائفة.. امنة. غير مصدقة ماحدث ، وهل هو حلم أو حقيقة؟ وإذا كان حلمـا فمـا الذى رمى بى وسط صخـور البحـر ؟ وإذا كان حقيقة فسبحان من أنجانى من أنياب آكلى لحوم البشر وتجار المخدرات. ونصحتنى العجوز «زينب» ألا أذكر شيئا عما حدث حتى لاأدفع حياتى ثمنا لعلمى.. فقد لصقت ملامحهم بذاكرتى.

وكان صمتى عن جهل بمن هم الذين أتحدث إليهم ولم يكن صمت عن خوف فالعمر واحد والرب واحد.. وكم كانت سعادتى حينما علمت فيما بعد أن قوات حرس الحدود المصرية قامت بالواجب .

موقف طريف

كثير من البدو الذين على صلة بالمدنية يعتقدون أننى صحفية وذلك لكثرة رؤيتهم للصحفيين فى الفترة الأخيرة. وفى أثناء وجودى بمنطقة وادى العلاقى جنوب شرق أسوان صدرت مقالة مكتوبة عن تجربتى فى الصحراء، وملحق بها صورة لى وصورتين لنساء العبابدة بمنطقة الشاذلى وعلمت بهذا الأمر بعد عودتى لأسوان من

العلاقى، وراودنى الخوف من هذا الأمر ولكنى اعتمدت على أن الجرائد والمجلات لاتصل إلى عمق الصحراء ولا إلى ايدى البدو.

وسافرت الى وادى حميثرة المقام به مسجد أبى الحسن الشاذلى وقمت بزيارة حليمة وفوجئت بها غاضبة ثائرة وتطلب منى «جروش» الفلوس التى أخذتها من الجرنال الذى نشرت به صورتها، وأسرعت لجرابها وأخرجت الورقة وسالتنى عن صورتى وصورها، وعلمت أن أحد أقاربها بأسوان أرسل لها فاكهة ملفوفة بتلك الورقة. ولأنهم شغوفون بمشاهدة الصور فقد لفت نظرهم صورتى وتعرفوا علىّ واجتمع من حولى نساء المنطقة يطالبونى بالجروش وأقسمت لهم أننى لم أحصل على مليم واحد؟ وانبرت إحداهن تقول لى: «أنت كذابة علشان الورق ده الناس بتشتريه بفلوس وأننى أملك الكثير من بيعها فى اسوان» واستحال علىّ شرح الوضع لهن فلن يصدقوا أن جريدة الاهرام ملك الدولة وليست ملكى ولحل المشكلة قدمت لهن مبلغا من المال؟ وبعد أن أخذوا المال سالونى المزيد ثمنا للصور، ولكن حليمة أسرعت لتنفى عنى تهمة نشر صورها فحينما التقطت لها الصور كانت تلبس «خلج : فستان» أصفر، ولكن السيدة اللى فى الصورة بتلبس خلج أسود وهذا دليل على أنها امرأة غير حليمة «فالصورة التى صدرت بالاهرام لحليمة ولكن لأنها أبيض وأسود.. فتصورت حليمة أنها امرأة تشبهها».

وحمدت الله على أن الموقف انتهى بهذا الشكل. فالبدو يرفضون التصوير وخاصة للنساء وقد التقطت الصور لحليمة بدون علم زوجها ولو ظهرت الحقيقة لطردت حليمة من عصمة زوجها ولطردت أنا من المنطقة وتوقف مشوارى .

الطريق إلى حلايب

كان حلما.. ولايزال.. هنا أو هناك! رجل شيخ عجوز يعرف أسرارها وخباياها هو الذى يملك أن يفسر لى سر الحياة والموت.. هو صاحب المعرفة.

والرغبة فى المعرفة شجرة تنمو بداخلى يوما بعد يوم وانا لاأملك ما أرويها به.

بدأت رحلتى عن الشيخ العجوز.. وعن سر الحياة وللآن لم أجده ولكن الرحلة بدأت.. رحلة المعرفة مع الفراعنة ولأجلهم بدأت رحلتى.. قرأت عنهم وشاهدت آثارهم.. انبهرت بقدراتهم وفجأة قال لى سليجمان: إن قبيلة «البجا» هى ورثة التراث الثقافى والفيزيقى والتاريخى للفراعنة من خلال كتابه «السلالات فى إفريقيا» وأنهم يعيشون فى الصحراء الشرقية ومن فروعها العبابدة والبشارية .

يالها من مفاجأة ! أحفاد الفراعنة يحرسون الصحراء وبمجرد أن حصلت على دبلوم الدراسات العليا فى الانثروبولوجى سجلت موضوع بحثى عنهم وهم يسكنون الجزء الجنوبى من الصحراء الشرقية ابتداء من الخط الواصل بين قنا القصير والألمان وينتشرون حتى حلايب وجبل علبة. والدراسات السابقة عنهم قليلة وكلها تمت فى القرون السالفة بأيدى الفرنسيين والانجليز والألمان. وهم لم يسجلوا فى أبحاثهم شيئا عن الموضوع الذى أهتم به وهو الجمال والفن لدى الشعوب الرعوية القديمة.

إن طبيعة د راستى الانثروبولوجية تحتم علىّ السفر إليهم والعيش بجوارهم، بهرتنى الصحراء بجبالها جذبتنى آثار أجدادى فى مناجم الذهب بالنواخير والبرامية، ومصاطبهم الهرمية المنتشرة بطول الصحراء ويستقر هرم صغير بمنطقة ماامام على حدود السودان مع الحبشة.

وجذبت الصحراء المتصوفين من شتى الأديان فقد سكنها الأنبا بولا وله دير فى وادى الحمامات والأنبا انطونيوس بجبل سيجة غرب الشلاتين وفى صحراء عيذاب سكن سيدى أبى الحسن الشاذلى رائد التصوف الاسلامى، وفى حلايب ميناء سوكان القديمة - بين شلاتين وحلايب - منطلق الأفارقة إلى بيت الله الحرام، الصحراء تتكلم بماضيها والجبال تشهد عليها.

كل يوم يمر علىّ داخل الصحراء يزيد ولعى بها وارتباطى، وكلما سمعت عن منطقة دفعنى حبى للمعرفة لزيارتها رغم أن الحركة والحياة داخل الصحراء شىء صعب خاصة لفتاة مثلى .

سافرت لكل قرى مدن النيل، من كوم أمبو وأسوان حتى النوبة القديمة ووصلت إلى وادى حلفا ووادى العلاقى وهى الصحراء، زرت حفافيت والشاذلى وأبرق وجنوب وادى العلاقى ووادى امور، وعلى الساحل تنقلت بين برنيس ـ راس بناس ـ الشلاتين ـ حلايب ـ بور سودان ـ سواكن ـ طوكر ـ عقيق ، وفى السودان عشت فى كسلا وكل القرى والأقاليم المحيطة بها حتى وصلت إلى الحبشة وأقمت فى مدينة كرن ومدينة تسنى .

وعادت بى الرحلة أخيرا إلى حلايب وجبل علبة .

فيا ترى ماهى قصة هذا الشعب ؟

الاسم فرعونى

شعب هذه الصحراء عرف القدماء المصريين واتصلوا بهم منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وكانوا يعيشون على صيد الحيوانات التى كان يموج بها موطنهم، واكتشف الفراعنة الذهب واستخدموا سكان الصحراء فى استخراجه، ولأنهم مهرة وأقوياء فقد استعان بهم ملك مصر رمسيس الثانى فى حربه ضد الهكسوس . وبعد إحراز النصر أطلق عليهم اسم «ماجوى» وهى كلمة فرعونية تعنى الرجل المحارب ومع تداول الكلمة حرفت إلى «ميجا» ومنها إلى «بجا» ومجدهم رمسيس بأن نقش صورهم بجواره فى الحرب وتلك اللوحة موجودة بمعبد إدفو.

وعاشت البجا تقدس إيزيس وأوزوريس وكانت تزور معبد «فيلة» وتحمل معها تمثال ايزيس لتبارك لهم الحياة، ثم أقامت لنفسها معبدا خاصا فى جزيرة «بجة» المواجهة لجزيرة فيلة بأسوان، ونزل الكهنة لموطن البجا لإقامة الشعائر الخاصة بالإله «أتون» فتعلمت البجا اللغة المصرية وتحدثوها... قويت العلاقة بين الفراعنة والصحراء بسكانها. ومن سواحلهم خرجت أساطيل حتشبسوت لبلاد بونت وخرج من البجا الإله «منتو» إله الحرب الذى اتخذ له مقرا فى وادى الحمامات وآخر

بوادى العلاقى الذى قدسه الفراعنة ورفعوها لمرتبة الإله أوزوريس وجعلوا من إيزيس زوجة له. ولذلك فإن الحرب والشجاعة سمة أساسية تميز الإنسان البجاوى البائد والحالى .

ونسرع بالزمن لنطل على البجا بعد أن تزواج الدم العربى بالدم الفرعونى البجاوى ودخلت فى الإسلام وبرزت لنا أسماء جديدة للقبائل هى العبابدة والبشارية.

والعبابدة تسكن أول موطن البجا وعلاقتهم بمدن وادى النيل أقوى من البشارية، وكل فروعها وهم «المليكاب ـ العكارمة ـ الشناتير ـ الفقرا» نزحوا لمدن وقرى وادى النيل فى مصر وهى «قنا ـ دراو ـ إدفو» و «بربر ـ الدامر ـ أبو أحمد» بالسودان. فيما عدا قبيلة العشباب التى مازالت تسكن الصحراء وترعى الإبل.

وفى رحلتى زرت موطنهم وعشت جوارهم فى «مرسى علم ـ الشاذلى ـ حفافيت ـ أبو غصون ـ الجلعان ـ أبرق ـ البوابة ـ الحميرا ـ برنيس ـ راس بناس ـ الشلاتين».

واللغة تختلف من منطقة لأخرى ففى مرسى علم أتحدث العربية وكلما اتجهت جنوبا زادت عدد الكلمات البجاوية فى الحديث حتى وصلت جبل علبة وهناك حتمية أن تتحدث اللغة البشارية ويطلقون عليها «رطانة» وطبعا فى بداية رحلاتى كنت أستعين بدليل منهم يهدينى إلى الطرق الصحراوية، ويترجم لى لغتهم ولكن مع طول فترة وجودى بينهم استطعت أن أفهمها وأتحدثها وفيما عدا اللغة فإنك لاتشعر بالغربة او الفارق بين منطقة وأخرى أو قبيلة وأخرى من وادى الحمامات فى مصر وحتى كرن بالحبشة وهذا لايدهشنى لأنهم جميعا من أصل واحد ولهم تراث فكرى ودينى واحد والإختلاف يكمن فى أسماء القبائل فقط.

ولا أخفى عليكم أن حياتى بين بدو العشباب كانت أيسر منها بين فروع البشارية ولذلك فانا اعتبرها نقطة مهمة فى تجربتى، وكانت ركيزة مهمة لانطلاقى إلى جنوب الصحراء ودفعتنى للحبشة، وذلك بسبب اللغة بالإضافة إلى طبيعتهم

الجافة فهم لايحبون الغرباء ولايرحبون بهم ويخشونهم دائماً، وتلك صفة أصلية فيهم عززتها طبيعة موطنهم البعيد والمعزول عن الحياة فى وادى النيل وقد عرف عنهم الانجليز تلك الصفة واطلقوا عليهم «فزى وزى» بمعنى «النافرين» أى الذين ينفرون من الغرباء.

فى الشلاتين

وكان الرعب يسكننى يوم أن انطلقت السيارة فى طريقها لشلاتين فهى بداية موطن البشارية على الرغم من أننى قابلت الكثيرين منهم فى حى البشارية بأسوان وأيضا فى سوق دراو للإبل، ولكن الفارق كبير فأنا الآن فى موطنهم وكان خوفى الأساسى هو رفضهم لوجودى ولإقامتى معهم.أنا الآن فى الشلاتين وبالقرب من طريق الأسفلت تنتشر الأكشاك الخشبية وهى محال تجارية تباع فيها المنتجات المصرية والسودانية وأهمها الاقمشة والأوانى والروائح والحنة بالإضافة للسكر والدقيق والبن، وعلى بعد ٧ ك .م وعلى الساحل مجلس مدينة الشلاتين والمساكن الجديدة التى أنشاتها وزارة التعمير والمدرسة والجامع وحولها الأكواخ القديمة للبدو فهم مرتبطون بمساكنهم ويستخدمونها كحظيره للأغنام وذلك بعد أن سكنوا المبانى الجديدة التى بنتها لهم مصر .

وفى صحبة شيخ الجامع وطبيب الوحدة وناظر المدرسة ذهبت لعمدة قبيلة الأشب وشيخ الشلاتين رحب بى الرجل واستضافنى بمسكنه مع أسرته وكنت أحرص فى البداية على الالتقاء بالرجال فهم الذين يسافرون ويرحلون ويعلمون الكثير عن الصحراء وتاريخها. بينما معرفة النساء عادة ماتكون محدودة ومرتبطة بالعادات والتقاليد. ولذلك كنت أمضى يومى كله فى سوق الشلاتين وألتقى بالتجار والبشارية القادمين من الجبال لشراء احتياجاتهم، فالشلاتين مركز لتجمعهم تليها حلايب ومركز تجمعهم الآخر فى بعلوك بالقرب من كسلا بالسودان.

فى السوق كنت أجلس دوما إلى جانب «محمد نور» التاجر الذى أمضى جزءا كبيرا من حياته فى القاهرة والإسكندرية وكان لابد أن اساله عن سبب عودته واستقراره بالصحراء، وقد أطلعنى على حقيقة كنت فى شك منها وهى أن البدو

والرعاة مرتبطون بالأرض مثل الفلاحين تماما، والفارق أن الفلاح يقيم على الأرض ولايبرحه ، بينما الراعى يرحل عنها باحثا عن الماء والكلأ لحيوانه، وحتى إذا لم يعد إليها لأى سبب فهى ميراث أسرته، فالصحراء بكل وديانها وجبالها وأبارها مقسمة بين القبائل المختلفة ومسجل هذا فى خرائط كبيرة وحدد عليها حدود كل قبيلة على حدة، وتلك الوثائق يحفظها ناظر القبيلة، ثم يتم تقسيم أرض القبيلة بين بطونها وعشائرها وأسرها الصغيرة، وتستخدم الآبار والوديان كفواصل طبيعية بين موطن القبيلة والأخرى، ولايقتصر الأمر على الوديان والآبار فقط وإنما يصل إلى تقسيم أشجار السنط والسيال المنتشرة بطول الصحراء، وطالما أن الشجرة مثمرة فهى غذاء للإبل وبعد أن تجف يقوم أصحاب الوادى بحرقها، ويصنع منها الفحم الذى يباع ويعتبر مصدر رزق لهم، بالاضافة الى الأعشاب البرية الطبية التى تنمو بشكل طبيعى وتباع فى الأسواق مثل «حلف البر ـ الحرجل ـ الصمغ العربى»

وحدثنى التاجر محمد نور كثيرا عن المنطقة وعن آثارها التاريخية بالقرب من الشلاتين أو بشكل محدد بين الشلاتين وحلايب تقع مدينة سواكن القديمة ـ وكانت الميناء الرئيسى للحجاج ـ، وهذه المدينة القديمة الآن غطتها الرمال والصخور ولكن البدو يعرفون بعض المداخل إليها.

وقبيلة البشارية تضم فرعين أحدهما يدعى بشارية أم على والآخر بشارية أم ناجي، وتقول الأسطورة القديمة التى تعيها ذاكرة عم بشير، وقد التقيت به فى منطقة بئر شناى على بعد ٧٠م. غرب جبل علبة. أن جدهم الأكبر «كوكا» وكان فى الأصل حجرا انحدر من جبل علبة وتحول لبشر، وكان له زوجة تدعى «جنية كوكا» إختطفها الرومان وفروا بها إلى الساحل لبيعها، ولكنها تمكنت من الهرب واختبات فى مغارة بجبل علبة فانهارت عليها ولفظت أنفاسها الأخيرة بعد أن وضعت مولودها «أنوكا».

وكبر الطفل وتزوج من امراتين إحداهما تسمى «أتوانا» والأخرى «أهوانا» ومن نسلهما كانت قبائل البشارية أما الجد الكبير «كوكا» فقد حزن على فقدان زوجته وعاد مرة ثانية إلى جبل علبة ولطبيعته الأولى الحجرية ووعد نسله بأن يظل باقيا يحميهم من الشرور.

٣

الأســــــــــــــــطورة

والحقيقة أن تلك الأسطورة تفسر لنا سر ارتباط البشارية بجبل علبة وانتشارهم حوله. بالإضافة إلى أن معظم البشارية الذين يسكنون الجبال نجدهم يحتفظون بحجر مستطيل الشكل من البازلت الأسود، وحينما يقبلون على حلب الناقة يضعونه فى إناء من سعف النخيل يسمى «عمره» ويحلبون عليه، فهم متفائلون به ويعتقدون أنه بشارة للخير وزيادة فى اللبن.

وينزل للشلاتين بشارية الجبل فى اليوم الثالث من أول كل شهر وهو يوم وصول قافلة المواد التموينية التى تأتى من محافظة البحر الأحمر ليتم توزيعها على البدو، وكم كانت سعادتى فى ذلك اليوم فتلك المرة الأولى التى أرى فيها رجالا تتطابق ملامحهم مع القدماء المصريين وكم كان يشغلنى هذا الأمر، فقد قرأت كثيرا وحان الوقت أن أرى الفراعنة وهم طوال القامة وملامح وجههم دقيقة ولون بشرتهم بعيد عن البنى الغامق وأقرب إلى البنى الفاتح المشرب بالحمرة، وشعرهم ليس مفلفلا ولكنه مجعد، وطريقتهم فى تصفيف الشعر تجعله يبدو وكأنه مفلفل، وبالمناسبة فإن طريقتهم هذه تسمى «هنكليت» وتتم بتضفير الجزء الأسفل من الشعر، أما الجزء الأعلى فيمشط على شكل كانيش باستخدام «ايراب دول» وهو شوكة الشعر، وتلك الطريقة فى تصفيف الشعر تميز الرجل البجاوى عن كل شعوب وسكان إفريقيا، وحرصا منهم على شكل التسريحة فإنهم يصنعون وسادة من الخشب ليناموا عليها تسمى «ميت جورمة» مثل الوسادات التى توجد فى التوابيت الفرعونية، ولاترى البشارى إلا وهو حامل السيف على كتفه وفى حزامه يعلق الخنجر وبيده العصا الرفيعة هذا هو الرجل البجاوى منذ أجداده الفراعنة وحتى الآن.

إن السوق يموج بالحركة ليل نهار فهذا المكان ملتقى لكل الفروع حيث يأتى إليها «الأشب، والعلياب والهمة، اوراب، والمشنتيراب من الجبل، وتلك هى بعض من فروع بشارية أم على ومقرهم شلاتين وحلايب وجبل علبة وهناك فروع أخرى «ويلنياب – بطرن – ماشولاب – مداكير» ومقرهم على نهر العطبرة بالسودان، ولكن العلاقة بين كل الفروع والقبائل قائمة ومستمرة فهم دائما فى ترحال ففى الصيف يرحل معظم البدو من الشلاتين وحلايب إلى نهر العطبرة ليرعوا إبلهم على الحشائش التى تنمو مع الفيضان وفى الشتاء يصعد البدو إلى غرب جبال علبة حيث موسم الأمطار.

بئر شناى

البشارى لايحب المزاح بل يكاد لايعرفه وقد قادتنى الظروف أن أمزح مع «عيسى» راعى إبل فى منطقة بئر «شناى» وهذه البئر تطل من فوق الجبل وتمتلىء عينه بمياه السيول والأمطار، ثم تسيل منحدرة للوادى فتصبغه باللون الأخضر، وتأتى اليه النعام والغزال والوعول لترعى به خاصة فى الشتاء فى شهرى ديسمبر وينابر.

وقد أخبرنى عيسى بأنه يود الزواج منى وسوف يدفع لى مهرا عشرة جمال، وبطبيعتى المصرية اعتقدت أن هذا مزاح، وطلب أن أسال والدى وأبلغه بردى فيما بعد، ولكنى سافرت ونسيت الأمر تماما. وبعد فترة كنت أقيم بوادى شلال المواجه لقرية حلايب وعلى بعد ٢٠ك منها جاءنى عيسى غاضبا جدا إلى حد الشراسة وقال لى: «تو اور وهرا» أنت امرأة كذابة وكانت مشكلة كبيرة جدا هددت وجودى وحياتى بالمنطقة، ولم تحل المشكلة إلا بعد أن ذهبنا للعمدة «محمد على» وتولى شرح الأمر له وأفهمه اننى لم أقصد أن أكذب عليه او اسخر منه ولكن أبناء المدينة دائما مايمزحـون فى الـكلام وبعدها حرصت أن اكون محـددة فى كلامى مـع البدو، وتلك الظاهرة يكثر فى وجـودها لدى الهدندوه وهى القبائل المجاورة للبشارية فى بورسودان.

ثم عدت إلى الشلاتين وأقمت فى ضيافة عوضية ابنة الشيخ «عيسى حاج تيته» عمدة حلايب مع ولديها الصغيرين بعد أن تزوجت ابنتها ورحلت إلى بور سودان. وهى تتحدث العربية بوضوح فقد زارت القاهرة مع والدها عدة مرات وكثيرا ماتنزل إلى أسوان ولذلك كانت مدخلا مهما لى لكى أتصل بنساء البشارية وأجلس معهن. ومن خلالها عرفت الكثير عن العادات والتقاليد بالإضافة الى الوسائل التى تستخدمها المرأة للزينة وسافرت مع عوضية إلى حلايب لحضور زفاف أحد اقاربها.

قصة على بابا والأربعين حرامى، خرجت من حلايب

فى طريقنا إلى حلايب.. المسافة كبيرة تتعدى ١٨٠ ك.م، صحيح أن الطريق ممهد فقد تولت مصر رصفه، ولكن السيارة قديمة ولاتكاد تزيد سرعتها على سرعة الجمل الهجين، فآثرنا أن نرتاح بعض الوقت فى أبو رماد.. وهناك نزلنا فى ضيافة زينب فلها كوخ على الساحل بجوار قاعدة الجراد التابعة لوزارة الزراعة المصرية، وكانت من قبل تعيش ببورسودان وبعد وفاة زوجها عادت الى موطن اسرتها، لها ابن وحيد مجند بالجيش المصرى، وتقوم بنفسها على رعى «البهائم الدق» وهى الأغنام، وتصطاد السمك بالحربة وتجمع المحار البحرى لتقتات عليه.

قامت زينب لتشوى لنا سمكا فهى قد عادت من البحر ومعها السمك الطازج.

على بعد منا كوخ مقام من القطع الخشبية التى ترمى بها السفن على الشاطىء والصفيح القديم، وبالكوخ ترقد عجوز.. وهى أم زينب قعيدة عن الحركة أصابها المرض فى بورسودان، وذهبت إلى الشيخ آدم وحملت منه الحجاب الذى كتبه لها لتحصل على الشفاء وزارت مقام الشيخ كربيل وقدمت له القربان ونحرت له الذبائح، ولكن الشفاء لم يأت بعد.. وهى تقوم بمسح جسمها بدهن الضأن فقد تشفى خاصة أنها عادت إلى موطن أجدادها، وفيها تسكن أرواحهم.. والأرواح ترعى أحفادها وهى ترى ان أرضها حلوة تشفى العليل وتلك حقيقة فصحراء عيتاب أو عيذاب

والتى تمتد من رأس بناس وحتى رأس حدارية ترتفع فوق سطح البحر بحوالى ٣٠٠٠ قدم، ومناخها أفضل كثيرا من كل مناطق الصحراء، ويمتاز بالدفء والهواء الجاف.

لفت نظرى بجوار الكوخ كمية ضخمة من الودع بكل أشكاله وأنواعه وأخبرتنى زينب بأنها تجمعه من البحر بالقرب من الحاجز المرجانى، تستخرج الطحالب وتنشرها فوق سطح الكوخ لتجف وتحفظها ، ومنه يكون غذاؤها، واحيانا تبيعه للبدو المقيمين داخل الجبال بطريقة المقايضة فتبادلهم به نظير الخرز والحنة التى يجلبونها من السودان ، أما الودع فيشتريه التجار الذين يأتون من أسوان أو بورسودان لاستغلاله فى صناعة الأزرار والمشغولات الصدفية .

وانشغلت مع عوضية فى إعداد خبز السناسة وهو يشبه الرقاق ، وزينب قائمة على شى السمك وأخذنا الحوار، واخبرتها بالسبب وراء وجودى بالصحراء وأننى أقوم بإعداد بحث عن قبائلهم فأعلنت ترحيبها بوجودى وأصرت على بقائى معها.. فوعدتها بذلك فى المرة القادمة.

وقبل رحيلى لقبيلة الهدندوه ببورسودان همت زينب بالوقوف وهى منزعجة وأعلنت رفضها لفكرة سفرى واقامتى بين الهدندوه.. بدت علىّ الدهشة والسؤال الحائر لماذا؟ فابلغتنى زينب أن سبب عودتها لموطنها هم الهدندوه الذين أحرقوا لها الكوخ الذى كانت تقيم فيه مع أمها بحى «ديم العرب» ببورسودان، ولم تأخذهم الشفقة والرحمة على أمها التى اصيبت بحروق شديدة بجسمها، وأصابتها الصدمة بالشلل والسبب وراء هذا العداء أن زينب كانت تعمل «داية» بمستشفى بورسودان ولديها فكرة عن وسائل الطب الحديث مما دفع البدو باللجوء إليها لالتماس الشفاء فى حالات كثيرة الأمر الذى أثار ضدها «الفكى» وهو القائم على كتابة الأحجبة والتمائم للمرضى، فأفسد علاقتها بالعمدة والناس بإثارة القلاقل والعدوات القديمة بين البشارية والهدندوه، وقاموا على إيذائها كثيرا وأنذروها بالرحيل، وقاموا على حرق كل ممتلكاتها «الكوخ ـ البهائم الدق» وخوفها على أمها وابنها الوحيد دفعها إلى الرحيل.

تخاف علىّ زينب من هذا الشعب الشرس.. وأبدت استعدادها لأن تخبرنى بكل ماأود معرفته وأحصل على كل معلوماتى منها.. وخوفها علىّ خوف أم فقد راحت منها ابنتها سرقها الموت بعد أن أصيبت بالحمى.. سكت عن الكلام وتذكرت نفس المخاوف التى ابداها لى عم حسن كاتول البشارى الأصل والذى كان يعمل بقوات حرس الحدود المصرية واستقر المقام به فى حى البشارية بأسوان حينما علم برغبتى فى النزول للجبل والعيش بالبشارية.. يكاد يكون نفس الموقف بمشاعره ووعوده، ولكنى، الآن بالفعل فى موطن البشارية معهم فى خيامهم.. «والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين» فسبحانه وتعالى يتكفل بحمايتى منذ أن خرجت من بيتى، فقد صدق وعده الذى قال به رسول الله: «من خرج فى طريق للعلم فهو فى ذمة الله حتى يرجع»، وقد خرجت من بيتى لأنفذ ماأمرنى به وهو العلم.. وهو الوحيد الذى يعلم بصدقى.

طمأنت زينب علىّ ووعدتها بالزيارة، ودوماً ستصلها اخبارى ليطمئن قلبها حلايب ليست بعيدة من هنا فهى على بعد ٣٠ ك.م، وفى الأفق بزغت قمم جبال علبة وهى شاهقة الارتفاع، وتكاد تكون أعلى قمم جبلية فى مصر وراودتنى الرغبة فى الذهاب إليها لأمارس هوايتى فى تسلق الجبال.. ووعدنى السائق بأن نرحل إليها منطلقين من حلايب صعدت السيارة ربوة عالية بها اكثر من كوخ خشبى وتخص العمدة «عيسى» حاج تيته» وفى الكوخ المخصص للضيوف جاءنى العمدة مرحبا بوجودى بينهم وكان توه عائدا من القاهرة فى رحلة للعلاج وبعد الغروب انحدرنا إلى أسفل الوادى أنا وعويضة لكوخ تجمعت فيه النساء فتلك هى ليلة الحنة.. بدت الدهشة والفرحة على وجوه النساء حينما دخلت عليهن فتلك أول مرة يرون فيها بنت الريف فى ملابسها وزينتها التى تختلف عنهن كثيرا.. وسؤالهن الحائر لماذا جاءت إلى بلادنا؟!. وهن معذورات فقد قضين حياتهن كلها بالجبل ولم ينزلن لمدن وقرى وادى النيل هن متطلعات لسكانه.. وهن متعودات على رؤية الرجال القادمين من وادى النيل.. ولكن النساء ابدا لايذهبن إلى موطنهن وقلت لهن:

« انسيب مناب إيد لنهيب قاهر قرى أبو بشاريت رهنيب أرينى »، «أنا اسمى

منى جئت إليكم من القاهرة لأرى البشارية وأعيش معكم» وقد قدمت نفسى إليهن ولكل البدو باسم « منى » وهو اسمى المعروفة به بين أسرتى وأصدقائى والسبب أن نطقهم لاسم منى أسهل من نادية فهم يقولن «منى أو مناى أو منايابـ» أما نادية فينطقونه «أونادياياب».

قضينا اليوم الثانى فى إعداد الدلكا «الدقيق المعجون بالماء والروائح ويتم نضجه بتعريضه عن بعد للنار وبعد نضجه يصبح لونه بنيا فاتحا» وبها يدهن جسم العروس وبعد أن يجف يتم ازالته بقطعة من القماش، والدلكا تعمل على نعومة الجلد وقامت النساء بنقش الحنة وشاركتهن فرحتهن بنقش الحنة على كفوف يدى.. ولبست الاوو والفوطة الحمراء.. (زى العروسة) ودخلت الكوخ لأستريح بعض الوقت وجلس حولى الأطفال نردد معا اغنيه «توكوى ليله» وفجأة يحل الصمت ويسرع الأطفال هاربين خارج الكوخ وجدت فوق رأسى بشاريا يحمل خنجره قائلا لى: «سوف اقتلك»..! دخلت امه العجوز مسرعة لتحول بينه وبينى فخاطبها بالرطانة «لغة البشارية يقولون عنها رطانة» وعلى الفور فتحت حقيبتى وأخرجت منها جهاز تسجيل وكاميرا وشرحت للعجوز كيف يتم تشغيلها وافهمتها انه لايمكن أن يتم تشغيلها وهما داخل الحقيبة واننى لن أفعل شيئا بدون موافقتهم، فقد قال لها ابنها «إننى جئت إلى بلادهم لأتجسس عليهم وأخرج لأنشر أخبارهم»، فى ذلك الوقت قدمت صديقتى عوضية لتبث فى صدرى الأمان وتعلن على الملأ أننى ضيفة العمدة وانه لايسمح بأن يصيبنى مكروه وأنا بينهم.

وعرفت فيما بعد السبب وراء غضب هذا الرجل ورفضه لوجودى بينهم فهو يعمل فى التهريب، ومن سوء حظى أنه ألقى القبض عليه بعد رحيلى بفترة وجيزة، فرسخ فى ذهنه أننى التى أبلغت عنه مع أنى بريئة من ذلك، فأرسل إلىّ رسالة وصلتنى بمنزلى فى القاهرة يهددنى فيها بالقتل.. وأنه سيحول بينى وبين وجودى بالصحراء، ويشاء القدر أن تنقلب السيارة.. ويموت، قبل أن ينفذ تهديده.

حفل عرس

انحدرنا لأسفل الوادى.. إلى كوخ كبير مقام من «البروش»... «سعف الدوم» ومفتوح لاستقبال الضيوف.. رحب بى الرجال وأخذوا يسكبون علىّ الروائح فتلك

عاداتهم لتكريم الضيوف وجلسنا نشرب الجبنة والعريس فى أوج زينته فقد لبس الجديد وتحلى «بالجرنك» وهى ضفيرة من الجلد والقماش الأحمر، ويتدلى منها ريش النعام الأسود وعلى صدره تتدلى حفائظ الفضة، وبعض التمائم المكتوبة والمحفوظة داخل أكياس من الجلد لتحميه من شرور الحسد والأرواح الشريرة.

وقمت لأذهب إلى كوخ العروس لأبارك لوالديها حيث تقضى التقاليد بألا تحضر العروس وأسرتها وصديقاتها المقربات الفرح بل يظلون بعيدا فى كوخهم المقام بآخر الوادى حتى يتم الزفاف، ولم تتح لى الظروف شراء هدية للعروس فخلعت عن صدرى سلسلة من الفضة بها حلية آية الكرسى وألبستها العروس التى فرحت بها كثيرا فقد نالت تميمة جديدة لتساعد وتعمل على حفظها من الروح الشريرة..

وإكراما لوجودى بينهم جعلونى وزيرة للعروس.. فلها ثلاث من صديقاتها المقربات يسمين «وزيرات» وهن اللائى يتولين اصطحابها لكوخ زوجها بعد غروب شمس كل يوم تبدأ من يوم الزفاف ولمدة أربعين يوما، وقبل شروق الشمس يصطحبنها إلى كوخ أسرتها وفى يوم الأربعين يتم نحر ذبيحة وتقام حفلة كبيرة، بعدها يسمح لها بالإقامة الدائمة مع زوجها، وترجع تلك العادة إلى وقت أن كانت «البجا»، تعبد إله الشمس والمعروف عنه أنه إله الحرب والقوة ولذلك لايسمح للعروسين بالخلوة أثناء سطوعه على العالم حتى لايأتيان بالعمل الجنسى فى حضرته ولكن يسمح لهما بذلك فى حضرة إله الخير والتناسل وهو القمر.

العريس هو الأمير

خرجت مع بقية الوزيرات فى صحبة العروس إلى كوخ زوجها فتلك أول مرة تراه فيها بعد أن فكت العروس جدائل شعرها فيجب ألا تدخل بيتها أول مرة وشعرها معقود وإلا يكون فأل شر، دخلنا الكوخ وطفنا حوله سبع مرات ثم ألقينا «بالشعل» وهو خليط من الذرة والحنة و بعر الإبل على الارض والجدران، وعند رحيلنا هاجمنا العريس ووزراؤه محاولا قطع «الرحط» وهو حبل من اللون الأحمر يتدلى منه ريش

النعام ويربط على وسط العروس، وتتظاهر العروس بالتمنع وتقاومه وتدور تمثيلية طريفة يتصارع فيها الاثنان وتنتهى بتمكين العريس من قطعة وتزغرد النساء وترفع السيوف تحية «للأمير» وهو لقب العريس طوال فترة الفرح، وهذا التقليد يرجع لعهد سابق كانت تنتشر فيه عادة خطف العروس ورغم انتهاء تلك الظاهرة إلا أن طقوسها لازالت فى ذلك اليوم فيمنح فرصة ثانية فى اليوم التالى، وأما إذا عجز تماما عن قطعة فيلحق به العار وتعايره القبيلة بضعفه وأحيانا ترفض العروس الاقتران به لأنه ضعيف، ولكن عريسنا أفلح فى قطع الرحط وغدا سيتم الزفاف.

نحرت الذبائح فى الظهيرة وحملت أنا والوزيرات دماءها إلى كوخ العروس الجديد لندهن جدرانه وسكبنا بعضا منه على «السنكواب» وهى مجموعة من سعف الدوم المربوطة معا مزينة بالشرائط الحمراء ومزركشة بالخرز والودع ومعلقة على العمود القائم وسط الكوخ وفى مدخله.. وأيضا قمنا بسكب اللبن مثلما كانت تفعل إيزيس.. زوجة أوزوريس حتى تستمر حياتها مع زوجها ولا يفترقان أبدا حتى بعد الموت.

وخرجنا من الكوخ فى الوادى لنجمع بعر الجمل وفور دخولنا على العروس قمنا بإلقائه عليها فهذا بشارة بالخير الموعود.

وفى الليل دقت الطبول والجميع يشاركون فى الرقص والغناء.. صعدت أنا إلى الجبل، فقد حان وقت الزفاف ولابد أن أحمل للعروس «مركوبها» وهى النعال المصنوعة من الجلد الأحمر فلها ثلاث ليال فوق الجبل ليراها القمر ويبارك زواجها وخطواتها لأميرها.. ووصلنا العروس لكوخها، وقبل شروق الشمس قمنا بإعادتها إلى أمها.. وتقضى التقاليد أيضا أن تجلس العروس والأمير كل فى مكانه ولا يتعرضان للشمس على الإطلاق خلال الفترة الأولى لزواجهما وإلا سوف يصابان بالمرض، وإذا أصابهما المرض فى تلك الفترة فلن يتم شفاؤهما! إلا بعين الرعاية والعناية التى يوليها لهما إله القمر فيتركان حليهما فوق الجبل ليرعاها الإله ويبث فيها قوة الشفاء لمدة ثلاث ليال على شرط أن تكون فترة ميلاد الهلال وفور أن يلبسها العروسان تكتب لهما النجاة والشفاء.

ماذا فى علبة ؟

فى يوم جاءنى السائق ومعه «شيخول» أحد البدو المقيمين بعلبة وأخبرنى باستعداده لاصطحابى إلى موطنه نزولا على رغبة العمدة وابنته بعد أن علما بشوقى لرؤية علبة.

ذهبت لصديقتى العروس وأبلغتها اعتذارى عن عدم بقائى معها بقية الأربعين يوما، وسمحت لى بالرحيل، ولكن أمها استوقفتنى وسألتنى أن أعمل كرامة قبل الرحيل حتى لايصيبنى الأذى من قبل الأرواح.. فأعطيتها النقود وفوضتها أن تتولى هى هذا الأمر.

فأنا لاأجادلهم فى صحة هذه المعتقدات، وأعتقد أن هذا صواب خاصة أن امتثالى لأفكارهم لاتجلب علىّ الضرر بل بالعكس فهى توثق العلاقة بينى وبينهم، وقد تعرضت لمواقف كثيرة امتثلت فيها توجيهاتهم، وأذكر منها أننى ذهبت أثناء وجودى بمدينة كسلا جنوب شرق السودان لحضور حفلة زار ولكن «الكودية» وهى شيخة الزار منعتنى واشترطت علىّ أن أنحر ذبيحة، وفعلا قمت بنحر ذبيحة اشتريتها من مالى، وقامت هى برش دمها على كل ملابسى وشعرى، وبعد ذلك دخلت البيت المقام فيه الزار وهذا السلوك هو تحصين لى حتى لاتحيط بى العفاريت وتلبس جسمى.

انطلقت السيارة غرب حلايب لمنطقة تكثر بها أشجار «الهجليج» وهى تمتاز بضخامتها وجودة أخشابها ونموها مرتبط بوفرة المياه، ولذلك فإنها لاتوجد إلا فى علبة حيث المياه الكثيرة وكسلا والصحراء المجاورة لها.

فى مواجهة حلايب

وسلسلة جبال علبة متصلة ببعضها البعض وتأخذ شكل دائرة ذات قطر واسع، وتترك فيما بينها بوابات تسمح بالدخول إلى الوديان الفسيحة التى ترعى بها الحيوانات «الغزال ـ النعام ـ الحمار البرى»، وفوق قمم الجبال تسكن الوعول «نوع من الغزال يتصف بالضخامة»، والأمطار والسيول تسقط على قمم الجبال فى

الشتاء فتحفظها بعض الصخور فى أحضانها وينحدر البعض الآخر للوادى وتمتلىء به الآبار، ويأتى الربيع ومعه الكسوة الخضراء للجبال والوادى.

وبالقرب من بئر «ربديت» جنوب الجبل رست راحلتنا ومع «روينا» زوجة شيخول أقمت، وكانت فى البداية خائفة منى.. وكلما فتحت حقيبتى ارتعدت خوفا فطلبت من زوجها أن يفتح لها الحقيبة ليطمئن قلبها وخوفها كله مرتبط بعد رؤيتها فى السابق لنساء المدينة، وظلت ترقب كل حركاتى، وهى صامتة.. وكنت أحاول التودد إليها بتقديم الحلوى، لكنها ظلت على رفضها وكان كل حديثا إلى زوجها وفى اليوم الثانى تحدثت إلىّ بعد أن شربنا معا الجبنة فهى مشروبهم الأساسى يتناولونه فى الصباح وطلبت منى أن أخرج معها للبئر فبناتها هناك يرعين البهائم الدق... ترجلنا فى طريقنا للبئر بعد أن حملنا معنا العصيدة والرضاف «مثل الخبز الشمسى فى صعيد مصر» وأخذت معى الحلوى وبعض الأطعمة التى جلبتها معى.

المسافة ليست طويلة فهى لاتتعدى ثلاثة كيلو مترات ولكن، الطريق ملىء بالصخور الجرانيتية التى تنحدر من فوق الجبال مع السيول والتى يبذل معها الفرد مجهودا كبيرا حتى يتخطاها.. وأثناء انحدارنا للوادى من فوق ربوة عالية.. تسمرت قدماى فى الأرض من الخوف والرعب فعلى مرمى بصرى ووسط الوادى يزحف ثعبان كبير يزيد طوله على أربعة أمتار، وجسمه غليظ ولونه مزيج من الأصفر والبنى.. إنه شكل ثعبان الأصلة.. لاحظت روينا الرعب الذى أحل بى فأمسكت بيدى وكأنها تطمئننى، وطلبت منى الجلوس والانتظار حتى يذهب الثعبان الى البئر وينتهى من شرب الماء.. فهذا هو سلوك البدو تجاه الثعابين فلابد من توفير الأمان للثعبان حتى لايهاجمهم، وإذا أقبل الثعبان على البدوى فعليه أن يرسم بعصاه أمام الثعبان سبعة خطوط ويقول مخاطبا الثعبان «تلك حدود الله بينى وبينك» فإذا انصرف الثعبان بعيدا فهو فى هذه الحالة من الجن المؤمنين ولايؤذى، أما إذا مرّ فوق الخطوط مقبلا على الرجل فهو جن كافر ويحق قتله ولاتنتهى المسألة عند هذا الحد، ولكن يجب أن يحمل الثعبان لمكان آخر بعيدا عن المكان الذى قتل فيه، ويكون بعيدا عن منازل السيول ويحفر له قبر يوضع فيها ٧ بعران ضات وفوقها الثعبان

المقتول وفوقه ٧ بعرات جمل، وتلك البعرات هى بمثابة حارس للقبر حتى لاتعود الروح ثانية للثعبان فينتقم من قاتله.

وإذا تصادف وجود ثعبان فوق قبر ثعبان اعتبروه وليا فهو من الجن المؤمنين ويقدمون له الطعام والشراب.. ويوفرون له الحماية، والثعبان الوحيد الذى يتم قتله بدون تردد هو ثعبان «الطريش» وهو يعتبر بحق وحش الصحراء فهو صغير الحجم ولايزيد طوله على ٦٠ سم، ويتحرك وجسمه ملفوف على بعضه البعض، ورأسه على شكل مثلث ويقفز من فوق الأرض، وليس من علاج للدغتة إلا بتر الجزء المصاب وسكب الدهن المغلى عليه حتى يتوقف النزيف، والخطورة إذا كانت الإصابة فى جذع الجسم نفسه فيموت المصاب وبسرعة شديدة تتوقف على مكان الإصابة بالتحديد، ولى حادثة مع ثعبان الطريش سوف أقصها عليكم فيما بعد.

مرّ الوقت والثعبان مازال فوق البئر ؛ براحته فهو ملك المنطقة.. فقد أخبرتنى روينا أنه يسكنها منذ زمن بعيد تعيه ذاكرة أمها ولكنه مسالم ولايؤذيهم.

ومع مرور الوقت يذهب منى الخوف حتى انتهى تماما مع رحيل الثعبان وصعوده إلى مغارة فى بطن الجبل، والحق كانت تراودنى فكرة أن أنزل إلى الوادى وألتقط الصور له وهو يشرب من البئر ولكنى خشيت أن ينتبه إلىّ ويعتصرنى بين عضلاته.

حين انتابنى القلق

عبرنا الوادى للجانب الآخر حتى وجدنا سالمة ونوشكا ابنتى روينا ولايزيد عمرهما على عشر سنوات، وحولهما الأغنام ترعى بالوادى وفوق الجبل، وكنت متصورة أنهما صغيرتان على الخروج إلى الرعى ولكنى علمت أن الطفل منذ الرابعة يخرج يرعى الأغنام حول الكوخ، وكلما كبر فى السن يرحل بعيدا وهم من الصغر يتعودون على مواجهة الأخطار.. منها أن يواجه القطيع والراعى الضباع فتلك المنطقة يكثر بها نوع من الضباع تسمى «كراى» أو تهاجمه الصقور فهى قناصة تمتاز بالقوة والفراسة الشديدة حيث تظل تطير فى السماء مراقبة القطيع

حتى إذا ما انحرفت إحداهما يمينا أو يسارا عن بقية القطيع انقض عليها، وبسرعة شديدة وبمخالبه القوية يشق بطنها ويخطف أحشاءها ويطير ثم يعود بعد ذلك لحمل الفريسة بعد موتها.

جلسنا لتناول الطعام ورفضوا فى البداية تناول شيء مما أحمله «بولوبيف ـ جبنة ـ حلاوة» واقنعتهم بمحاولة تذوق طعمه، فكل الأطعمة غير معروفة لديهم سوى العصيدة واللحم، وهم لايأكلون اللحم إلا فى المناسبات فهى ثروتهم فى الحياة يربونها ويبيعون بعضها لشراء احتياجاتهم من الدقيق والبن والدمور وهو نوع من القماش الوحيد الذى يعرفونه، والذين يسكنون الساحل يشترون أنواعا أخرى من الأقمشة.. وفى طريق عودتنا إلى الكوخ حملنا معنا الماء من البئر.

ورغم أن هذا اليوم كان مملوءا بالانفعالات غير السارة إلا أننى لم أستطع أن أغط فى النوم خاصة أن القمر يطل بنوره من فوق قمم علبة.. جلست أفكر: أنا الآن على بعد أميال وأميال من أهلى.. فماذا لو قتلنى البشارية مثلما كان يريد الرجل فى حلايب، أو إذا لدغنى ثعبان أو هاجمنى ضبع!.. فأنا بمفردى ولا أحد يعلم عنى شيئا والبدو لايعرفون شيئا عن موطنى.. تذكرت أمى وانهمرت دموعى لأجلها وداخلنى شعور بأننى أعذبها بغيابى عنها وسفرى بعيدا فى مجاهل الصحراء.. من الذى يهمه أمرى وسيتولى البحث عنى إذا لم تكتب لى العودة ؟ لا أحد.. فأنا فى نظر أبناء المدينة مجنونة أذهب الى المجهول وأبعثر مالى وأواجه المخاطر بدعوى العلم!! أى علم وقد قيل عنه أنه لايكيل إلا بالباذنجان.. مرّ الوقت وأفقت من تلك الدوامة التى تهدمنى وتقتل آمالى.. وقلت لنفسى إننى فى طريق اللاعودة لابد أن استكمل مابدأته.. فقد قبلت التحدى.. تحدى الصحراء بكل قسوتها على ابن المدينة وتحدى الجهل فالعلم له قيمته الكبيرة والضخمة، ولابد أن يأتى اليوم الذى يقدر فيه، ماصنعته ويمسحوا عنى لمحة الجنون التى وصفونى بها أما قدرى ومصيرى فهما بيد الله وحده، فالموت لاينتظر لدغة الثعبان وعز من قال: «يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة».

استسلمت للنوم وأنا سعيدة بقناعتى، وأنا افترش البرش على الارض أمام

الخيمة فقد تعودت أن أتابع النجوم بعينى حتى أذهب فى النوم مثل البدو تماما.

وبالطبع مع أول ضوء للشمس استيقظ وأنا مليئة بالحيوية والنشاط على عكس حالى بالقاهرة.. اقبل شيخول والسائق فقد كانا فى الشلاتين لاستلام التموين من الدقيق والسكر الذى تقدمه لهم المحافظة، ونحر عنزة كرامة لوجودى بينهم، فهم يرهبون الغريب ولكن سرعان مايستأنسون إليه ويحبونه، جلبت روينا حجارة البازلت الأسود ووضعتها فوق الحطب وأشعلت النار حتى سخنت الحجارة واحمّر لونها. وضعت عليها اللحم ويسمونه «شية» وتناولنا غذاءنا الشهى واستاذنتهم فى الرحيل والعودة إلى حلايب، ودعتنى روينا بعد أن أهدتنى كيسا من الحنة وآخر من البخور السودانى.

تحركنا فى اتجاه علبة وتوقف السائق ليرينى بعض المغارات داخل الجبل، وهناك مغارة كبيرة يطلقون عليها مغارة «أولباب» وقص علىّ قصة هى نفسه حكاية «على بابا والأربعين حرامى» وأن اولباب كلمة بجاوية حرفت فى العربية إلى علىّ وهو ملك البجا وكان ذا قوة وبطش وكان حاكما عليهم فى العصر الرومانى لمصر وقد استخدم دهاءه فى القضاء على البعثات التعدينية التى كانت موفدة من قبل الرومان لجلب الذهب والأحجار الكريمة من الصحراء، فقتلهم بعد أن جمعوا ماجاءوا من أجله وخبأه هو ورفاقه فى مغارته التى سميت باسمه وامتدت غارات أولباب إلى صعيد مصر يسلب وينهب الأموال والماشية ويعود إلى الصحراء.

وقامت عدة معارك بينه وبين الرومان وأخيرا قتل فى العلاقى، واخبرنى أن هناك كثيرا من البدو يدخلون المغارة بحثا عن الذهب والبعض منهم يحصل عليه فى الرمال.

وفى الطريق سألنى السائق بعد مشاهدتى لمغارات جبل علبة إن كنت رأيت «سواكن» فأخبرته أننى لم أسافر إلى السودان بعد. ولكنه اعترضنى قائلا: سواكن القديمة. فسألته عن مكانها وعرفت أنها فى طريقنا فطلبت منه الوصول إليها. وهى مدينة قديمة أنشأها «البجا» عام ٥٥٠ ميلادية بين أبورماد وحلايب بالقرب من الساحل، وكانت مركزا لتجمع القوافل المارة بالمنطقة وكانت البجا تفرض الإتاوات

والتى كانت فى الغالب عددا من رؤوس الأغنام ومكيالا مما تحمله الجمال خاصة من الحبوب وذلك نظير قيام البجا بتوفير الحماية للقوافل وتزويدهم بالمياه.

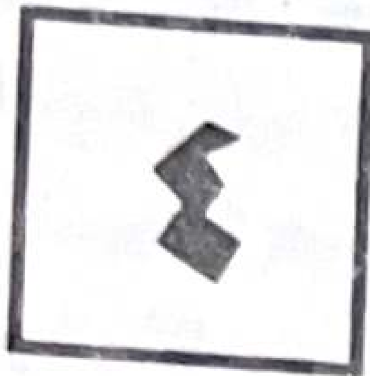
ولأن المنطقة المواجهة لحلايب خالية من الشعب المرجانية فقد أضحت مرسى للسفن العربية التى تأتى من السعودية واليمن، وبعد انتشار الإسلام فى مصر تضخمت مدينة سواكن أو حلايب وذاع صيت الميناء خاصة أن المسافة بينه وبين ميناء جدة على الجانب الآخر قصيرة، إذا ماقورنت بالمسافة بين جدة والقصير القديم.

وضعت البجا قوارب بدائية من جذوع أشجار الدوم المربوطة بحبال من النيل والسعف، ولاشك فى أنها كانت أضعف من القوارب العربية المصنوعة من الخشب وأصبحت «سواكن القديمة أو عيذاب أو حلايب المصرية» الميناء الرئيسى لنقل حجاج إفريقيا إلى الأراضى الحجازية. وكانت البجا تحصل الضرائب من الحجاج وذكر المقريزى عام ١٠٥٨ أن عيذاب تحت الإدرارة المصرية التى كانت تأخذ ٣١٪ من عائد الميناء، وكانت البجا كعاداتها تتهرب من دفع الضرائب، مما دفع السلطان المصرى ١٢٢٦ ميلادية لإيفاد نائب عنه بقيم بالمدينة لتحصيل الضرائب ومراقبة الأمن هناك وكان معه حامية من الجيش المصرى مرابطة بأبو رماد..

وكل الرحالة العرب أمثال ابن بطوطة والمقريزى والمسعودى وآخرين عبروا من هذا الميناء وتركوا لنا مشاهداتهم عن الصحراء وسكانها.

ومما هو جدير بالذكر أن سيدى أبى الحسن الشاذلى رائد التصوف الإسلامى الذى تنتسب إليه معظم الطرق الصوفية المنتشرة فى مصر والعالم العربى قد عبر هذا الميناء عدة مرات إلى الأراضى الحجازية ولكن فى المرة الأخيرة عام ٦٥٦ هـ وصل حتى وادى خميثرة ووافته المنية هناك فقام على دفنه تلميذه وخليفته سيدى المرسى أبى العباس.

واستمرت البجا فى إثارة المشكلات فى وادى النيل ودخلت فى حروب عديدة مع المسلمين، حتى فرغ صبر السلطان المصرى، فقرر ضرب البجا وتوجهت الجيوش المصرية إلى حلايب.



مهمتى كوزيرة للعروس

تحرك الجيش المصرى بقوة تزيد على أربعين ألفا من الرجال وبقيادة السلطان المملوكى الظاهر بيبرس عام ١٤٢٦ إلى جنوب مصر والتمسوا طريقهم إلى عيذاب من وادى العلاقى الذى يبدأ من جنوب أسوان ويمتد داخل الصحراء حتى ينتهى إلى غرب حلايب، وفى الوقت نفسه خرجت المراكب الضخمة من ميناء القصير متجهة الى ميناء حلايب وهى محملة بالدبش والحجارة البيضاء.

والتقى الجيشان المصرى والبجاوى فى مدينة سواكن القديمة «حلايب» وانتهت المعركة بهزيمة البجا ودمرت المدينة بالكامل ودفنت تحت تلال من الحجارة.

وإننى أتوجه بالنداء إلى هيئة الآثار المصرية لتتولى الكشف عن تلك المدينة العريقة لنكتشف الكثير معها من تاريخها وتاريخ شعبها، وهى تقع بالتحديد جنوب بئر بحوالى ٢٠ ك.م، وأول ما يلفت النظر إليها كثرة الحجارة البيضاء المنتشرة على مساحة واسعة وعلى الرغم من أن المنطقة سهيلة ممتدة على الشاطىء إلا أنها تبدو وكأنها تلال يتخللها فتحات يبدو انها مداخل المدينة القديمة.

عدت إلى حلايب ثانية وآثرت أن أزور العروس «ختم الزين» ، وقد أوشكت فترة الحجاب عن الشمس على الانتهاء، وعدت لأمارس مهامى كوزيرة لها، وكم كانت سعادتى حينما أخبرتنى ختم الزين عن رغبتها فى رحيلى معها فى اتجاه الجنوب حيث أن زوجها ترك «ماله» ويقصد به الإبل والأغنام بمطنقة «شنديب»، وأبلغتها موافقتى بدون تفكير ولاتردد، فهذا يتحيح لى التعرف على شكل الحياة فى الحل والترحال.

وصباح يوم الأربعين، وبعد أن ارتفعت الشمس فى السماء قام الرجال بنحر ناقة ونثرت دماؤها على ملابس العروسين وعلى كوخهم، وبذلك تكون قد تمت «رضوة» إله الشمس وأرواح السلف وقد حصلت ختم الزين على إذن بالرحيل.

اعتليت أنا وختم الزين جملا، والجمل الآخر يحمل كوخ العروس وحاجياتها، والأمير يمسك بالزمام، ورحلنا فى طريق وادى شلال والذى بنهايته نصل غربا إلى وادى شنديب وكان العروسان تأخذهما بى الرافة، فكل عدة كيلو مترات يبرك الجمل لنستريح ونشرب الجبنة فتلك أول مرة أسافر فيها بالجمل لمسافة كبيرة.

ودخل الليل وبدا علىَّ التعب الشديد فركوب الجمل أمر شديد الصعوبة لأبناء المدينة، وسرى الألم بظهرى ورست الراحلة لأجلى، وعلى الفور دق محمد دين أربعة فروع من الخشب فى الأرض وأسدل عليهم برشا وافترش الأرض بآخر وأوقد النار حتى لاتقترب منا الحيوانات المفترسة، وانتحى هو بعيدا بجوار جمله ليعزف الموسيقى على أوتار «البسنكوب» وهى آلة وترية تعرف باسم الطمبورة فى مناطق كثيرة من مصر والسودان.

وفى الصباح وبعد أن شربنا الجبنة شددنا الرحال لموطننا الجديد، وبمجرد أن وصلنا قامت «ختم الزين» بإشعال النار وأخذت تلقى فيها بالملح، وكلما تصاعد اللهب الأزرق وارتفع يزيد هلع العروس وتتمتم بكلمات غير واضحة، وأسرعت نحو الجمل فقادته حتى مكان النار ولكن الانزعاج بدا على الجمل وأخذ يجرى من المكان، فنادت على زوجها وقالت له:المكان مسكون، وتوجهت راحلتنا إلى آخر الوادى واستقرت أسفل الجبل وقامت لتكرر مافعلته أول مرة، وبدأ الهدوء وبدأنا فى فرش الكوخ وترتيبه فتلك من مهام النساء وفى الأحوال العادية تجتمع النساء من الوديان المجاورة للمساعدة، ولكننا فى مكان بعيد وليس لنا جيران فى مكان قريب .

وفى الليل جلسنا نشرب الجبنة وكانت العلاقة الودية بينى وبين ختم الزين تسمح بأن أسالها عن تفسير السلوك الذى قامت به تجاه الوادى وماذا تقصد بأنه مسكون؟ وعلمت أن البدو يعتقدون أن الصحراء هى أرض الجن والشياطين، ملك لهم، ولذلك يجب على الإنسان قبل أن يسكن أى مكان أن يستأذن من أصحابه الأصليين، ويقدم لهم الرضوة «الذبيحة» حتى يقبل سكنى أهل الأرض لجوارهم.

واللهب الأزرق الذى يتصاعد من النار ينبىء عن وجود الجن فى هذا المكان، ولزيادة التأكد يدعون الجمل للمكث بها فإذا استقر وجلس فهذه إشارة أن الأرض

خالية منهم، أما إذا انزعج الجمل وجرى مسرعا فهذا دليل على وجود سكان منهم بالمنطقة ولابد من الرحيل من المكان أو تقديم «الرضوة» لهم، وجريان الدم على رمال الوادى هو نوع من الاستئذان المهذب من بنى الانسان، وبعدها يترك جزء من الذبيحة فوق تل أو جبل قريب ويمكن لهم الاستقرار بالمكان بعد أن تمت معاهدة الوفاق بين الجن والإنسان.

حكاية الجن

وقصت علىّ ختم الزين قصة حقيقية، تقول: بأن قبيلة الأشب التى تسكن الشلاتين رحلت إلى علبة لرعى إبلهم فى موسم الأمطار وسكنوا المكان وجلسوا لإعداد الجبنة وتناول العشاء قبل التاكد من خلو المكان من سكانه الأصليين، وفى تلك الأثناء هبت عاصفة شديدة وعلت الأصوات وانتشرت من حولهم الثعابين والعقارب والضفادع، وكان من بينهم شيخ عجوز ومن علمه وخبرته عرف أن هؤلاء قوم من الجن هبوا لحرب بنى الأشب، وظلت المعركة بينهم طوال الليل حتى طلعت الشمس وملأت الأرض بموتى الجن من العقارب والثعابين، وقد أبرم البدو اتفاقية مع الجن تقضى بالاستئذان أولا، باستخدام الوسائل والتى سبق الإشارة إليها.

والقصص والحكايات كثيرة ومتنوعة تعيها الذاكرة البجاوية عن شكل الجن وأنواعه وأماكن ظهوره وقدراته التى تفوق قدرة الانسان، وكثيرا من الأمراض التى يصاب بها يعتقدون أن سببها الجن، ويحكى أن رجلا كان يعبر ليلا الوادى وفجأة أصابه الألم بساقه وعلا صراخه واقعد عن الحركة وبعدما راجع «الفكى» الشيخ أو الساحر أخبره الثانى، أنه داس الجن بأقدامه فى الليل حينما كان يعبر الوادى فانتقم الجن منه فأمسك بساقه عن الحركة ولن يشفى إلا بعد إرضائه بنحر ذبيحة، وفعلا شفى الرجل ولكنه لم يعد لحالته الطبيعية.

الجن معلم للموسيقى

وتمتد سلطة الجن لدرجة أنه هو المسئول عن تعليم الموسيقى لأبناء البجا، والرجل الذى يرغب فى تعلم الموسيقى عليه أن يذهب بعيدا فى مكان مهجور لايمر منه الناس ويمتنع عن تناول اللحم واللبن ويتغذى على الشعير والماء فقط ،

ويظل هــكذا حتى يظهـر له الجن ويمسك بالبسـكوب ويعلمـه الموسيقى.

والجن أيضا يتولى تعليمهم ضرب الودع، وخط الرمل، وينبئهم عن المستقبل وكثيرا من البدو يعرفونه، وكلما سألتهم أن يعلمونى إياه رفضوا بحجة انه ليس لديهم أمر بذلك، فالجن يأتيهم فى المنام ويعلمهم ضرب الودع ويأذن لهم بمزاولة تلك المهنة، والاشتغال بالتنجيم ظاهرة تنتشر فى كثير من الأقاليم السودانية.

وجلست طوال الوقت أفكر فى تلك المعتقدات.. متسائلة بينى وبين نفسى هل للجن كل هذه السطوة والقدرة على بنى البشر؟ وما السبيل للحماية منهم؟ هل هو بنحر الذبائح ولبس المشغولات الخرزية والفضية؟ ومن هم البشر القادرون على رؤية الجن والحديث معه؟ أسئلة كثيرة تدور بعقلى، انتهيت منها على نداء ختم الذين علىّ، فقد أقبل رجلان من قوات حرس الحدود السودانية، يسألون عن هويتى؟ فأبلغتهم أننى باحثة مصرية وكم كانت دهشتهم وسعادتهم بوجودى بين البدو فى الصحراء وفى تلك المنطقة البعيدة منها فى أطراف مصر الجنوبية، وهذا هو السبب وراء عزلة بعض البشارية داخل الجبال، وعبروا عن أملهم أن تستخدم بحوثى لصالح تنمية المنطقة، وسادت جلستنا المشاعر الودية والأخوية ودلونى على كثير من المناطق التى ينتشر بها البدو وعلى الطرق المؤدية لهم، وعند رحيلهم طلبوا منى أن أتواخى الحذر من عبور الحدود حتى لاأتعرض للمساءلة القانونية، ولكن كيف أعرف الحدود؟! ولا يوجد فى الصحراء أية إشارات على بداية ونهاية الحدود، وكانت تلك بداية بحثى عن موقع الحدود، ومحاولة معرفة قصة الحدود، من خلال ماسجله التاريخ ومن خلال ذاكراة الشيوخ وأبناء البجا، خاصة أن الحدود لاتؤثر على حركة البدو فى حلهم وترحالهم، فالسكان المقيمون داخل مصر يصلون براحلتهم حتى مرتفعات الحبشة وبالعكس بعض بدو الحبشة يرعون فى أرض مصرية.

ماهى قصة الحدود

بعد أن هدمت مدينة سواكن القديمة وانكسرت شوكة البجا استطاعت بعض القبائل العربية الدخول للصحراء والاستقرار بوادى العلاقى بجوار مناجم الذهب، وكان الإسلام سببا فى انقسام تلك القبائل فمنهم من دخل الإسلام ومنهم من ظل

على وثنيه، واستطاعت قبيلة الكواهلة بعد أن صاهرت البجا وقويت بهم إنشاء ميناءا جديدا أطلقوا عليه «سواكن الجديدة» والذى يقع جنوب بور سودان، وكانت حركة الملاحة فيه كما كانت فى ميناء «سواكن القديمة وهى حلايب» وأصبحت السفن الهندية واليمنية ترتاده، ووضع الميناء تحت السيطرة المصرية العثمانية عام ١٥٢٠، وتم تطوير الميناء وبناء المنشآت الحكومية وأصبح ميناءاً عالميا فى عام ١٨٦٥م.

وبعد اندلاع الثورة المهدية فى السودان ووصولها إلى الشرق بقيادة «عثمان دقنة» عام ١٨٨٢ دب الخلاف والشقاق بين فروع وبطون كل القبائل البجاوية وانقسموا بين مؤيدين ومعارضين للمهدية، ودارت الحروب بين تحالف المؤيدين من العبابدة والبشارية وبعض المعدمين أو الدراويش كما أطلق عليهم وبين تحالف المعارضين من القبائل نفسها وكانت معركة «ميسح» التى وقعت غرب منطقة أبو رماد هى إعلانا لهزيمة الدراويش تبعتها معركة ثانية فى منطقة «تاماراب» وفيها أسر عثمان دقنة فى ١٣/٣/١٨٨٣ ولكن لم تعد المياه إلى مجاريها ثانية.. فقد أضحى من المستحيل ان تعيش القبائل معا فى سلام بعد أن أخذت الحرب الكثير من أبنائها، فرحلت بعض فروع قبيلة العبابدة فى عام ١٨٩٧ فى مناطق بربر والدامر فى شمال السودان كما رحلت بعض بطون البشارية جنوبا.

ويذكرنا التاريخ بأن مصر قد وقعت فى قبضة الاستعمار الانجليزى عام ١٨٨٢ وطمعت انجلترا فى مد نفوذها إلى السودان خاصة بعد أن عاونت الحكومة التركية فى القضاء على الحركة المهدية، وحتى يتم ذلك كان لابد من الفصل بين الأراضى المصرية والأراضى السودانية.

وتلك كانت البداية لفكرة عمل صناعة الحدود بين كل البلاد الإفريقية حتى يتمكن الاستعمار من التهام القارة الافريقية وفرض سيطرته عليها.

وكانت المعاهدة التى أعد بنودها كرومر، وقد وقعت الاتفاقية فى ١٣ يناير ١٨٩٩ وجاء بالمادة رقم ١ فيها « أن لفظة السودان تطلق على جميع الأراضى الكائنة جنوب خط عرض ٢٢ ° » ، وكان كل من مديرى المدن والقرى من الحكام المصريين،

ولتيسير سبل الإدارة لهم اقترح عمل حدود وهمية تفصل بين إدارة منطقة وأخرى، وتلك كانت بداية عمل حدود إدارية، حيث جاء خط عرض ٢٢ فاصلا لقريتى فرس، وادندان على النيل، مما اضطر وزير الداخلية المصرى إلى اصدرار إدارى فى ١٤ مارس ١٨٩٩ بأن تصبح إدارة قريتى فرس وادندان تحت قيادة المأمور المصرى المقيم بشندى، والقرى التى تقع شمالها تصبح تحت إدارة مأمور أسوان.

ومظاهر الإدارة تتجلى أولا فى جمع الضرائب من الرعاة والمزارعين، وكان من غير المعقول أن يقسم أفراد قريتى «فرس ـ ادندان» إلى قسمين الأول يدفع الضريبة لمأمور أسوان والآخر لمأمور شندى، وكان القرار يتسم بالصواب فى وقته وحينه.

الحدود الإدارية

وبدت تلك المشكلة أيضا على الساحل الشرقى خاصة بعد رحيل بعض فروع من العبابدة والبشارية إلى الجزء الجنوبى وللمرة الثانية، يصدر وزير الداخلية قرارا بأن تخضع القبائل لإدارة موحدة، ولأن المنطقة بعيدة عن أسوان وهى أقرب مديرية لهم فكان من الأصوب أن تصبح تحت إدارة الحاكم المصرى المسئول عن إدارة ميناء سواكن الجديدة.

وكما ذكرت أن الإدارة لم تتعدى مظاهرها سوى مهمة جمع الضرائب، أما مسئولية إقرار الأمن بالمنطقة، فكانت من مهام شيوخ ونظار القبائل.

ومن هذا التاريخ أضحى معروفا ان هناك مايسمى بالحدود الإدارية ومن أهمها تبدو مهمتنا، ولكن الحدود السياسية تنتهى عند خط عرض ٢٢٣ درجة والذى أقرته الاتفاقية التى أبرمت بين مصر والسودان عام ١٩٥٣.

والواقع يؤكد هذا المعنى، فالوجود المصرى قائم ومستمر فى تلك المنطقة، وحديثا وبعد قيام الثورة تحملت الحكومة المصرية مسئوليتها تجاه شعبها الذى يعيش على أى جزء من أرض مصر، وتولت الاهتمام بهذا الجزء، وحرصت على

تقديم الخدمات الصحية والتعليمية وتوصيل المياه والمواد التموينية للبدو القاطنين آخر الحدود المصرية.

هذا ماقاله لى التاريخ وحرصت على أن أقارنه بما تعيه ذاكرة البدو وسألت «تونس» عجوز تعدى عمرها المائة عام، فمازالت بجوانب ذاكرتها حرب الدراويش وكيف أبلى أهلها بلاء حسنا فى معركة ميسح عام ١٨٨٣ وقد انتقلت بعد المعركة للإقامة بحلايب وعمَّ الجفاف موطنهم فشدوا الرحال فى اتجاه الشمال حتى استقر بهم المقام فى مرسى علم، وعاشوا حياة صعبة يلبسون فيها «الخيش» وتمر عليهم الليالى بدون شربة ماء ولا دقيق لدرجة أنهم كانوا يضعون الزلط فى أفواههم حتى لايموتون من العطش، حتى جاءهم الفرج فى ركب جمال عبد الناصر فوصلت إليهم القوافل وامتدت اليهم يد الرعاية وأضحى موطنهم يموج بالخير.

وسألت تونس سؤالا مباشرا: أين تنتهى حدود مصر؟ فأجابتنى أن حدود مصر تنتهى بعد رأس حدارية بمسيرة نصف يوم على الأقدام، وهى مسافة عشرين كيلو مترا، تنتهى قبل بئر «قبتيت» وقد أثار دهشتى معرفتها الدقيقة بالنقطة التى تقع على خط عرض ٢٢ ° ، والتى فعلا تقع عليها الحدود السياسية، وسألتها كيف عرفت ذلك؟ فأخبرتنى أن أخيها وشقيقها «الحاج توفيق سليمان صابر» رحمة الله عليه، كان يعمل دليلا فى الصحراء وعمل مع البعثة الانجليزية المصرية التى قدمت عام ١٩٠٠ لتحديد النقط الفاصلة بين مصر والسودان.

ولم أضيع الوقت فأخذت أبحث عن الحاج توفيق حتى التقيت به وأخبرنى وأفاض علىّ بالمعلومات القيمة والثرية عن حدود القبائل والتى تفصل بينهم الآبار والوديان، وأيضا عن النقط التى يمر بها خط عرض ٢٢ ° ، وقص علىّ التاريخ القديم ومنذ حرب الدراويش والذى أكدته الكتب والوثائق.

ولكن مهما كان هناك من حدود فلن تعوق أبدا مشاعر الحب والود التى يكنها قلبى للسودان وشعبه، فقد عشت بالسودان عاما كاملا، انتقل فيه بين أقاليمه المختلفة لأجل رعاية وحماية إخواتى من أهل السودان ويكفى اننى حينما تقدمت لوزارة الداخلية السودانية بطلب للحصول على تصريح للإقامة والتنقل بين المناطق المختلفة التى تقيم بها قبائل البجا جاء نى ردهم بأننى أملك كل الحرية فى العيش

على اى جزء من أرض السودان لأننى مصرية، فلمصر مكانة غالية فى أعماق الشعب السودانى.

ولن أنسى ماحييت يوم أن ذهبت إلى مدينة أركويت وهى تقع على بعد ٥٠ كم جنوب بور سودان، فقد استقبلنى العمدة استقبال الملوك ونحر تحت قدمى جملا فأنا أول مصرية تنزل أركويت منذ عام ١٩٣٥ ورفعت قبيلة «الشرعيب» وهى فرع من الهدندوه السيوف تحية لاسم مصر.

وأنا .. باحثة الجبل أرسل التحية من أرض مصر إلى إخوتى بالسودان، تحية إعزاز وتقدير ومحبة.. حفظ الله مصر والسودان!

حكاية شجرة المحبة التى تنمو فى وادى الجن

أكتب إليكم بعد عودتى من أديديب «علبة» وأولى «حلايب» فقد قمت بزيارة قصيرة لرؤية الاصدقاء والأحباب من البشارية فقد ارتبطت بهم كثيرا بعد أن أضحوا أهلا لى . الخير قدم هذا العام مع الأمطار فامتلأت الآبار واخضرت الأشجار وغطت الخضرة الوديان فزدات المراعى وانتقل الرعاة الى داخل جبل علبة والوديان المحيطة به.

واستأذنت الشمس فى الرحيل واستندت بظهرى إلى شجرة سيال كبيرة امتدت جذوعها لمساحة كبيرة ظللت فروعها على أسرة بشارية وهى «مدنية» ووالدها «نورى» سعيدين بموطنهما آمنين فيه حامدين لله على فضله عليهما ونعمته، فأروع شىء فى الإنسان البجاوى هو قناعته، وأول شىء تلاحظه عند مرورك بالسيارة فى الصحراء ان تجد رجلا يجرى إليك مسرعا وحينما تتوقف السيارة وتسأله إن كان يريد شيئا؟ تكون الاجابة انه جاء ليطمئن عليك ويقول لك «نتكاخير، لبابى» بمعنى كيف حالك ولعلك بخير، شىء رائع حرم منه الناس تحت مظلة الحضارة وحينما

تعطى طفلا قطعتين من الحلوى يأخذ واحدة ويعيد الأخرى ولايأخذها إلا اذا ابلغته انها ملك له.

ماأروعكم يابشارية الجبل.. أكاد أحسدهم.. قد نالوا كل الخير فى قناعتهم رغم الفقر الشديد الذى تحتمه عليهم بيئتهم الصحراوية وتلك السمة وجدتها ايضا بين النوبيين فى القرى النوبية بكوم أمبو والنوبة القديمة وايضا لدى إخوتهم فى خشم القربة بالسودان، ولدى قبائل نوبا التى تعيش فى جبال كادفلى بغرب السودان وأيضا قبيلة الفلاتا التى تعيش بموطن النبى عامر على حدود الحبشة، فقد عشت معهم ورأيت قناعتهم بعينى فتلك الشعوب تعودت على أن تعيش بالعدل ونصيب كل منهم يتوقف على ماتجود به السماء من رزق فاذا ماجاء وفيرا زاد نصيبهم واذا قل اقتسموه بينهم بحيث يحصل كل منهم على نصيبه فيقتسمون شربة الماء ويتهادون باللبن.

ومن شدة تمسكهم بالحقوق، فإنهم لايغفلون حق الجن فى طعامهم؛ ففى معتقداتهم ان الجن أصحاب الأرض الحقيقيون وهذا يعطيهم الحق فى خيرها من الماء والأغنام، فقد أصابتنى الدهشة خينما رأيت «حليمة» تصنع بيدها سبع حفر فى الأرض وتصب فيها اللبن فسألتها باستنكار عما فعلته فاللبن خير لاياتيهم كثيرا، فلماذا تدفقه على الارض؟ ورغم أن جوابها لم يقنعنى من الناحية العقلية إلا أنه أراحنى نفسيا فهذا اللبن المسكوب هو حق الجن التى تعيش بالوادى وهم يعيشون فى جوار بعض ويقتسمون الحياة معا، وليس اللبن فقط الذى يقدم لها بل «الجبنه» وهى القهوة فبعد أن تنضج القهوة وقبل أن يشرب الناس يلقون بجزء منها فى حفرة فى الارض وأيضا دم الذبيحة حيث يرشونه على الرمال، وهناك بعض أجزاء من الذبيحة تلقى تحت الأشجار، أو فوق التلال، ومن البجا من يختص الجن بصحن يعلق فى سقف الكوخ وكلما اقبلوا على الطعام وشراب اقتسموا حق الجن وحفظوه بالصحن.

وعلى الرغم من أننى فى شك من حق الجن فى حياتنا وطعامنا وشرابنا، إلا أننى سعيدة جدا بسلوك البشارية فهو ينم عن إحساسهم القوى والفطرى بالعدل والحق ومهما كانت الأسباب فليس من حقهم كل حقوق الغير.

وهذا يدعونى للتساؤل عما أصابنا نحن أبناء المدينة؟ فدائما نقول هل من مزيد حتى اضحت الملكية هدفا لحياتنا، وهذا هو السبب وراء اكل الحقوق، فالبجاوى يسعى لقوت يومه وإنسان المدينة يسعى لتأمين أولاده بعد عشرين أو ثلاثين سنة! ماهذا هل هناك اختلاف بين انسان الصحراء وإنسان المدينة من الناحية الطبيعية؟ أم أنه ضعف إيمان بالله الرزاق الذى حمل على عاتقه رزق كل مخلوقاته.

وأثناء تناولى «للجبنه» اخذت مدنية تغنى أغنية الحب والعشق لجبل علبة فهو موطنها ولدت فيه وتعيش على خيره قالت: والبه ونيت وصريب بحر الضلام بكاتا بينى «علبة جبلنا الكبير يكتبون عنه فى مصر» اورداى إبنالو أو تقرينالوا امبوه «الماء الذى يجرى بجبال علبة حلوة وعزبة» هو ميت أشيته تلاقاه برامته « وفيه الأشجار الكثيرة ذات الرائحة الحلوة» هرناى هلاله «وفيه أيضا الاشجار التى يصنع منها الخلال» أو بدنجه سيتى أوى هاميتى «لا أصابك ربنا بالشر ولا الحزن» الله ياهيا تى الو تودنجل «ربنا يحفظ النبات والأرض» دنسه تودنجل ورميت أرت بيهانيا «ان شاء الله لايرث أرضك غيرك يادنسة «اسم فتاة».

ومن فيض حب علبة الذى ملأ قلب سكانه حدثنى «دورى» عنه، فجبل علبة أغنى مناطق الصحراء فيه تنتشر الآبار التى تحفظ المياه العذبة التى تجلبها الأمطار، وبه تنمو أنواع اشجار كثيرة ونباتات ويستخدم معظمها فى علاج الأمراض «همرايت» وهو حلف البر ويعالجون به كل أنواع المغص التى تصيب الإنسان، وكذلك «هرجل» ويوضع قطعة من خشب «امبرس» على مكان لدغ العقرب والثعبان بعد فصد المكان والتخلص من الدم الملوث بالسم، وأغرب مايحتويه علبة من أشجار شجرة اسمها «لاجنى هندى» وهى شجرة المحبة. من يحمل جزءا منهايلقى الحب من كل الناس واذا ماحملها الإنسان بنية حب إنسان معين ناله.

والغريب فى هذه الشجرة أنهم لايقطعون فروعها بأيديهم ولكنهم يربطون فرع الشجرة بحبل ويربطون طرفه الآخر فى رقبة حمار ويضربونه حتى يجرى وينقطع فرع الشجرة ويتولى الفكى «الرجل المتخصص فى عمل الأحجبة والتمائم» بسكب اللبن والماء تحت الشجرة كنوع من القربان للجن الساكنة للشجرة حتى لاتؤذيهم

بعد ان اقتطعوا جزءا منها. وتلك الشجرة سرها «باتع» ويكثر نموها بوادى الجن بالقرب من منطقة تاماراب، والمتخصصون فقط من البدو هم القادرون على الاقتراب من وادى الجن وبتر شجرة المحبة، ولأجل هذا الاعتقاد فإن حجاب المحبة الذى يحتوى على هذا النوع من الخشب غال جدا. و«أبال» راع ويقوم على جلب دبوكة الابل من السودان ليمر بها من وادى العلاقى حتى يصل بها الى سوق الإبل بدراو يربط حول عضده حجابا من الجلد بداخله قطعة من شجر المحبة حتى ينال محبة ومساعدة كل سكان الصحراء فى تجواله، كما أنه ذهب لأحد السحرة فى بلاد الأزاندى فى جنوب السودان فشق ذراعه بالقرب من الكتف ووضع له رصاصة بندقية بعد ان قرأ عليها التعاويذ وكتبها بالطلاسم السحرية. وهذا النوع من السحر يحمى صاحبه من الموت بالأسلحة النارية كما انه يعمل على إخفائه عن عيون الحيوانات المفترسة ويحكى لى «أبال» أنه ذات مرة كان نائما تحت شجرة وأفاق من نومه على زئير الاسد وهو فى عصبية شديدة، فحاسة الشم لديه تؤكد وجود إنسان بالمنطقة ولكنه لايراه ويفضل الحجاب ينجو «ابال» من الوحوش المفترسة التى تجوب الجبال كالاسد والذئب والتيتل والنمر. وتلك الحيوانات تكثر فى جبل علبة فى موسم الشتاء مع كثرة المراعى وانتشار الاغنام والضأن بالمنطقة. هذا مايقولونه والعلم عند الله أصيب جسمى بالرعشة فالبرد شديد وقاسى خاصة فى الليل «ومدنية» تحنو علىّ فجاءت ببطانية وألقتها على كتفى وقالت لى: إنها هدية من المصريين فهم يدركون أنهم يسكنون منطقة حدودية تقع بين مصر والسودان، ولهذا يتكرر كثيرا وصف الأشياء بالمصرى والسودانى تقول : تلك سيارة مصرية وتلك سودانية ، جنيه مصرى.. جنيه سوداني.. الخ.. وهذا أمر طبيعى جدا لكل سكان الحدود فى كل الدول الافريقية، فالحدود السياسية شىء جديد لم تتكيف معه القبائل ومازال الانتماء لدى معظم القبائل الإفريقية إلى القبيلة أولا وثانيا، ويأتى بعد ذلك الدولة التى تقع داخلها القبيلة، وتصبح المشكلة عميقة اذا ماكانت القبيلة منقسمة بين أكثر من دولة وهـذا أمـر واقع تعيشه إفريقيـا، وعلى سبيل المثـال نجـد ان قبائل العبابدة والبشارية والنوبة منقسمة بين مصر والسودان ونجد أن قبيلة «بنى عامر

والحلانقة » منقسمة بين السودان والحبشة . والأمثـلة فى هـذا لاتحصى ولا تعد . وعلى ضوء خافت صادر من «لمبة زيت» صنعتها مدنية بنفسها «زجاجة مملوءة بشحم الضأن وفيها فتيل» يحكى لى دورى ذكرياته مع جبل علبة وحلايب. فموطن الآن اكثر خيرا.. ولكنها حال الايام يوما تعطى وآخر تمنع، فقد عاش دورى أياما صعبة مات فيها أبوه وأخوه بعد أن نالهما المرض من الجوع ونقص الغذاء وذلك خلال فترة الجفاف التى مر بها موطنهم فى الاربعينيات واستمرت مايزيد عن ١٥ عاما. ماتت فيها حيواناتهم ولم يعد لديهم اى مصدر للرزق واضطروا فيها لأكل الثمار التى تطرحها أشجار السنط والهجليج المنتشرة بالمنطقة، وتلك الثمرة تشبه البلح ولكن بها مرارة، ويستخدم الآن كعلاج لمرضى السكر وهب «دورى» واقفا ودخل كوخه وهو عبارة عن أربعة من فروع الأشجار مغطاة بقطع من الاقمشة والسعف القديم وهو راجعا وبيده حقيبة من جلد الأغنام، واخذ يعبث فيها واخرج يده وبها صورة. واطلعنى عليها.. فقلت له تلك صورة عبد الناصر فرفض مقولتى ودقق النظر ثانية واعدت عليه القول ولكنه ثانية يرفض فقلت له بانفعال: «الله ماتيت جمال عبد الناصر» فوافقنى تلك المرة. وكانت المشكلة قائمة فى اسم جمال فسكان الصحراء لايعرفون الاختصار فى الأسماء او الألقاب، فهم يحفظون الاسماء كما يسمعونها وكانت مفاجأة لى انه رأى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر حينما نزل اليهم فى حلايب أوائل عام ١٩٥٥، فالتاريخ يعيد نفسه فقد أثيرت مشكلة الحدود الإدارية والمثلث الإدارى بين مصر والسودان فى ذلك الوقت، فبعد أن تم توقيع اتفاقية ١٢ فبراير عام ١٩٥٣ والتى تنص على استقلال السودان على ان يتم إعلان استقلال السودان بعد ثلاث سنوات، يتم فيها جلاء القوات الانجليزية عن السوان واحلال السوادنيين مكان الاداريين الانجليز واعتلى اسماعيل الأزهرى رئاسة مجلس الوزراء السودانى بعد أن فاز حزب الاتحاد الديمقراطى فى الانتخابات. وكانت العلاقات المصرية السودانية فى طريقها لإعلان الوحدة بين البلدين ولكن إقالة الرئيس محمد نجيب من حكم مصر ادى الى تدهور العلاقة. وحينما أعلن عن الانتخابات فى مصر حول انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا لمصر

أرسلت صناديق الانتخاب الى منطقة الشلاتين وابو رماد وحلايب، ولكن على خليل رئيس السودان واسماعيل الازهرى رئيس الوزراء منعا إجراء الانتخابات فى تلك المناطق بحجة انها أرض سوادنية، وعلى الفور ارسل جمال عبد الناصر بعضا من فرق الجيش المصرى الى المنطقة وفرضت السيطرة والسيادة المصرية على الأرض حتى خط عرض ٢٢ أسرعت السودان وتقدمت بمذكرة إلى مجلس الأمن تشكو فيها الحكومة المصرية وادعت فيها أن مصر احتلت أرضا سودانية. وجاء رد مجلس الأمن بسؤال هل تعدت القوات المصرية خط عرض ٢٢ وهو الخط الفاصل بين الأراضى المصرية والسودانية كما جاء بنص اتفاقية عام ١٨٩٩؟وكانت الاجابة لا.. وبذلك حفظ مجلس الأمن المذكرة.

وزار الزعيم عبد الناصر المنطقة وبدأت الوزارات تضع الخطط لتنمية المنطقة وإقامة المشروعات التعدينية، وتولت وزارة الشئون الاجتماعية مسئوليتها تجاه البدو سكان الصحراء بتقديم المعونات الغذائية والخدمات الصحية.

واستمر وجود الجيش المصرى بالمنطقة وفى مواجهة الجيش السودانى، كل يحمى حدوده وكان العدوان الثلاثى على مصر فاضطرت مصر إلى سحب وحدتها الموجودة بالجنوب الشرقى بعد أن تأكدت حقيقة أن المثلث الإدارى أرض مصرية.

تلك الحقائق والأحداث محفورة بذاكرة «دورى» قصها علىّ بلغته وخبرته فآنذاك دب الخوف فى قلوب البدو فهجروا الساحل فى ابى رماد وحلايب وبئر ادل، واختبأوا داخل الجبال خوفا من الصدام المسلح بين الجيشين ولكن الله سلم وعاشت المنطقة فى سلام تضم المصرى والسودانى معا.

فاطمة وصنم المصريين

مسيرة يوم بالجمل حتى نصل من الشلاتين إلى بئر «أدل ديب» ماؤه ليست عذبة تماما على الرغم من أنها من مياه السيول والأمطار التى تتجمع فى وادى حوحنين فقد ذابت فيها الأملاح التى تحتويها تربة الشاطىء.

والحمد لله على فضله فمنها ترتوى فاطمة وناقتها، عجوز تعيش بمفردها فى كوخ على البحر أقامته من قطع الخشب التى تلقى بها الأمواج على الشاطىء، استقرت بالمنطقة بعد سنوات طويلة من الترحال وبعد أن توفى زوجها وتزوج أولادها.

امسكت فاطمة بلجام ناقتها ونحن فى طريقنا للبئر لنجلب الماء فى القربة المصنوعة من جلد الأغنام، وفاطمة تملك اثنتين منها وكمية الماء المحمولة بداخلها ليست كبيرة ولذلك تقوم بتكرار تلك الرحلة كل يومين، وفى طريقنا نجمع قطع الخشب الملقاة على الشاطىء فعديم الفائدة منها يصلح للنار، وسألتنى العجوز سؤالا، الزمنى الصمت والحيرة وهو: ما السبب وراء مجىء العسكر لبلاد البشارية؟ فقلت لها من أجل الأرض.. أرض الشلاتين وأدل ديب وحلايب وعلبة فقالت بتلقائية رائعة: تلك ارض الله وارض البشارية.. جدودنا ورثوها من الفراعين و جدنا احنا كان ملكا فرعونيا واسمه «منتون» وله قبر فى جبل شنديب، واحنا البشارية بندافع عنها، وحاولت أن اشرح لها الأحداث بلغتها وتصوراتها..، فهى شغوفة بمعرفة حقيقة الامور وتتميز بالذكاء الفطرى الذى حباهم به الله فقلت لها: فى الماضى جاءت قبيلة من بلاد بعيدة اسمها الانجليز فقاطعتنى وقالت «الخواجات» مضبوط الخواجات دول جلسوا على الأرض فى الريف فى دراو واسوان وبربر وعطبرة «فتلك هى البلاد التى زارتها وتعرفها» وكانوا اقوياء ومعهم سلاح وفرضوا سيطرتهم على أصحاب البلد ومن أجل جمع الضرائب من الناس قسموا أرضا مصرية وقبلى منها أرض السوادن.. فقالت: تماما وتذكرت أنها فى طفولتها كانت تذهب إلى البحر عند منطقة «رأس قبتيت» لتلعب عند صنم المصريين، وصنم المصريين هذا هو مبنى حجرى على شكل عدة مصاطب أقامته لجنة خبراء الحدود على خط عرض ٢٢ ليكون علامة فاصلة بين البلدين، وتساعد اللجنة على وضع بقية الإشارات، واعتقد البدو أنه من آثار الفراعنة وأطلقوا عليه كلمة صنم، لكن بعد مارحل الخواجات يقول بعض السودانيين: إن تلك أرضهم علشان كده العسكر جت.

وسألتنى هل الكلام ده مكتوب فى ورق والقبائل الاخرى شاهدة عليه ؟ فاجبتها أن هناك أوراقا مكتوبة ورسمية وكل القبائل «الدول» شاهدة عليه تمام زى الورق اللى موجود عند «كرار» ناظر البشارية ومثبت فيه حدود أرض البشارية والآبار التى يمتلكونها وكان نظار الهدندوة وبنى عامر شهودا عليها فقالت يبقى خلاص الحق محفوظ.. لكن خلوا السودانيين يرعوا فى أرضكم، احنا البشارية عارفين ارضنا بالشبر وهى ملك لنا لكن كل القبائل تأتى للرعى عندنا لما الأمطار تيجى لنا فى الشتاء فهى أرض الله فى الأساس .... مش كده.

عجوز قضت حياتها داخل الصحراء.. أخذت من الحياة فلسفة السلام.. لابد أن تعيش لتحقق السلام مع نفسك.. مع الناس.. مع الله.

وماقالته فاطمة قد بدأ يتحقق مع إعلان ميثاق التكامل بين مصر والسودان فى عهد الرئيس محمد أنور السادات، كان من بنود الميثاق أن تصبح مدينتا الشلاتين وحلايب مدنا حرة تستقبل المنتجات المصرية والسوادنية وان يتم إنشاء مكتب للجوازات بالمنطقة لتصبح منفذا شرعيا للمرور والسفر عبر البلدين بالطريق البرى ويتم رصف الطريق الموازى للبحر ليصل بين الغردقة فى الشمال وطوكر على حدود الحبشة بالإضافة إلى مشروعات التعدين المشتركة وخاصة فى مجال المنجنيز بتطوير شركة النصر للفوسفات الموجودة بأبو رماد منذ عام ١٩٤٥ وتوسيع الميناء لتيسير نقل المواد التعدينية بالبواخر والأعمال المشتركة للتنقيب عن البترول والغاز الطبيعى والذهب بمنطقة «سوريب» وأيضا خام «البلوتونيوم» والذى يستخدم فى صناعة الصواريخ، وبناء سد حجرى على البحر فى منطقة وادى حوحنين لحجز مياه السيول والاستفادة منها فى زراعة المنطقة، فقد كان يزرعها البدو فى الماضى وقبل موجة الجفاف التى اجتاحت المنطقة منذ ثلاثين عاما وكانوا يزرعون محصول «الدخن» وهو يشبه الذرة ، ويستخدمون طحينه فى عمل الخبز.

مشروعات كثيرة تعلقت عليها آمال كبيرة للبسطاء والفقراء من أبناء الشعب المصرى والسودانى وفعلا قامت مصر برصف الطريق البرى حتى حلايب بحيث تتولى السودان استكماله إلى طوكر حسب الاتفاق وشهدت الشلاتين وحلايب حالة

من الرواج الاقتصادى حيث تأتى السيارات السودانية ويسمونها «السفنجة» محملة باللب والحنة والروائح والكركديه والتوابل وتعود محملة بالأقمشة والمعلبات والآنية البلاستيك وفى السوق تبيع وتشترى بأية عملة تحملها. وكانت الترتيبات والدراسات جارية لإتمام التكامل ولكن آمال الفقراء تحطمت عل صخرة السياسة فقد قام فى السودان انقلاب عسكرى أطاح بنظام الرئيس نميرى الذى لجأ الى مصر وتوقف كل شيء واصبح ميثاق التكامل حبرا على ورق وفرحة البدو خدها الغراب وطار.

ومصر علمت بفلسفة فاطمة وسمحت للسودانيين بالرعى فى أرضها ليعم الخير على الجميع.. ولكن..؟!

العجوز حزينة لأن الشيوخ الكبار لا يعملون لاجل مصالح الصغار ولكنها ختمت حديثها بالدعاء بالخير للجميع.

عدنا للكوخ بعد ان جلبنا الماء ومع غروب الشمس قمت لأشعل النار وأعد الجبنة، فالبرد شديد وصوت الهواء عال وتشعر معه وكأن هناك اخرون يتحركون جوارك، او يحدثونك والأمر يحتاج للجلوس حول النار للحصول على الدفء، وجاءنا ضيف ليخبر فاطمة أن ابنتها سعيدة وسوف تقيم حفلا لتسمى وليدتها غدا، وانه سيمر عليها فى الصباح ليأخذها معه، فقد اشترك الاهل والاصدقاء واستاجروا سيارة «سفنجة» لتذهب بهم إلى سعيدة ليشاركوها فرحتها. وتركت لى فاطمة الحرية فى الاختيار فالدعوة مفتوحة للحضور فى حفلة حفيدتها، فالبدو يمتازون بصفة عدم الالحاح سواء فى طلباتهم أو دعواتهم وتلك الصفة مرتبطة بصفة أروع وهى صدقهم فى مشاعرهم واقوالهم.

تحركت السيارة بعد أن ركبت أنا والعجوز جوار السائق وفى الصندوق ركبت النساء والأطفال والرجال وحملوا معهم الأغنام وأكياس الدقيق والسكر، فتلك مناسبة للتهادى والمساهمة بجزء مما رزقهم الله. وفى طريقنا الى بئر «أوديس» الذى يقع جنوب غرب بئر «أدل ديب» بمسافة تقترب من المائة كم، مررنا بوادى «ودريب» وهو مرعى جيد للغزال والنعام.. ويسيل لعاب السائق فهو يرغب فى

اصطياد غزالة ولكن حمولة السيارة كبيرة والطريق كله حجارة، وبعد عدة محاولات بهدف الإيقاع بغزالة.. صرف السائق نظره وتركها لمناسبة أخرى.

الراية البيضاء معلقة فوق كوخ سعيدة فتلك من عاداتهم فى الأفراح والاعياد.. نزل الركب بجوار الكوخ والفرحة والزغاريد تعم المكان.. وقام الرجال لنحر الذبائح فتلك من مهامهم ومحظور على النساء القيام بها لدرجة ان الرجل يطلق زوجته إذا علم أنها قامت بعملية الذبح.

وهمت النساء بإعداد الطعام ودخلت أنا والعجوز لكوخ سعيدة وحملت وليدتها الملفوفة فى قطعة من القماش الأبيض ، فالطفل البجاوى لا يلبس المخيط لمدة اربعين يوما من ولادته وفى رقبتها علقوا سيرا من الجلد به سبع ودعات.. فالودع يحمل سر الحياة وبالتالى فهو قادر على حفظها.. هكذا اعتقد الفراعنة وحفظ الأحفاد الوصية فحملوها وتزينوا باه وزينوا بها كل عزيز وغال عليهم وخاصة الإبل.

وأقبلت النساء فقد انتصفت الشمس فى السماء وحان وقت بداية مراسم تسمية المولودة فجلست سبع نساء منهن على الأرض على شكل دائرة وأمام كل منهن طبق به شيء من الحبوب السبع «ذرة - قمح حنة - لبن - ماء - تمر - روائح» وتناولت الأولى الطفلة من حجر أمها ووضعتها على الطبق الذى أمامها وأخذت تدعو لها بطول العمر والصحة والعافية والرزق الوفير، ثم أخذته المجاورة لها ووضعته على الطبق الثانى. ويتم التكرار بوضع الطفلة وسط الأطباق على الأرض ووضعت إلى جوارها السيف والدرع والخنجر.

وبعد الانتهاء من تناول الطعام والحلوى اجتمع كل المدعوين حول صحن كبير محفور على الخشب مملوء بالخبز واللبن والسكر وبدا الشيخ «عامر هبوب» أكبر الموجودين وعمدة قبيلة الكراتيل بوضع النقطة فى الطبق واقترح اسما للمولودة وتوالى كل المدعوين بوضع النقطة ثم حمله الشيخ إلى داخل كوخ الأم وقدم لها المال وخرج علينا ليعلن اسم المولودة وكانت المفاجأة أنهم اسموها «منى» تكريما لوجودى بينهم وتلك المرة الثانية التى اكرم فيها بهذا الشكل، فقد سميت طفلة فى مرسى علم باسمى، وكان ذلك فى بداية عهدى بالصحراء وكبرت منى واصبح عمرها من عمر حياتى بالجبل...، وتلك المجاملة الرائعة من العبابدة والبشارية لشخصى تجعلنى أزداد تعلقا بهم وبموطنهم.

علت الصيحات والزغاريد ودقت النساء «الكبور» وهى الطبلة وبدأ الغناء والرقص وجلست بجوار الشيخ العجوز عامر هبوب، فمثله جبل علبة يحوى بداخله الكثير من الأسرار والأخبار لنشرب الجبنة ونأنس بعضنا البعض . وأخبرنى أن أول شىء يتعلمه طفل الصحراء هو «تقصى الأثر» حيث تتركه أمه وتخرج لجلب الماء أو الحطب من خارج الكوخ فتجده ينظر للأرض ويتبع آثار أقدامها ويسير عليها حتى يصل لأمه.. ومع نموه يتعلم ويتقن هذا الفن لدرجة أنه يمكن أن يتعرف على صاحب الأثر وعلى حالته النفسية او الجسمية أثناء عبوره الطريق وذلك من خلال شكل الأثر. فإذا كان محفورا بشكل عميق فذلك دليل على أنه مريض أو مهموم . ما إذا كان قويا وعلى السطح فإن صاحبه معافى فى جسده وغير مهموم.. و اغرب مافى جعبة البشارية من هذا الفن أنهم يتعرفون على نوع السيارة ونوع المتاع الذى تحمله من خلال أثر إطار السيارة على الرمال .

ومن منطلق التنظيم القبلى والحربى فإن البشارية تجمع الأطفال الذين بلغوا سن الثامنة من عمرهم فى معسكر خاص بمنطقة بعيدة، وغالبا ماتكون آهلة بالوحوش والزواحف ويقوم على رعايتهم الشيوخ والابطال والفرسان وفى هذا المعسكر يتم تدريب الأطفال وتعليمهم فنون الحرب والقتال وأساليب الحياة الشاقة.. مثل اكتشاف اماكن وجود الماء وحفر الآبار والنزول إليها والصعود منها بدون استخدام الحبال. وتقصى أثر الوحوش المفترسة مثل الأسد ويسمونه «شيتا» والتيتل والضبع ومهاجمتهم وقتلهم. كما يتعلمون صيد الأرانب البرية والغزال للتغذى على لحومها ويصنعون بأنفسهم مصيدة لهذا الغرض وهى عبارة عن دائرة خشبية ويلف حولها الأعشاب فى محاور واتجاهات مختلفة بحيث يترك مركزها فارغا لتمسك رجل الحيوان وتربط بحبل ويثبت طرفه الآخر فى حجر ويدفن فى الرمل، وذلك فى المكان الموجود به الحيوان بعد أن يتم تقصى أثره.

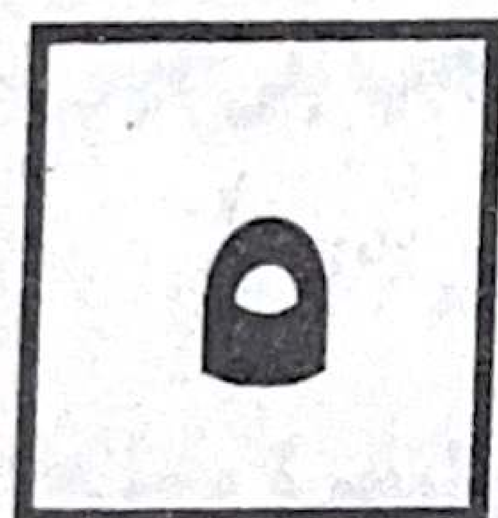
ويتولى الفرسان تعليم الصغار فنون الحرب، واستخدام السيف والدرع ويتولى الشيوخ تلقينهم تاريخ القبيلة وتاريخ حروبها وحدود أرضهم، وإلقاء الضوء على الأصدقاء والأعداء من القبائل المجاورة، وبعد انتهاء مدة التدريب الشاقة. تبدأ

مراسم الاحتفال برجال المستقبل فيستبدلون ملابسهم بأخرى جديدة ويعلق كل طفل حلقة فضية بأذنه اليسرى ويلبس بيده سوارا، وفى رقبته يتحلى بعدد من عقود الودع والخرز واهمها سير من الجلد به بقايا من أسنان وجلد الحيوانات التى اصطادها الطفل خلال فترة التدريب، ويتم إجراء عملية الختان الجماعى لهم ويقوم بها أحد الشيوخ الذى يملك خبرة فى هذا الأمر ويسهر على علاجهم ورعايتهم ويتم نحر «ماعز» لكل طفل، وتقام حفلة كبيرة يحضرها كل الاهل وأفراد القبيلة وفيها يقدم كل أب لابنه سيفا ودرعا وتلك بمثابة شهادة التخرج من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الرجولة والمسئولية.

ويبدو أن حديث الشيخ عامر عن معسكرات إعداد المحاربين أثار فى نفسه الذكريات عن البطولات التى شهدتها الجبال، والتى أبلى فيها البشارية بلاءا حسناً وأخذ يحكى لى عن جده «ايلاباى اور» فارس البشارية وزعيمها والذى قاد حربا ضد الهدندوه بعد أن سرقت الثانية إبلهم.. وللإبل مكانة عظيمة فى نفوس شعب البجا تكاد تزيد على مكانة الأبناء، فالرجل الذى يسرق جمله ويفشل فى استرداده تظل القبيلة تحاصره بنظرات الضعف والاستهانة طول عمره، وهذه حال الفرد مابالنا بحال قبيلة بأكملها... فان سرقة إبل قبيلة يعتبر سبة فى جبينها ومذلة لها تلاحقها وجميع رجالها لايمحوها إلا بذل المال والرجال لاستردادها.

ودارت حرب بين البشارية والهدندوة استمرت خمسين عاما لأجل استرداد الإبل، يحالف النصر البشارية مرة، ويخونها مرة أخرى، وأثناء الحرب وقع الفارس «ايلاباى أور» عن جمله فكسرت ساقه ولكنه كتم الخبر عن رفاقه حتى يتمكن من استكمال المعركة، وهاجمه «حسين دين» زعيم الهدندوه وضربه ضربة شديدة بالسيف قسمته نصفين ولكنه عرف أن ساقه كانت مكسورة، فحزن حسين حزنا شديدا وندم على قتله لفارس البشارية وقال: قتلت أشجع الرجال. ورفض أن يقود حربا ثانية ضد البشارية.

حب القتال قيمة كبيرة لدى احفاد الفراعنة وفرسان الصحراء، وللقتال قيم يجب ألا يتخطاها البطل الحقيقى:



الرشايدة وقصة

أســـود ليلــة فى حــياتى

وصلت بعض قبائل الرشايدة إلى الحدود المصرية السوادنية..، تمركزت حول «بئر نشت» قاصدة حلايب.. لم يمنعها أحد من الدخول، وبقيت قبائل الرشايدة تنشد الراحة من عناء الرحلة الطويلة.. قطعت فيها مئات الكيلو مترات من موطنها على الحدود السودانية الإثيوبية.. متجهة إلى مصر.. الى حلايب.. منطقة الجذب الجديدة.

لماذا جاءوا إلى حلايب فى هذا الوقت؟

هذا هو السؤال الذى قررت البحث عن إجابة له: ولأن لى سابق لقاء وإعجاب بهذه القبائل.. قررت أن أذهب إليهم.. اتجهت غربا من حلايب إلى «بئر نشت» .

شددت الرحال.. وحدى.. فى مغامرة مخيفة رائعة.وكان اللقاء...

أثناء وجودى بحلايب علمت أن بعضا من قبائل الرشايدة وصلوا إلى منطقة «بئر نشت» التى تقع على خط عرض ٢٢ ويمر بنهاية وادى العلاقى، الذى يبدأ من جنوب أسوان بحوالى ٢٠٠ ك.م ويمتد فى الصحراء متجها للشرق حتى ينتهى عند أطراف مدينة بورسودان، وهو الطريق الرئيسى الذى تسلكه قوافل الإبل القادمة من السودان لمصر. وكنت قد قابلتهم من قبل مرتين الأولى فى مصر بوادى حميثرة بجوار مقام سيدى أبى الحسن الشاذلى والثانية كانت أثناء وجودى بالسودان فقمت بزيارتهم فى قرية مستورة والتى تقع على بعد ٥٠ ك.م عن مدينة كسلا على حدود الحبشة.

وقبيلة الرشايدة من «القبائل العربية التى هاجرت من السعودية فى القرن التاسع عشر بعد سقوط حكم أسرة آل رشيد وتولى آل سعود الحكم فى المملكة



البشـارى حفيـد الفراعنـة وسـاكن حـلايب ....

العربية السعودية، ويرجعون بنسبهم إلى هارون الرشيد وزوجته زبيدة الجارية التى اشتراها هارون الرشيد من تركيا، وتنقسم القبيلة إلى ثلاثة فروع كبيرة وهى - مريعص - برطيخ» وكل فرع منها يضم العديد من القبائل يسمون أحيانا بالنسبة لوالدهم «الرشايدة» وأحيانا أخرى يسمون بالزبيدية نسبة إلى أمهم وقد كان هذا الاسم سببا فى نشوب الحرب بينهم وبين القبائل العربية الأخرى لما تنطوى عليه تلك التسمية من معنى التحقير والإذلال لهم، فالزبيدية تعنى «أبناء الأمة» أو العبيد ومن شدة كراهيتهم لهذا الأسم نص قانونهم العرفى على تغريم أى رشيدى جملا اذا مالبى نداء أى إنسان له بكلمة «زبيدى».

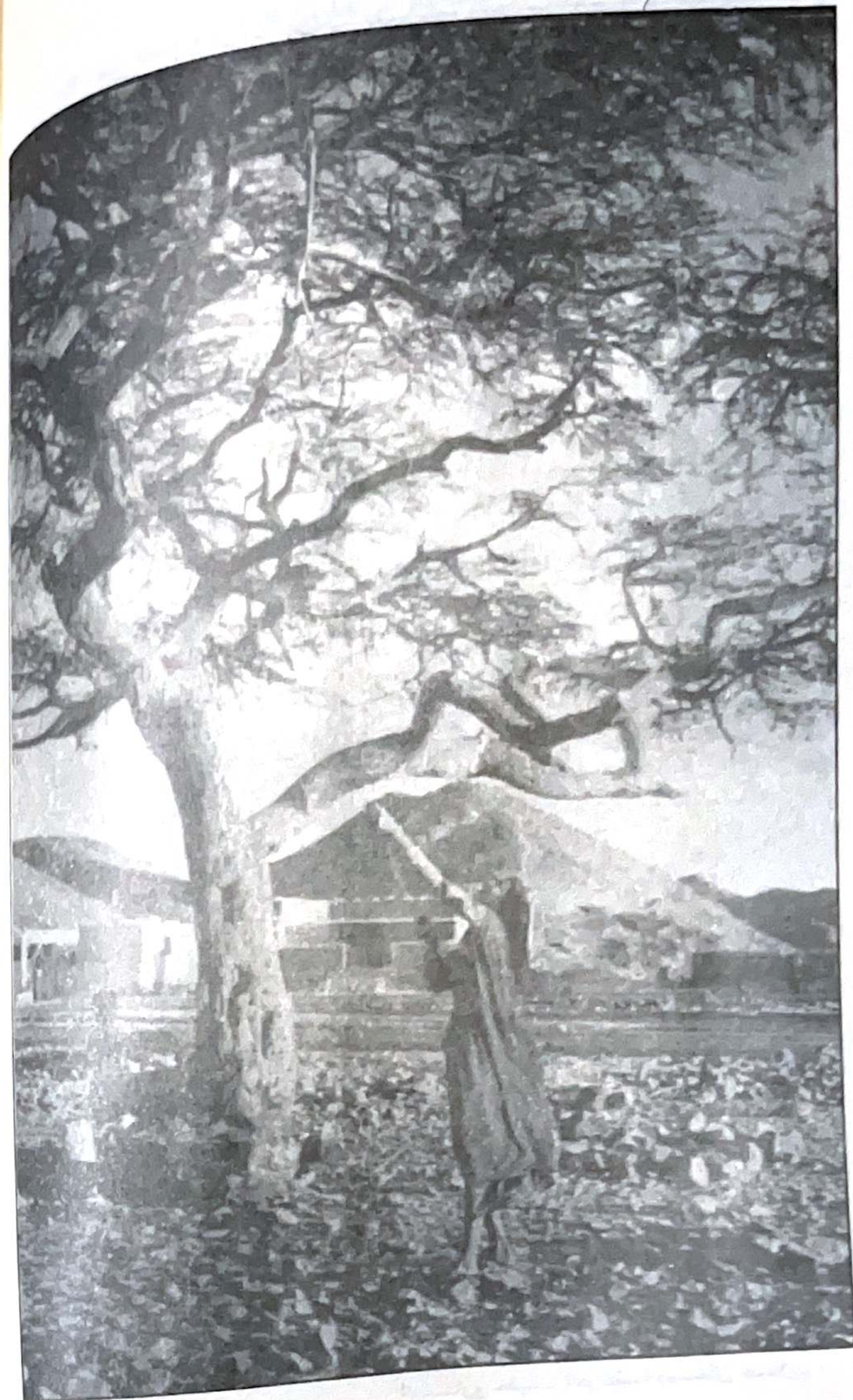
وقد هاجر الرشايدة إلى السودان عبر ميناء سواكن وعاشوا قرنين من الزمان فى حروب مستمرة مع قبائل البجا وأصحاب الأرض فى شرق السودان حتى تمكنوا فى النهاية من استقطاع جزء من أرض الهدندوة واستقروا به ولأنهم اغتصبوا الأرض بالقوة فقد حرموا من تعيين رئيس لهم يمثلهم أمام الحكومة والذى يسمونه «ناظر» ولذلك فهم خاضعون لناظر قبيلة الهدندوه.

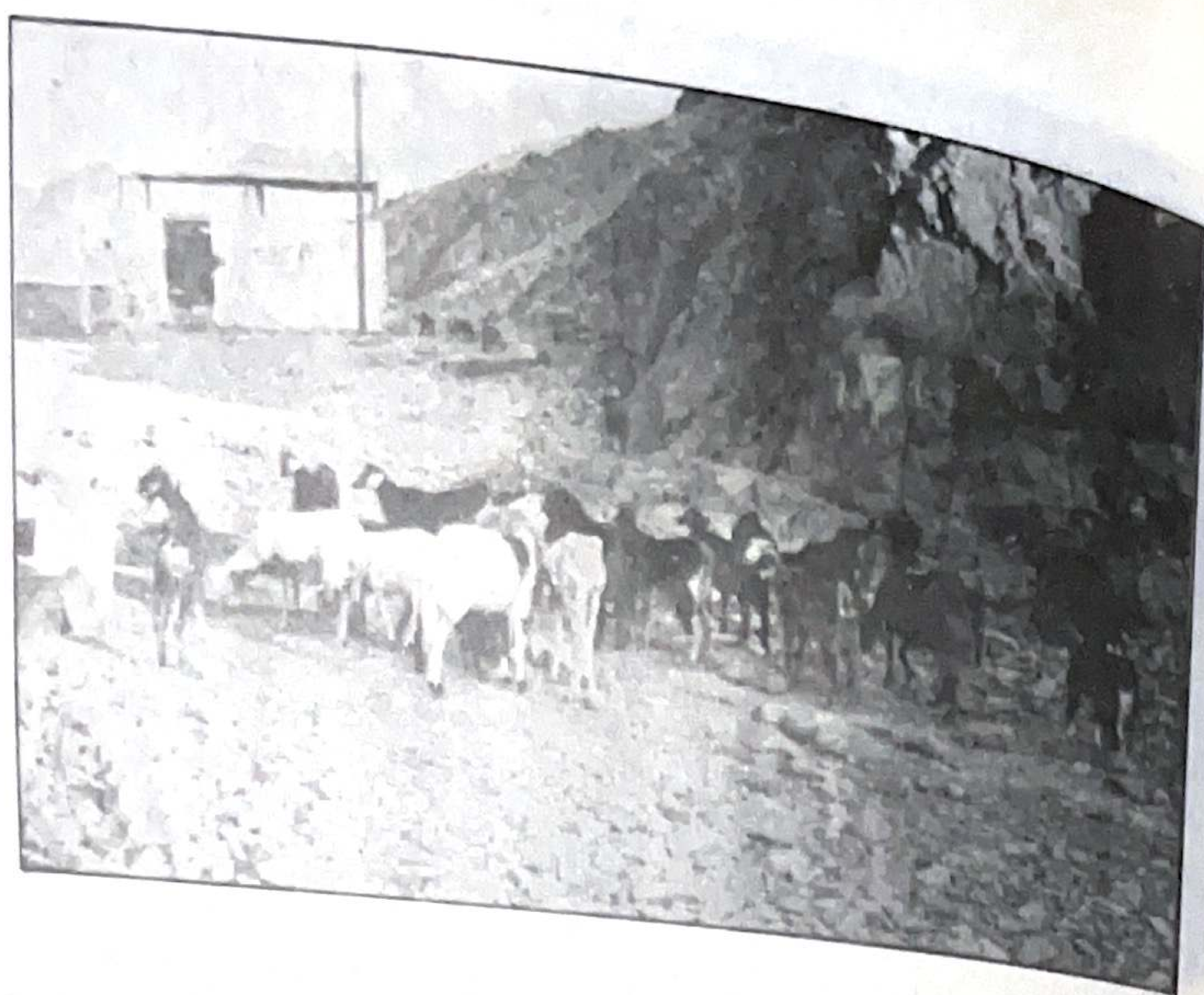
بداية الرحلة

وجدتها فرصة أن ألتقى بالرشايدة ثانية لأستكمل بحثى عنهم فاستأجرت سيارة منصور «أحد سكان حلايب» ويملك سيارة جيب قديمة من مخلفات أحد المناجم المنتشرة بجبل علبة، ودفعت له مائة جنيه ليذهب بى، فالطريق شديد الصعوبة والمسافة طويلة تزيد على ٢٠٠ ك.م فى اتجاه الغرب وحملت معى خيمتى وبرميل المياه وطعامى وحقائبى.

تحركنا فى الفجر لكى نصل مبكرا.

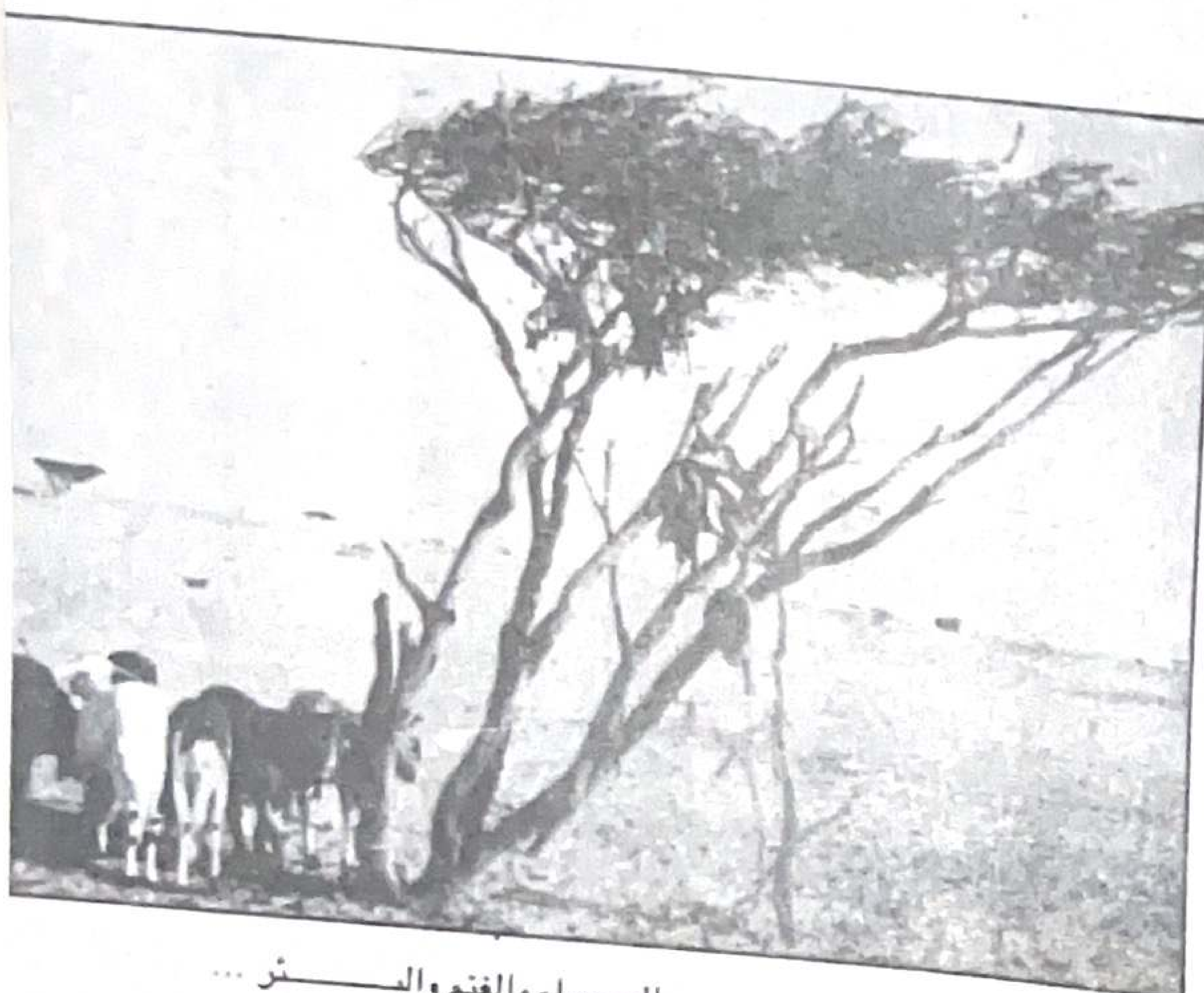
وبالقرب من البئر رست راحلتى وكانت مفاجاة طيبة ان وجدت رجلا كريما اسمه «حسين أداروب» كنت نزلت فى ضيافته فى مدينة بربر بشمال السودان، وشيخى العجوز هو شاعر العبابدة والبشارية وبطل من أبطال حرب «ميسح» التى كانت بين تحالف العبابدة البشارية وبين الدراويش أو المهديين أنصار عثمان دقنه زعيم الثورة المهدية فى شرق السودان عام ١٨٩١، وجدى حسين له من العمر مائة





إنسان الصحراء
يحافظ على البيئة فلا
يقطع شجراً ولا يدمر
مكان وإنما يأخذ
الاغصان الجافة
ليستخدمها كوقود ..





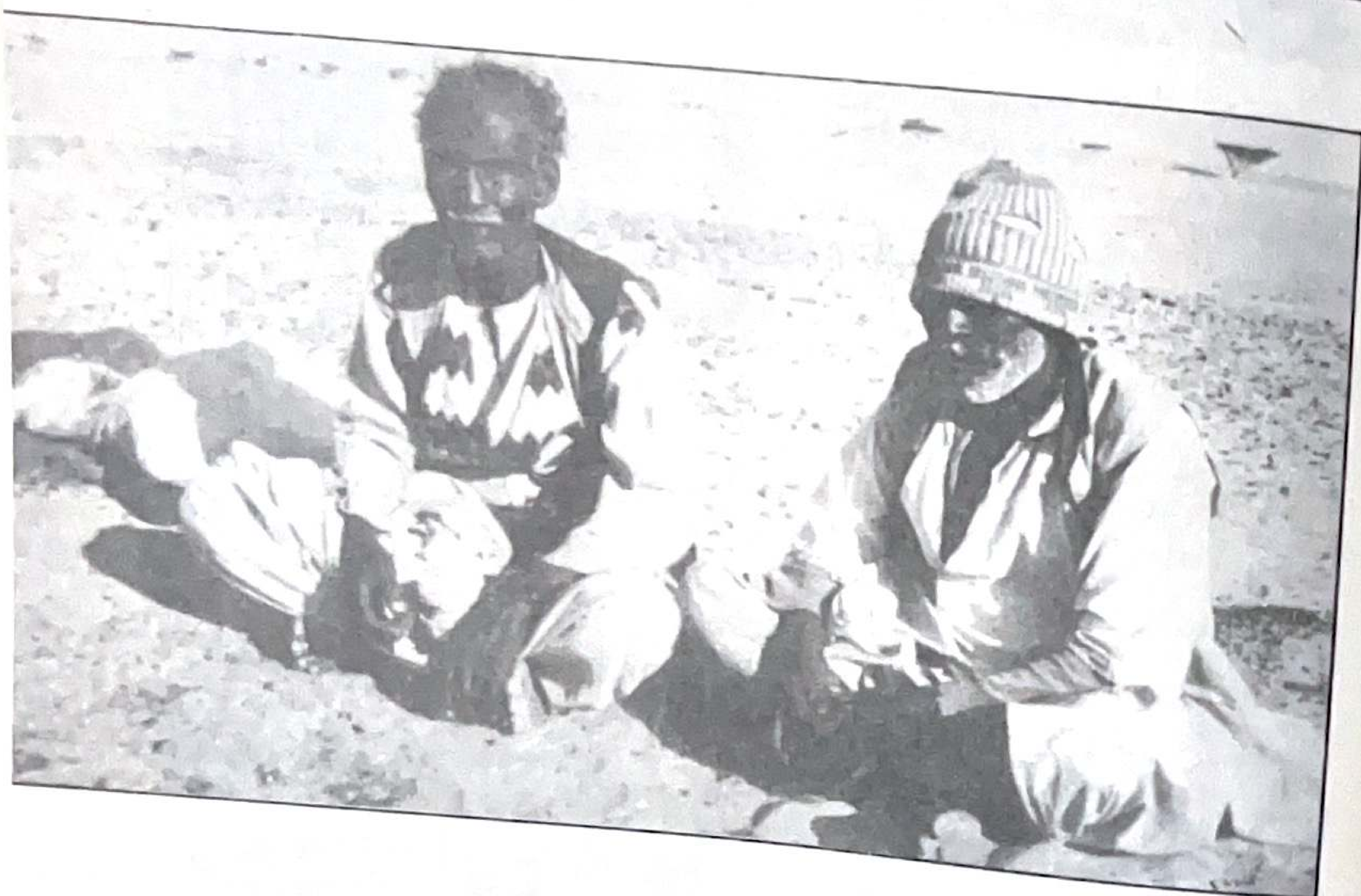
الصحراء والغنم والبشر ...





فى الصــورة العليــا شجــرة السنط تظلل المكان ومن ثمارها ينمو الجمل ومن فــروعها توقــد النار.... وأســفل الجمال والبشــارى والصحــراء .





صـور الحيـاة الاجتماعيـة لأهـل حـلايب .....

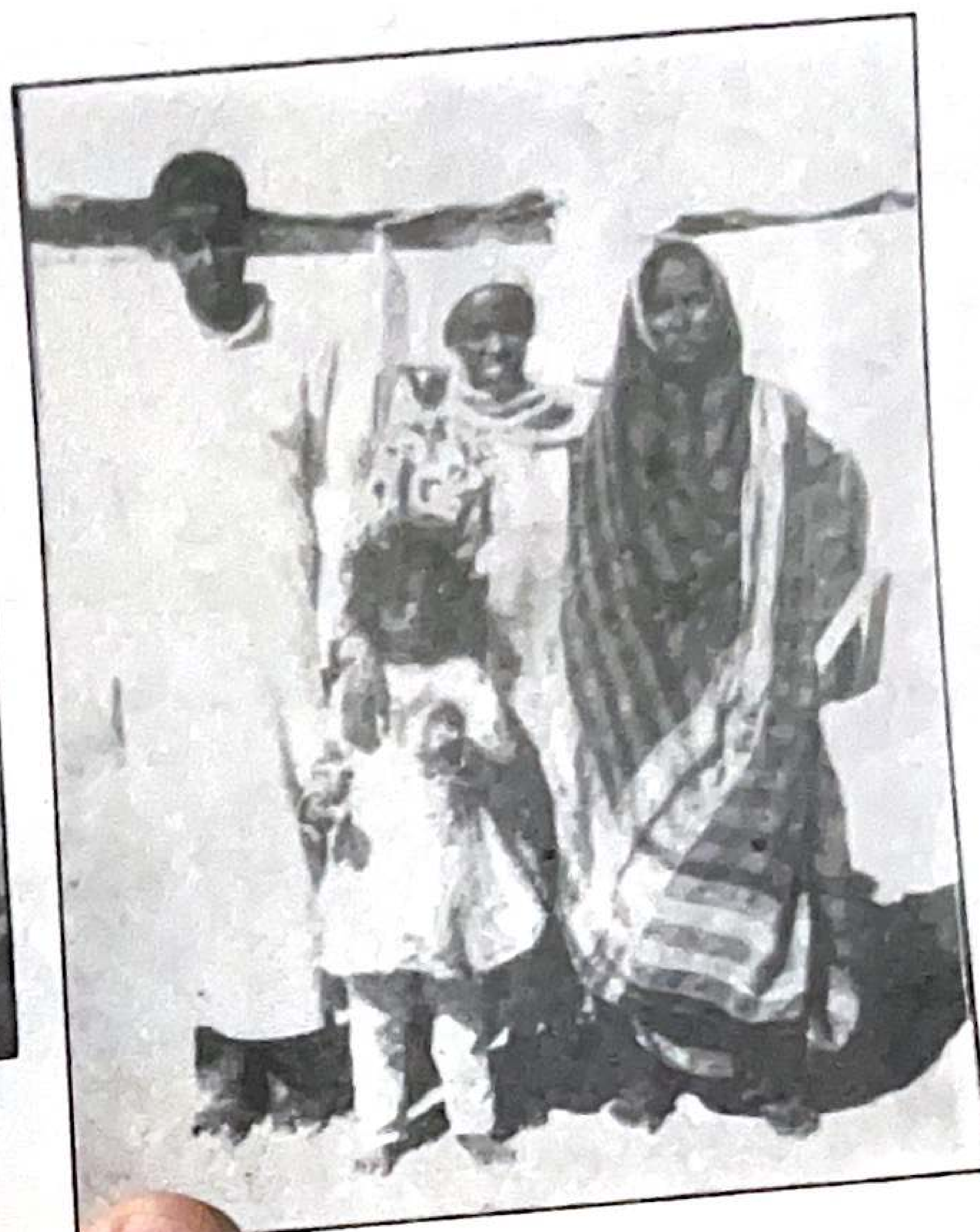


النوبيات (الدكتورة) فى زى العروس وعلى أيديها نقش الحنة ...



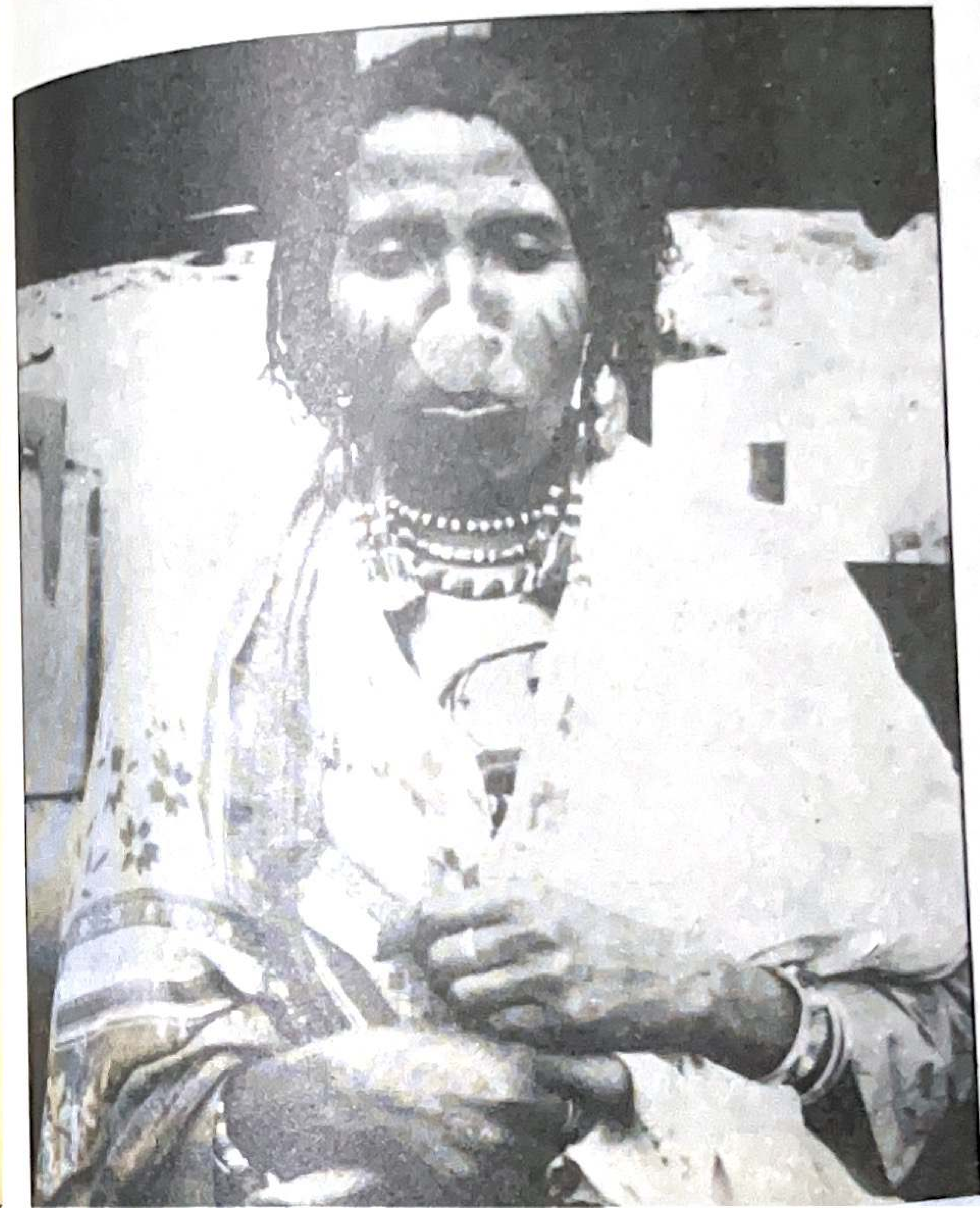
نماذج للحياة الاجتماعية للأهل فى حلايب.







تضفيـر الشعـر جـدائل صغـيرة أمـر صعـب يحـتاج للتعـاون بين النسـاء وفى الصـورة أمـرأة تضفـر شـعـر صـديقاتـها ....



تسـريحـة الشـعـر البجاويـة .

شيخه الزار.. فاطمة أرى فى زى روح الجالا تسكن شيخه الزار ....



فى حلايب فى سوق شلاتين يشربون القهوة العربى ولكنهم يطلبون مزيد من الرعاية ....

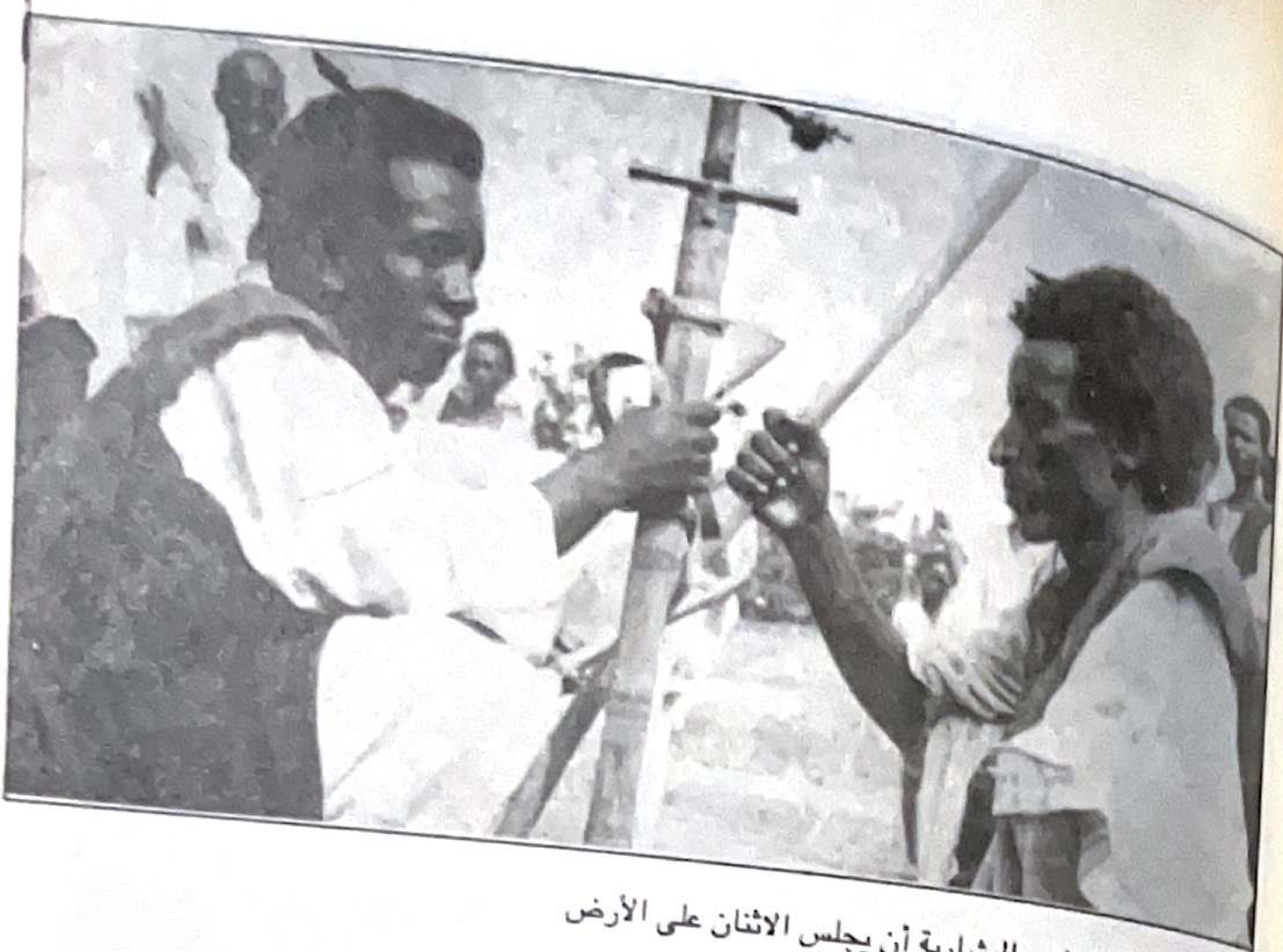


القهوة القربان الأساسى للأرواح فى الزار .....

صيد الصقور هواية أم احتراف لأهل حلايب ...



السوق الشعبى فى حلايب ....



من تقاليد القتال لدى البشارية أن يجلس الاثنان على الأرض ويلقـوا علـى بعض التحيـة بعـدهـا



نمـاذج من الطـبول التى تسـتخدم فى الرقص الشـعبى فى حـلايب .



السيف هو الرفيق الدائم لكل رجال الجبل فى حلايب ......

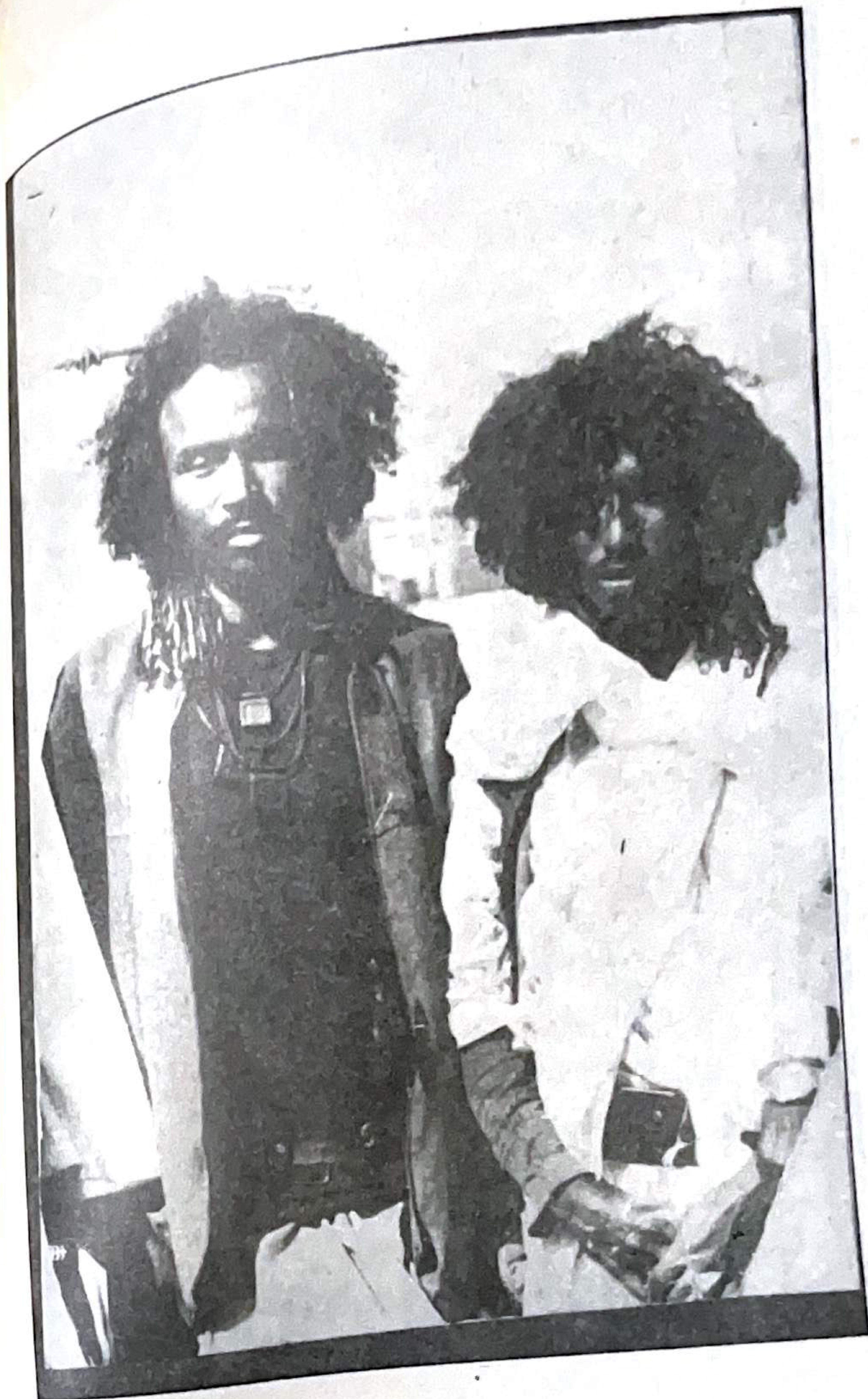
الصحراء الجرداء لا تحرم سكانها من خلق الجمال والاستمتاع به ...

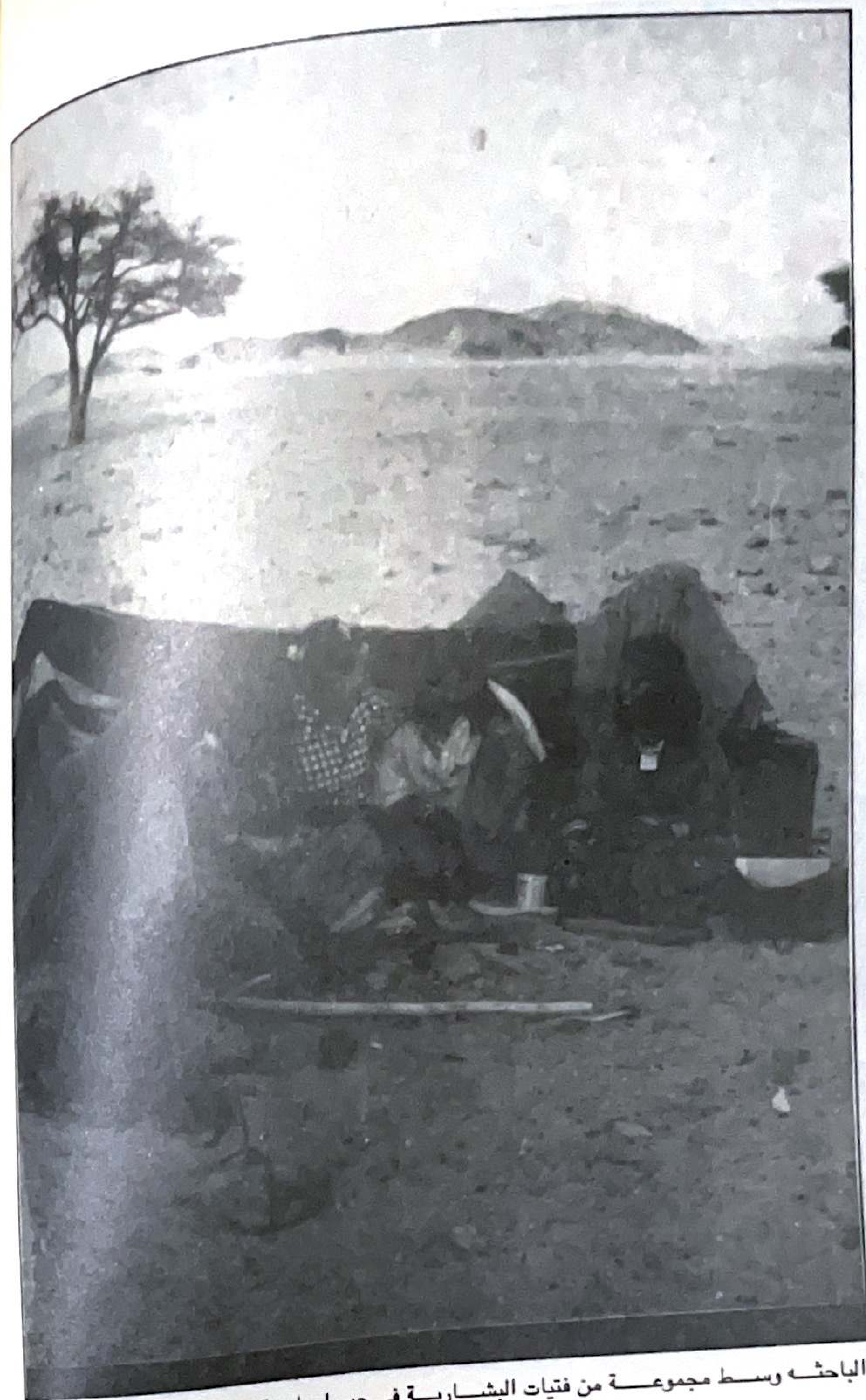
خرطة توضيحية تبين مناطق بعض القبائل بمنطقة حلايب ،

مثل : العبابدة، البشارية، المعازة ...

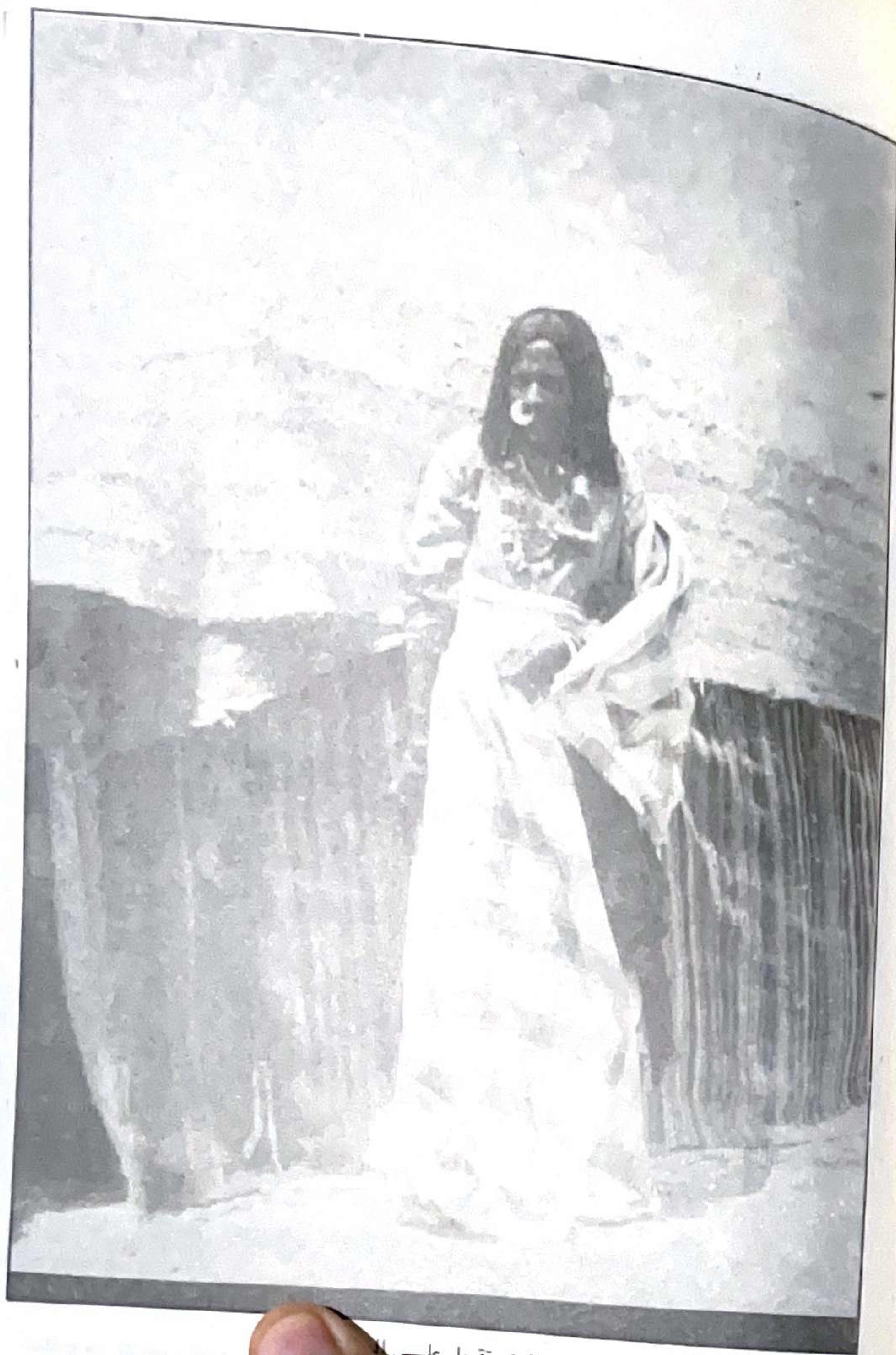


الرجل والمرأة من البشارية سكان حلايب …





الباحثـه وسـط مجموعـــة من فتيات البشـاريـة فى جبـل علـبة ...



المـرأة البجـاوية تتعطـر وتتـزين وتقبل علـى ال

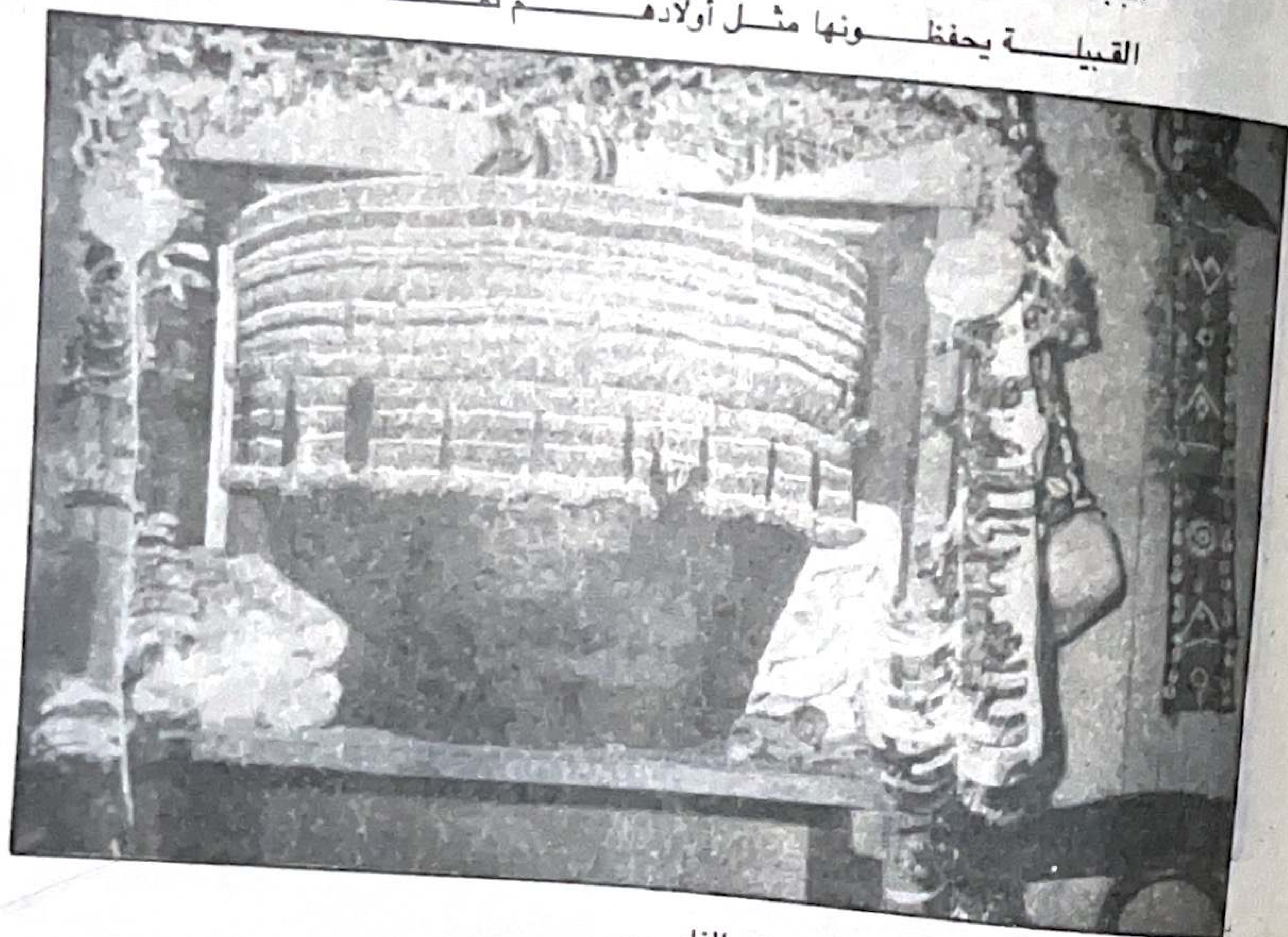




نماذج من الرقص الشعبى لأبناء حلايب ...



البجاوى مولع بالرقص.. وبالغناء.. والنحاسه هى شرف وكرامة القبيلة يحفظونها مثل أولادهم تماماً ...



الطبلة المقدسة تسكنها الأرواح وتدق فى الذار ....



بيت الزار وهو المكان المخصص لحفظ ارواح الزار ويذركش بالخرز والودع لاتقاء شر الأرواح....

وعشرين عاما وله من الابناء مايزيد على الخمسة والعشرين وانجبهم من تسع نساء.

وبعد أن عاد من الأراضى الحجازية تزوج من عائشة الزوجة العاشرة وهجر المدينة وجاء بزوجته الصبية الى «بئر نشت» موطنه الأصلى ليقضى بقية عمره بجوار أرواح أسلافه.

جلست إلى جدى نشرب الجبنة ونحكى أخبار السنين الماضية.. فقد مرت خمسة أعوام منذ رأيته أول مرة فى شمال السودان وقصصت عليه أخبارى وماصنعته بى الأيام التى قضيتها فى جبال كادقلى بغرب السودان وفى الشرق وداخل الحبشة وما خبأه لى القدر فى بلاد الرشايدة.

وحان وقت رحيل السائق منصور إلى حلايب.

واتفقت معه على أن يعود الىّ بعد أسبوعين.

وقام جدى العجوز واختار لى مكانا بعيدا عن منزل السيول لأقيم فيه خيمتى، وجمعت الحطب من الوداى وألقيت به فى المكان المحدد وأشعلت فيه النار بهدف تطهير الأرض من الزواحف المدفونة تحت الرمال وساعدنى منصور فى إقامة الخيمة ورحل عنى ثم أمضيت بقية الوقت لأرتب فيه حاجياتى على ضوء فانوس علقته فى سقف الخيمة.

وذهبت لكوخ جدى حسين والذى يبعد عنى بحوالى نصف ك.م .

فتلك عادات البدو لايقيمون أكواخهم ملتصقة، وقدمت له بعض الهدايا المتواضعة من الأطعمة والصابون وتناولت معهم القساء وعدت بخيمتى فقد كان يوما شاقا فى الحل والترحال.

هجوم الزواحف

افترشت مرتبة من الأسفنج وبعض البطاطين على أرض الكوخ وربطت باب الخيمة، وخلدت للنوم .. وسرعان ماأفقت من نومى وأنا فى حالة من الفزع ونظرت حولى يمينا ويسارا.

لاشىء.. حاولت أن اغط فى نومى ثانية.. ولكن ذهب النوم عنى، والخوف تملكنى ولكنه ليس من سبب ظاهر يدعو للخوف فلا احد خارج الكوخ حتى الهواء صمت اليوم فلا صوت للريح وإذا بشىء مابداخلى يدعونى للقيام من فوق المرتبة ويأمرنى برفعها.

وأطعت حاستى ورفعت المرتبة فإذا بعقرب كبيرة أسفلها أفزعنى شكلها فهى سوداء وكبيرة الحجم، وهذا النوع من العقارب يكون سمها مركزا وشديد الخطورة اسرعت إلى المبيد وسكبت بعضا منه عليها ولكنها لم تتأثر فقتلتها ثم حملتها على ورقة وألقيت بها خارج الكوخ.

واعتقدت اننى اصبحت فى مأمن فقد زال الخطر واخذت ارتب فراشى ثانية فابصرت عقربا تجرى أسفل وسادتى فقتلتها.

وعلا صوت ناقوس الخطر بداخلى، ومر الوقت وأنا واقفة لا أدرى ماذا افعل هل أخرج من الكوخ؟ ولو ذهبت لكوخ جدى فلن أستطيع النوم فيه. فتلك خيمتى النظيفة والمرتبة قد سكنتها العقارب فما بالى بخيمة جدى.

هل أخرج لأجلس على الجبل حتى الصباح؟

كيف والظلام حالك، فقد رحل عنا القمر وتركنا فى ظلمة شديدة .. لكن أبدا انا لن أستطيع البقاء داخل هذا الكوخ، لابد أن أخرج منه.

أسرعت لأرتدى حذائى.. انحنيت وتناولته من على الأرض وبدأت انفض عنه الرمل.. آه.. إنها عقرب وفى لمح البصر عبرت العقرب ذراعى واقتربت من صدرى.. انتفضت من على الأرض وسقطت العقرب لم أبحث عنها.. ومن شدة ذعرى وخوفى اندفع الدم فى كل جسمى وظللت فى شك هل لدغتنى العقـــرب أم لا؟ وأين لدغتها لا أعرف ، وعاد الدم وهرب من جسمى فانتابتنى حالة من البرودة الشديدة وأمسكت بكرسى من البلاستيك وضعته أسفل الفانوس وجلست عليه جلسة القرفصاء.. وأنا فى حالة من الرعب تعجز الكلمات عن وصفها وكلما غلبنى النعاس انتفضت مذعورة وكانت العقارب تتساقط علىّ من سقف الكوخ.. وعينى متعلقة بأرجل الكرسى خوفا من تسلق العقرب له.

وكان ما أنا فيه ليس بكاف فقد أنصت لصوت حركة صادرة من أسفل فرشة الخيمة انه صوت ثعبان الطريش، فجسمه مغطى بقشر يشبه السمك، وفى أثناء حركته يحدث صوتا نتيجة الاحتكاك كما أنه يصدر صوتا من فمه يشبه الصفير.. قلبى يكاد يتوقف من الرعب لا إنه توقف فعلا، حالة من الرعب والذهول وفقدان الوعى أفقت منها بعدما ابصرت ضوء الشمس، أسرعت خارج الكوخ حافية القدمين وأنا ألهث حتى وصلت لكوخ جدى حسين احتضنتنى عائشة وخرج العجوز ليبصر مَنْ حول الكوخ ولكن لاأنس ولاجن بالمنطقة.. انتظر حتى هدأت نفسى وسمع قصتى.. قصة أسود ليلة فى حياتى بالصحراء.

والغريب أننى وجدت على وجهه ابتسامة وقال لى «بلغته مامعناه»:أننى فتاة المدينة التى ولدت وعاشت فى البيوت المسلحة التى تحميها من كل الشرور وأنى مهما عشت بالصحراء فإننى فاقدة للقدرة على التكيف معها ومع ظروفها وزواحفها. وأطلعنى على السر وراء هجوم الجبابرة «العقارب والثعابين» وهو أننى لم أكنس الأرض بعد ان حرقتها، فالزواحف تنتقل إلى المناطق التى بها قتلى منهم. وتهتدى إليها بالرائحة وأدركت السبب الذى من أجله ينقل البدو الثعابين والعقارب من الأماكن التى قتلت فيها إلى أماكن بعيدة عنها حتى يضللوا الأحياء منها.

فلسفة البدو

سألت جدى عما يمكنه فعله فاقترح علىّ أن «اربط لسيدى الرفاعى» ولكنى لم أفهم ماذا يقصد فأعدت عليه السؤال ثانية، فأوضح لى أن أتناول قطعة من ملابسى وأربطها على مبلغ من المال وأعلقها فى سقف الكوخ وفى اليوم التالى أفكها وأعطى المال لأى إنسان يمر علىّ وأقول له «كرامة الرفاعى لصرف الإخوان» وعلى الرغم من أننى لم أفهم المقصود بهذا السلوك وغير مقتنعة به إلا أننى نفذت ما أمرنى به فليس لى حيلة إلا الإحتكام لفلسفة البدو وذلك بعد أن نفضت الخيمة وأعدت إقامتها فى مكان آخر تمتاز تربته بالصخور الجرانيتيه وهى نادرا ماتحوى الثعابين.

والشىء الذى يدعو للوقوف عند فلسفة البدو والتأمل فيها كثيرا أننى امضيت أسبوعين فى خيمتى بعد كرامة الرفاعى آمنة ولم اشاهد فيها أى شىء.

عن مصر

والتقيت ببعض الرشايدة فوق البئر وتبادلنا الزيارات يوما فى خيمتى ويوما عندهم وحوارنا يدور حول مصر.. عن أم الدنيا.. بلد المدينة والحضارة يتحدثون عنها بشوق يحمل فى طياته الأمانى برؤيتها وزيارتها والعيش فى ربوعها .

وطلبوا منى أن أساعدهم فى الحصول على بطاقات مصرية حتى يتسنى لهم العيش بين أهلها ويدفعهم لهذا ماشاهدوه فى الشلاتين وأبو رماد وحلايب، فالحكومة المصرية موجودة بكل وزاراتها وهيئاتها وتعمل بشتى الطرق على تنمية المنطقة وتمد بدو العبابدة والبشارية بالمعونات الغذائية والطبية والملابس بالإضافة إلى مظاهر المدنية التى حلت على المنطقة وتظهر فى المساكن والمدارس والمياه النقية التى تتحمل الدولة نفقات كبيرة لتتمكن من توصيلها للبدو حيث تحمل المراكب بالمياه النقية من سفاجا، وتتحرك بحرا فى اتجاه الجنوب ويتم تفريغها من «تنكات» وتستخدم السيارات فى توزيعها على البدو فى أماكن تجمعاتهم ولكنى أخبرتهم بأننى لاأملك من الأمر شيئا ولكنه لامانع من طرح الأمر على المسئولين .

افراح شديدة

وجاءتنى «دونا» يوما لتدعونى إلى حفل خطبتها. فهى التى اختارت «عبد الله» ليشاركها حياتها فالتقاليد لدى الرشايدة تعطى المرأة كامل الحرية فى اختيار شريك حياتها وتقضى بأن من حق الفتاة أن تشتكى والدها إذا مااعترض على اختيارها أو رفضه كما تبيح التقاليد حرية الاختلاط بين الجنسين وتجدر الإشارة إلى أن المرأة الرشيدية تخرج للتجارة مثل الرجل تماما.

وهى التى تستقبل الضيوف وترحب بهم وتتميز بالروح القيادية، ويوجد لدى الرشايدة فترة الخطبة كإحدى خطوات الزواج مثل النظام القائم فى المدن والقرى وذلك على العكس من بدو العبابدة والبشارية ومن تقاليدهم أن يترك الأب الكوخ إذا ماجاء خطيب ابنته حتى لايقيد من حريتها.

ويقيم الرشايدة خيامهم على ارتفاع كبير ومفتوحة من احد الجانبين بينما خيام

البشارية لايزيد ارتفاعها على متر ونصف المتر ومعقولة تماما وشكلها دائر ولها باب صغير تدخل منه وانت زاحف على ركبتيك ولكن لظروف العرس فإن كوخ «دونا» مغلق تماما حتى تنتهى من زينتها وهى ترتدى تنورة من القماش الاسود المزركش باللون الأحمر وعلى رأسها خمار كبير يغطى الرأس والجزء الأعلى من الصدر والجذع معا ، وتغطى وجهها ببرقع مشغول كله بالفضة وثمنه غال جدا ووزنه ايضا ثقيل وتتدلى على جبهتها «قُصَّة». وأغرب مافى معتقدات الرشايدة ان فم المرأة عورة وظهوره خطيئة لاتغتفر ويبيح القانون العرفى لديهم قتل المرأة التى تكشف عن فمها وعلمت ان «دونا» لها أخت قتلت بعد ان لجأت لطبيب الاسنان بمدينة كسلا والمرأة الرشيدية تبدو شديدة الشراسة إذا مااقترب منها أحد محاولا كشف البرقع عن فمها.

فى الظهيرة تنحر الذبائح ويقدم واجب الضيافة وصوانى الشاى والقهوة تدور على المدعوين لاتتوقف والجميع ممسكون بزجاجات العطور ويسكبونها على الضيوف .

ومع الغروب دقت الدفوف والطبول وعددهم سبعة ، واصطف الرجال يصفقون ونزلت النساء لحلبة الرقص يحملن السيوف والعصى يمثلن الحرب وحركات الهجوم والدفاع فالمرأة الرشيدية مقاتلة من الطراز الأول مثلها مثل البجاوى تعشق القتال وتقود الجيوش ومن أشهر البطلات فى نساء الرشايدة «ليلى مريعص» والتى قادت الحرب ضد قبيلة الشكرية فى سهل البطانة.

بعد صلاة العشاء خرجت «دونا» حاملة للسيف والعصا واخذت ترقص وتبارز خطيبها «عبد الله» واستمرت المعركة الوهمية وقتا طويلا أظهر فيها كل منهما براعته الفائقة فى فنون الحرب وقام الشيخ سلمان ليعلن نبأ خطبة ابنته دونا على عبد الله. وعلى الفور تظاهرت العروس بالاستيحاء وجرت مسرعة إلى كوخها وتحرك ركب من النساء يتوسطهن العريس وهو يحمل الهدايا التى اشتراها لأجل عروسه من الذهب والفضة والملابس ووسط زغاريد النساء وغنائهن يقدم العريس هداياه. وعلى الرغم أن دونا تعرف عبد الله وتلتقى به بمفردها إلا انه لايرى فمها

إلا يوم الزفاف ومهما طالت فترة الخطبة فإنها دائما حريصة على شرفها ودائما تلتحف بالبرقع.

حينما اعتقدوا أننى حفيدة السيد البدوى

مضت عشر سنوات قضيتها فى الحل والترحال فى دروب الصحروات بمصر والسودان قابلت فيها الآلاف من البشر، كانت الدهشة تباغت وجوههم ومازالت، وكان السؤال يتردد ومازال.. ما الذى يدفع بك الى الصحراء؟

وكأن دافع العلم ليس كافيا لخوض بحر المجهول والبحث فى أسراره ؟ ... فالكون كله مجموعة من الكلمات تؤلف قصيدة رائعة نظمها الرحمن وأبدع فيها ، وماجهود العلماء فى شتى العلوم الكونية والطبيعية والإنسانية إلا محاولة لكشف مكنون الكلمات لتصل يوما البشرية بتضافر الجهود العلمية إلى فهم هذه القصيدة والتغنى بها.

فهل دهشتهم نابعة من اندفاعى وراء العلم؟

لا أعتقد فعلى الرغم من غلبة القيم المادية وسيطرتها على القيم الروحية والعلمية إلا أن ارض مصر مليئة بالكثيرين ممن يعملون على نصرة قيم المعرفة ، والمعبرة عن قيم الخير والحق والعدل ..

إذن فالدهشة تكمن فى أن الباحثة «فتاة»!

وما المانع وقد كانت أول رسالة من السماء تكلف الانسان بالبحث وأوصته بالعلم الإنسان على اطلاقه ولم يختص بها الرجل دون المرأة أو الغنى دون الفقير ولا السيد دون العبد بل هو تكليف لكل البشر فى مشارق الأرض ومغاربها هو فرض مثله مثل الصوم و الحج وعلماء المسلمين الأوائل فهموا رسالة السماء وعملوا بها فأبدعوا وقدموا للعالم فكرا عظيما ساهم بجهد كبير فى الحضارة الغربية التى نحن بصددها اليوم ولكنهم كانوا فى زمن ونحن الآن فى زمن آخر، زمن يجعلنى أقول: ياليتنى جئت فى الزمن الماضى.

فدائما مأستقبل شكوك الناس فى دافعى للصحراء وأجيب عن سؤالهم بصدر رحب فحب الحقيقة غريزة فى الإنسان مثلها مثل غريزة الطعام تدفع بالإنسان لالتماسها ووسيلته إليها البحث والتنقيب.

فى زيارتى الأخيرة للشلاتين سمعت السؤال ثانية وأجيب عليه كالعادة ولكن سائلى قدم إلىّ النصيحة التى لم أسمعها طوال السنين الماضية فقال لى: «افضل لك ان تتركى البحوث والكلام ده وتروحى تحجي» والنصيحة خطيرة تكشف عن فكر أخطر فسائلى ليس برجل هين فهو برتبة عميد فى الجيش المصرى ولكنه مثل كثيرين آخرين لايرى إلا بابا واحدا ضيقا لدخول الجنة وهو باب الصلاة والحج ونسى أن البوابة الرئيسية لدخول الجنة هى بوابة العلم والعمل وتناسى أن العمل صلاة والبحث الجاد صلاة والفكر والإبداع صلاة وكل مايضعه الانسان بجد واخلاص هو صلة تربطه وتقربه من مالك الكون وصاحب الجنة والنار.

سائلى نسى الكثير والكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحفز على طريق العلم ومنها آية: «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا» فتلك مشيئته فى أن نختلف فى الشكل واللون واللغة والفكر والدين والعادات والتقاليد وعلينا ان نبحث فى سر الاختلاف وان نكشف القوانين العلمية التى تحكم الاختلاف وأتذكر دعاء سيدى ابى الحسن الشاذلى رائد التصوف الإسلامى وهو يناجى ربه سائلا أن يفيض عليه من «الأسرار الجبروتية والأنوار الرحمانية» ويقصد بالأسرار القوانين العلمية التى تحكم كل المظاهر الكونية ووصفها بالجبروتية لأنها قاهرة وحاكمة تسرى على كل المخلوقات، والأنوار هى الحب الذى يجمع بين البشر وبينهم وبين الكون وخالقه .

وإننى أعتذر لسيادة العميد .. فلن أعمل بنصيحته ولن أعلن التوبة عن الخطيئة، وخطيئتى كما يراها سيادته هى حب البحث فلن أكف عن بذل المال والعمر فى سبيله.. وسوف أواصل العمل وكلى أمل فى الاستفادة منها فى تنمية المنطقة.

وتلك لم تكن المرة الأولى التى ألتقى فيها بهذا الفكر فقد التقيت به كثيرا ومع الأسف يحمله أناس يتولون مراكز عالية فى بلادنا ويظهرون للعامة بغير ما يبطنون

يرفعون الشعارات البراقة ، ولكن فعلهم رجعى متخلف ولى معهم خبرات سيئة محفورة بذاكرتى وسجلتها بقلمى سوف تقرأونها فى هذا الكتاب وماحديثى إليكم الآن إلا نوع من «الفضفضة» بعد ان فاض بى الكيل .

حليمة قتلها الوحش

واقبلوا دعوتى لزيارة الوادى المنحدر بين جبلين جبل «جرور» فى الشمال وجبل «ماتيب» فى الجنوب وهما على الخط نفسه مع مدينة حلايب وعلى بعد ١٥٠ كم فى اتجاه الغرب والوادى الذى يعزف غنوة الحب اسمه «بداوى» به تكثر أشجار السنط والهجليج وتغطى أرضه الخضرة الكثيفة وفى حضنه ترعى الأرانب البرية وأشجاره تحنو على أسرة بشارية ، آدم وولداه عيسى وأبال بعد ان فقدوا الظل الحنون والدتهم.. فقد قتلها الوحش ففى صباح يوم ليس ببعيد خرجت حليمة لتجمع الحطب من الوادى البعيد.. والوقت يمر وحليمة لاتعود ذهب عيسى يبحث عن أمه ، يجوب الوديان القريبة والبعيدة وأخيرا وجدها ملقاة فى جوار كومة من القش أسرع إليها ولكنها كانت صامتة لاتتكلم فتش عيسى عن قاتل أمه يمينا ويسارا وفجأة وجده داخل ملابسها انقض عليه والغيظ ياكله وبعصاه «فعصه» وقال له: «ياككر اقتلك كما قتلت أمى » والككر هو ثعبان الطريش ورغم صغر حجمه إلا أن لدغته تودى بحياة الإنسان خاصة إذا كانت لدغته فى مكان شريان رئيسى ومن يومها وعيسى يجلس ليعزف على الناى ويغنى معزوفة «هورى» أو حورس بلغة الفراعنة فينادى على الحبيبة الغائبة التى رحلت مع الشمس ويناشدها العودة لتضىء له حياته من جديد، والناى لدى البشارية يسمى «انبيلهويت» يعزفون عليه الكثير من ألحان الشجن وأشهرها معزوفة «حورس» التى عزفتها إيزيس فى رحلتها للبحث عن أوزوريس ورثها البجا ضمن ميراث كبير من الفكر والطقوس الفرعونية.

آدم وزوجـاته

بدو الصحراء لايبدون جزعهم من الموت ويعلنون رضـاءهم بالقضـاء والقدر ولكنهم مثل كل البشر يتسلل إلى نفوسهم الحزن على فراق الأحباب ، وعيسى

مازال صغيرا فلم يتعد عمره الثمانى سنوات وكان مرتبطا بأمه كثيرا فلم ير والده إلا مرات معدودة «فآدم» فقير لايملك مالا «الإبل والضان والأغنام تسمى مالا» ولكنه يعمل أجيرا لدى أصحاب المال. يأخذها ليرعى بها فى دروب الصحراء ، أكل العيش يدفعه لأرض الحبشة ليعود لولديه برزق السماء من الطعام وبعض أمتار القماش ليلتحفوا بها وتقيهم برد الشتاء وشمس الصيف ولكن سند آدم ورفيقته فى الحياة قد رحلت. وعليه أن يمكث بجوار ولديه ولكن كيف والسماء لاتمطر الدقيق والسكر وفكر آدم ان يحمل ولديه لزوجته الثانية والتى تقيم بطوكر فمن عادة البدو خاصة الذين فى ظروف آدم ان يتزوجوا أكثر من واحدة على أن تكون كل واحدة منهن فى منطقة حتى يسكن إليهن فى سفرياته واذكر منهم حسين أبو رجب الذى تزوج من عبادية وأسكنها وادى شواب وأخرى من البشارية فى شنديب وثالثة فى حى ديم العرب ببورسودان ورابعة من قبيلة بنى عامر بمدينة كرن بالحبشة وقد حضرت حفل زواجه من «روينا» العبادية وكنت محاورة له وعاتبة عليه لكثرة الزوجات وذلك من خلال فكر وثقافة ابنة المدينة ولكنه كشف لى حقيقة الأمر وقد اقتنعت بها فلو ألقينا بنظرة على الخريطة لو جدناه ينطلق من الشمال إلى الجنوب فى رحلاته وقد جعل فى كل منطقة مسكنا يأوى إليه فى رحلاته الرعوية وذلك فى حدود ماأحله له الشرع والدين واعجبت وعجبت من الإنسان البجاوى الذى رغم الظروف الصعبة التى يحياها إلا انه استطاع تحقيق التوافق والانسجام معها وحل كل مشكلاته من خلال ثقافته، وفكره اللذين لهما عمق الحضارة الإنسانية .

فلسفة البجاوى العميقة

ولكن آدم عاد ثانية ليرفض فكرة هجرة الوطن الذى انحدر منه وعيسى أيضا لن يبرح قبر أمه وفكر فى أن يتزوج من امرأة اخرى تحفظ عليه أولاده وحقه فى موطنه وكم استمتعت بصحبة «عيسى» صديقى الصغير نلعب معا ونتسابق فى الصعود إلى قمة جبل «ماتيب» ونتسلى بلعبة «السيجة» واندهش عيسى حينما علم اننا نلعب مثله لعبته «الشطرنج» ووعدته أن اهديه واحدة وأعلمه عليها. ليتفوق على أقرانه فى لعبة الملوك، وكم طربت وأنا استمع إليه وهو يعزف على الناى ، ويسألنى

عيسى وهو يستمع إلى أم كلثوم فالكاسيت لايفارقنى أبدا ولا أدعه يصمت فهو مؤنس فى وحدتى. ماذا تقول؟ هل تنادى على حبيبها؟ نعم تقول «درليلى ترشالة شبى تبتيك انا دور هواد كواس إيربه توين تمين تمنهال» فهو معنى «من أجل عينيك عشقت الهوى بعد زمان ذقت فيها الجوى» وظل عيسى يستمع إلى الأغنية والبسمة لاتفارق شفتيه وهو يحاول ترديدها والتغنى بها، واللغة البجاوية ثرية تفرق بين كلمة أحب وكلمة أريد أو افضل فنحن فى كلامنا نطلق كلمة أحب على كل شىء معنوى أو مادى فنقول أحب البطيخ وأحب العصفور وأحب القراءة وأحب فلانا، ولكن البجا تخص الماديات بمصطلح والمعنويات بآخر وحينما يأتى للتعبير عن عاطفة الحب والتى تسمى «أورير» نجده يقول «روحى» تهوى روحك» وكأنه فطن إلى الحقيقة فليس مع الحب اختيار، ولأنه من خصائص الروح فهو غير خاضع للإرادة .. فلسفة عميقة فهمها البجاوى منذ زمن بعيد وعيها وتعامل معها وتلك زوجة بشارية كانت راحلة مع زوجها هى فوق الجمل وزوجها ممسك باللجام وفى الطريق انحرفت الناقة عن طريقها فخاطبها الزوج قائلا : «السكة ابتقامة تى كاموهاى انينوك» يرجو ناقته أن تعدل عن الطريق الذى تسير فيه ولكن الزوجة مدركة للحقيقة فللزوج حبيبة تسكن الوادى الذى ذهبت إليه الناقة وهو يطلب من ناقته ان تعدل عن طريقها لكى لاينكشف أمره ولكن الزوجة تأمر الناقة أن تستمر فى طريقها ليلتقى الحبيبان فالحب قدر لايملكه الإنسان وحرام عليها ان تفرق بينهما..

شىء يدعو إلى الدهشة رعاة ينتشرون داخل الجبال يتوهم بعض الناس أنهم يحيون بلا نظام ولامنطق ولكن واقعهم يقول بأنهم حققوا درجة عالية من النضج العاطفى، فهل توجد فى الشرق امرأة تتنازل عن زوجها لحبيبته بسلام وفى سلام؟! هذا سر عشقى لشعب البجا وقد يفسر ارتباطى الشديد بالمجتمعات البسيطة التى أرى انها حققت توازنا وانسجاما نفسيا مع البيئتين المادية والجغرافية .

الشيخ المجذوب

وبمناسبة وادى «بداوى» والتشابه بين اسم والدى واسم الوادى اتذكر قصة حدثت لى بقرية «كادابس» غرب مدينة الدامر بشمال السودان، فقد عبرت بالوابور

إلى البر الغربى للنيل حيث يسكن الشيخ المجذوب وهو من أحفاد مؤسسى الطريقة المجذوبية «إحدى الطرق الصوفية المنتشرة بالسودان» واخترقت أنا واصدقائى من الأجانب الذين يعملون فى مشروع للزراعة والتنمية فى الدامر، المزارع حتى وصلنا إلى دار كبيرة استقبلنا الرجال على بابها وتقدموا أمامنا إلى ساحة كبيرة تتوسطها كنبة وعليها يجلس الشيخ المجذوب وأمامه فرشة كبيرة ويجلس إليه مجموعة من الأتباع والزوار.

خلع أصدقائى أحذيتهم ووصلوا إلى مقام الشيخ وانحنوا عليه وقبلوا يديه احتراما له وتقليدا لما يفعل الآخرون وتسمرت أنا فى مكانى ولم أتقدم للشيخ فنظر إلىّ نظرة حادة وقال لى: «تعالى يامصرية» واضطررت أن اتحمل عناء خلع حذائى الذى تصل رقبته حتى ركبتى وذهبت وسلمت عليه ولكنى لم أقبل يده فقال «هما علموكى كده فى مصر» ولكنى لم أعلق ولم افتح حوارا معه.

ونادى الشيخ على أحد أتباعه الذى تقدمنا فى الطريق لمشاهدة الساحة «الساحة نظام اسلامى انتشر فى العصور الأولى للحضارة الإسلامية وهو يشبه التكية يوفر المأوى والمأكل للطلبة والقائمين على طلب العلم وتضطرهم الظروف لهجرة أسرهم والسفر بعيدا وايضا تضم الفقراء والمرضى والمساكين» وفى ركن مظلم من إحدى الغرف وقعت عيناى على سيدة فى العشرينات من عمرها حولها المرض إلى شبح هزيل ضعيف البنية تقدمت إليها لأسلم عليها وأقدم لها بعض الحلوى ، وسألتنى عن اسمى وفور ان قلت لها «منى بدوى» ألقت بنفسها عليّ وتعلقت برقبتى وأخذت تمطرنى بالقبلات على رأسى ووجهى ويدى.

تسمر أصدقائى فى الأرض والدهشة ناطقة من نظراتهم أما أنا فأخذنى الذهـول .

وحاولت أن افسر الأمر فهناك احتمال أن يكون لها ابنة غائبة او مفقودة او متوفية تشبهنى او اسمها على اسمى وأخذت السيدة تتحرك كثيرا فى أرجاء الحجرة باحثة عن حقيبتها حتى وجدتها، قديمة متهالكة من جلد الغنم ودفعت بيدها

فى داخلها تفتش وتبحث حتى أخرجت قماشة سوداء فتحتها وأمسكت بخلخال وخاتم وسوار من الفضة القديمة جدا ونقوشها مطموسة من أثر القدم، ووضعتها فى يدى ولم تمهلنى للسؤال ولكنها جذبتنى وراءها خارج الغرفة وبعيدا ..... حتى عشة من الصفيح دخلت إليها وأمسكت بعنزة وصغيرها وربطتهما فى حبل وقدمتها إلىّ..

ولابد من سؤالها لماذا؟

ويالها من مفاجأة..

فتلك السيدة مريضة منذ زمن وقد اشار عليها «الفلكى» طبيب الصحراء أن تخرج الكرامة لـ «السيد البدوى» فتنال الشفاء.

ولكن ماهو سبيلها إليه. فالمسافة بعيدة والسفر يحتاج إلي مال ودليل، ولكن الله أذن لها بالشفاء فقد أرسل إليها بواحدة من آل بيت العارف بالله «السيد البدوى» شيخ العرب قاسم بدوى فالاسم غير منتشر بين الرعاة ولايعرفونه إلا من خلال شيخ العرب ولذلك اعتقدت اننى مبعوثة العناية الإلهية لها وفشلت كل محاولاتى معها لشرح الأمر وتفسيره وأمام رجائها ودموعها أخذت الكرامة ورحلت.

ذهبت إلى الشيخ العجوز أساله الإرشاد والنصح ولكنه زاد المشكلة تعقيدا بقوله إن تلك أمانة ولابد ان أؤديها إلى أصحابها.

هذا صحيح ولكن ماسبيلى لذلك فرحلتى طويلة ومازالت هناك أشهر أقضيها فى شرق السودان وحتى لو حفظت الأمانة طوال وجودى بالسودان فكيف أسافر بالطائرة وأنا أحمل عنزتين؟

زادت حيرتى وسألت الله الهدى واحتفظت بالأمانة طوال فترة وجودى بشمال السودان وقبل رحيلى للخرطوم ذبحتها وقمت بنفسى بإعداد وليمة كبيرة دعوت لها كل المجاورين لى والأصحـــاب وتوجهت بالدعوة بالدعاء لله أن يشفيها ويقبل هديتها.

٦

فى حميثرة عند قبر سيدى أبى الحسن الشاذلى !!

فى الصحراء ومن وراء القلاع العيون ترقب الغريب القادم من شتى البقاع تطول مراقبته وتكثر الأسئلة حوله وبعد الاطمئنان إليه يحصل على الإقامة الآمنة وأصعب سؤال يوجه إليك.. من هو شيخك وماهى طريقتك ؟

فى البداية كنت أجهل الكثير عن عالم الطرق الصوفية.. عالم كبير وغريب وكانت أجابتى «انا مسلمة» ويبدو أنها ليست كافية وتحتاج لمزيد من التحديد والتخصيص واخذت «مكية» تنظر إلىّ بعين الحذر والدهشة والسؤال يصرخ من فوق شفتيها.. ماتلك الفتاة التى تدعى الإسلام وليس لها طريقا ولاشيخا تتبعه؟

وأضحى الموقف حرجا فثقافة مكية لاتسمح لى بالحوار معها ومحاولة إقناعها بأننى مسلمة.. أنهل من النبع الصافى الأصلى للإسلام وليس بى حاجة لالتماس الطرق.

آه تذكرت فجأة اننى حصلت على عهد الطريقة الشاذلية فى وقفة عرفات من عام ٨٥ وكنت بجوار سيدى أبى الحسن الشاذلى لحضور مولده بهدف العلم والبحث وليس بهدف المشاركة فى المولد وكانت الظروف التى أحاطت بأخذى للعهد غريبة دعتنى للدهشة والاستغراب ومازالت دهشتى قائمة حتى بعد رحيل شيخى وانتقاله إلى رحمة الله.

سيدى أبو الحسن الشاذلى القابع فى وادى حميثرة داخل صحراء عيذاب هو على بن عبد الله بن عبد الجبار وينتهى نسبه إلى سيدنا الحسن بن على ابن ابى طالب كرم الله وجهه ولد ببلاد المغرب عام ٥٩٥ هـ بقرية «غمارة» بالمغرب ودرس العلوم الطبيعية والكيمائية وتتلمذ على يد العارف باله الولى «عبد السلام بن مشيش» فى العلوم الدينية .

وكان دائما يمر بالأراضى المصرية قبل استقراره بها ويخوض صحراء عيذاب ليصل لميناء حلايب ويعبر البحر حتى يصل الى الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج. وفى عام ٦٥٦ هـ وافته المنية فى حميثرة وقام على دفنه تلميذه وزوج ابنته سيدى ابو العباس المرسى ويعتبر الشاذلى إمام المتصوفين الذى صحح مسار التصوف وأعاده إلى طريقه الصحيح المرتبط بالقرآن والسنة والعلم، وأعتبر سيدى ابى الحسن الشاذلى الجهل من الكبائر التى لابد أن يسعى المسلم إلى التخلص منها ويتوب إلى الله باتخاذ أسباب العلم وحفز أتباعه على الولوج إلى عالم الحقيقة من مدخل العلوم الطبيعية والدينية .

وقد قمت بزيارته من قبل عدة مرات ولكنى حرصت على زيارته أثناء المولد حتى أتعرف على تأثير حركة المولد ووجود عدد ضخم من سكان مصر بالصحراء وتأثيرهم على بدو العبابدة.

إنتقلت من إدفو إلى سيدى سالم فى سيارة نقل تحمل معدات تابعة لشركة علام القائمة على رصف الطريق الموصل للشاذلى. وهناك انتظرت طويلا حتى اكرمنى الله بسيارة لنقل المياه فى طريقها للشيخ .

وصلت السيارة لمقرها فى حين همت الشمس بالرحيل وأبصرت جبل حميثرة فوجدته مغطى بالبياض واندهشت.. فمن أين أتت تلك الطيور البيضاء والجبال خالية منها ولايسكنها إلا الغربان السود .

ماذا قالوا عن أمى وأخى ؟

وأقتربت من الجبل وتحققت من الغطاء الأبيض، إنهم ليسوا طيورا بل أناسا اعتلت الجبل ليناشدوا الرحمن ليقبل دعاءهم ويجيب رجاءهم..

المكان مزدحم بالناس والوادى مكدس بالسيارات النقل الكبيرة التى جلبت من كل بقاع مصر والمغرب أيضا.. جاء الأتباع والمريدون والمحبون للشاذلى ليحتفلوا بمولده وجاء أيضا التجار والباعة فهذا مولد وباب للرزق والبيع والشراء كننت منبهرة فتلك أول مرة فى حياتى أرى فيها مولدا وبصعوبة كنت أجد موضعا لقدمى

والخيام كثيرة ومنتشرة تلك لأتباع الرفاعية.. وتلك لأتباع الإدريسية؟ واخرى القادرية ورابعة للبرهانية وخامسة للمجذوبية.. والميكروفونات أصواتها تجلجل فى السماء فهنا شيخ يقرأ القرآن، وهناك أخر ينشد ويمدح، وحلقات الذكر منصوبة فى كل مكان.

وأنا أجوب الوادى ملاحظة الناس ومندهشة ومسائلة مااللذى دفع بهؤلاء البشر ليأتوا من القرى والمدن إلى الصحراء الجافة العطشى؟

وأحدث نفسى : لابد أن تعمل الحكومة جاهدة على منع الموالد فما هى إلا مناسبات تهدر فيها الأموال وتشتت فيها الجهود!!

انتبهت من حوار نفسى على صوت ينادينى فأبصرته هو شيخ طاعن فى السن ويرتدى جلبابا ابيض مد يده ليصافحنى وقال لى:

«أنت زعلانة وعاوزة الحكومة تمنع الموالد ، مش هاتقدر تمنعها».

وابتسم الرجل ابتسامة يترفق فيها بى وسألنى «أمك سافرت بالسلامة؟ فأجبته نعم وعاود سؤالى «واخوكى لسه مريض» ؟ نظرت إليه دون إجابة ، من هذا الرجل الذى اطلع على فكرى وكيف عرف ان والدتى سافرت لتؤدى فريضة الحج وأن اخى مريض؟!.

الرجل يضحك وأنا صامتة هو لايسخر منى ولكنه يضحك مما يدور برأسى وقال لى «هو فيه حاجة بعيدة عن ربنا»

جذبنى الرجل من يدى لندخل إلى ساحة السيدة: زكية عبد المطلب بدوى وهى من نسل سيدنا الحسين وامضت حياتها فى حب الله وعملت لأجله وجهزت ساحة بجوار سيدنا الحسين بحى الطبلاوى وأخرى بجوار سيدى ابى الحسن الشاذلى لترعى فيهما الزوار والمريدين وطلاب العلم والمرضى والفقراء تقدم لهم المأوى والملبس والمأكل وتيسر لهم سبل العلم والعلاج وكانت دائما تسعى لزيارة رائدها فى المسيرة سيدى الشاذلى وتتحمل فى طريقها الصعاب، فى الستينات والسبعينات من هذا العصر حينما كانت المنطقة مهجورة، ومنسية من فوق خريطة البحر الأحمر

وكان لوجودها بالمنطقة أثر كبير فى تطوير البدو وتنميتهم وانتقلت لجوار ربها عام ١٩٨٢ ودفنت إلى جوار شيخها بوادى حميثرة .

نفذت الأوامر

دخلنا الساحة وفى الحوش افترش الرجال الأرض والتفوا حول شيخ لهم واقتربنا منه وبعد السلام قال له الشيخ المسك بيدى واسمه «ابراهيم الجحش» «أهى منى جت يلا قوم بالمهمة» فرد عليه الشيخ على السلامونى «خليها تغير هدومها وتلبس جلبية واسعة وتتوضا» وأمرنى الشيخ ابراهيم بتنفيذ الأوامر ورغم الغموض الذى يحيط بهؤلاء الناس وماسمعته إلا أننى نفذت الأوامر بعد ان ترددت عدة مرات ولكنى وجدت أن طاعتى لهم لن تؤذينى فى شيء ولكنها ستساعدنى على أن أفهم وأعرف.

عدت اليهم فأمرنى الشيخ ابراهيم بالجلوس امام الشيخ علىّ وأمسك الثانى بيدى وأخذ يقول أدعية ووصايا وأنا أرددها وراءه ثم ختمها بقراءة الفاتحة وانطلق الرجال يقدمون لى التهنئة ومر بخاطرى اننى امام مجموعة من المجاذيب أو المجانين وكانت دهشتى حينما علمت ان كل المحيطين بى من ضباط الجيش والشرطة وهم من مريدى الشاذلى وبعد السؤال علمت أننى حصلت على عهد الطريقة الشاذلية وبسذاجة غريبة قلت للشيخ ابراهيم «اعمل بيه ايه» وضحك الرجل وكل المحيطين بى وربت على كتفى وهى إشارة للانتظار وبعد أن انتصف الليل وخفت الزحمة تحرك الركب وأنا معهم الى مقام سيدى ابى الحسن الشاذلى .

وكانت نقلة جديدة فى حياتى نقلة إلى عالم الحقيقة ومن وراء هذا العالم حشد ضخم من المجاذيب من هم.. وماسرهم وماهى الحقيقة؟!

وطوال فترة وجودى بالمنطقة كنت حريصة على حضور حوارات المتصوفين وأختزن فى عقلى كل ماأسمعه وأعيده على مسامع ابويا ابراهيم.. وكان شرحه لى دائما بالإشارة الموجزة وظللت ألح على شيخى ليبوح لى بالسر وراء اهتمامه بحصولى على عهد الطريقة الشاذلية على الرغم من جهلى به وعدم طلبى له؟

ولم أعرفه إلا بعد عام التقيت فيه كثيرا بشيخى وزارنى فى بيتى كثيرا واشرف على علاج أخى المريض وجاء السر بأن الشيخ رحمه الله عليه نفذ أمرا صدر إليه من سيدى ابى الحسن الشاذلى الذى أبلغه بحضورى وكشف له عن أهلى وقد نفذ الشيخ الوصية هذا ماحدث بالحق، والحقيقة يعلمها الله.

تغيير القسوة

وفى صباح وقفة عرفات يقوم الأحباب والمريدون بوضع الكسوة الجديدة التى يشتريها أحد أغنياء الصعيد فوق صندوق من الخشب يسمى التابوت وفوق الجمل يحملونه وحول جبل حميثرة يلفون سبع مرات ، الجمل ومن ورائه الأحباب وتسمى الدورة، ثم يتوجهون الى المقام لرفع الكسوة القديمة واستبدالها بالجديدة ويتسابق الناس فى الحصول على الكرامة وهى نيل جزء من الكسوة القديمة ليحملوها معهم إلى قراهم ومدنهم لتباركهم وتحميهم من الشرور ، ويسرع الناس لنحر الذبائح وتوزيعها على الفقراء ويخرج العبابدة فى احتفال كبير يتسابقون بالجمال.

وكنت أتابع تلك الطقوس وأسعى لتصويرها فأصعد الجبل لأصور الدورة ثم أنزل جريا لأصور تغيير الكسوة وأسرع ثانية صاعدة الجبل لأصور السباق وفجأة انزلقت قدماى من فوق قمة الجبل ووقعت على ظهرى وجسمى يهوى مسرعا إلى أسفل الجبل وليس هناك من مصير إلا الموت فارتفاع الجبل يزيد على ١٣٦٦ قدما انتبه الناس وأخذت ألسنتهم تبتهل بالدعاء لى ، فالهلاك محقق ولايملك انسان مساعدتى ونجاتى معجزة.

المعجزة تحدث

فينحرف جسمى تجاه اليمين فيصطدم بصخرة ضخمة تصده وتمنعه من الاستجابة لنداء الجاذبية الأرضية الجبل يهتز من الأصوات التى ارتفعت مهللة بالتكبير «الله اكبر .. الله اكبر.. المعجزة ياشاذلى» أقبلت النساء تقبلنى والدموع تملأ العيون والتفت حولى القلوب الطيبة من ابناء الصعيد وقامت «خالة فضة» وهى من قرية طما بمحافظة اسيوط على رعايتى وفوضتها فى أمر علاجى فظهرى ممزق

من آثر احتكاكه بالصخور، والمكان محروم من الخدمات الصحية وفقير فى أية وسائل للعلاج. وكانت خالة فضة تدهن ظهرى بشىء مثل المرهم ولكن لونه غامق وبعد أن جفت الدماء وتوقفت الأنسجة عن النزيف وبدأت اتماثل للشفاء سألتها عن هذا المرهم ويالها من مفاجأة أنه خليط من التراب والسمن ، أى تراب ؟ !..... نعم إنه تراب قمة جبل حميثرة المكان الذى كان يتعبد فيه سيدى ابى الحسن الشاذلى ويعتقد الناس أنه بركة يفيد فى أى شىء. ولذلك يحرص الزوار على حمله فى متاعهم والعودة به إلى بلادهم فالمريض يدهن به جسمه والمعطل عن الرزق يرشه أمام دكانه والمعطلة عن الزواج تحمله فى حجاب وإن شاء الله يحصل المراد سبحان الله ماذا أقول وقد جعله الله سببا لشفائى لاأملك الا القول «سبحان الله»

ماذا فعلت مكية

ونعود من رحلة الذاكرة مرة ثانية إلى مكية فاخبرتها أننى شاذلية وشيخى هو سيدى الحسن الشاذلى ولم أكن أحب ذلك لأننى أرفض أن تكون تلك وسيلة للصلة بين الناس فلابد أن يتوافر الحب والصدق والود بين البشر بصرف النظر عن ديانتهم او جنسيتهم او لونهم وكم كانت فرحة « مكية » بشيخى فهى أيضا تسلك طريق المجذوبية وهى إحدى الطرق الصوفية المنبثقة من الشاذلية وقد أسسها الشيخ اسماعيل المجذوب وأيضا أسس مدينة الدامر عام ١٧٠٠م واستقر بها وجعل منها منبرا لدعوته، وانتشرت تلك الطريقة فى شرق السودان وكان لها السلطة الروحية على قلوب البجا وخاصة قبائل المليكاب من العبابدة والملك من البشارية والشرعيب من الهدندوه وشيخهم خليفة «الأمين الكيتابى» فى سواكن ومحمد قول، وفى حلايب وأورادها تتضمن الكثير من أدعية وأوراد الطريقة الشاذلية.

والسبب الذى جعل من السودان تربة خصبة لنمو وانتشار تلك الطرق الصوفية «القادرية ـ الأحمدية ـ الإدريسية ـ الرفاعية ـ البرهانية» أن الشعب السودانى لم يأخذ الإسلام عن المسلمين الأوائل ولكنهم ورثوه عن مشايخ الطرق وفقهاء الزوايا وأكثر الطرق الصوفية انتشارا بالسودان هى الطريقة المهدية والطريقة الميرغنية.

وبعدما اطمأنت «مكية» إلى اننى على دينها دعتنى لزيارة جدها «كربيل» وهو لايبعد كثير عن حلايب فبالجمل مسيرة أربع ساعات وحملنا امتعتنا واصرت هى على أن تمسك بمقود الجمل وأنا فوقه اترنح يمينا ويسارا وصلنا بعد أن مضى وقت، ولكن المكان كان خاليا ليس به أكواخ ولابشر، وفوجئت أننا جئنا لنزور قبر جدها وشيخا من شيوخ البشارية!. ولفت نظرى حجرا مغطى بعمامة وحوله كومة من الحجارة المنسقة بشكل دائرة.

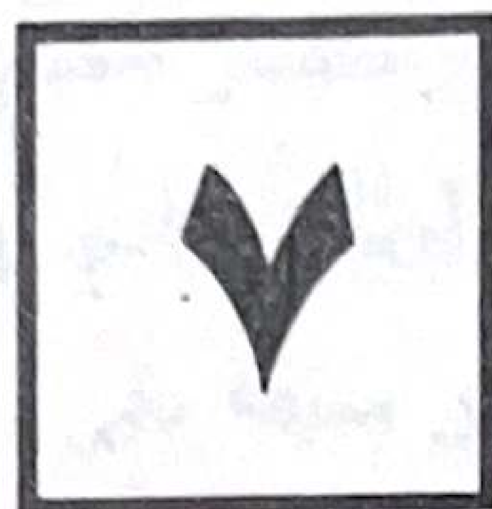
رفعت العمامة عن الحجر

وقامت مكية برفع العمامة وأخذت تمسح الحجر بالدهن «السمن» سبع مرات ثم أعادت العمامة مرة ثانية وأخرجت من جرابها حلوى وضعتها فوق القبر واشعلت علبتين من السجائر وألقتها على أطراف القبر وبعد أن اعددنا الجبنة قامت لتصب بعضا منها بجوار الحجر المغطى بالعمامة وقمت لمساعدتها فملأت الآنية الموجودة على القبر إحدهما بالماء والثانى وضعت فيه الشاى والسكر وكانت تدعو قائلة «أيها الارواح اقبلوا هديتى وامنحونى البركة» وسألتنى ماذا تقولون لموتاكم فأخبرتها بأننا نقرأ الفاتحة ولكنها لاتتحدث اللغة العربية ولاتعرف قراءة القرآن وكانت فرصة طيبة كم سعدت بها حين طلبت منى أن القنها لها ولم اتركها وأودعها إلا بعد أن قرأتها لها وشرحت معناها فى حدود قدراتى وعلمى باللغة البشارية.

كان الود والوئام يرفرف على علاقتى بمكية لدرجة أننى ولأول مرة أعترض على سلوك يفعله البدو وأحاول أن اصححه فأخبرتها أن الارواح لاتاكل ولاتشرب وأنها فى أشد الحاجة لذلك الطعام والشراب الذى تنثره على القبر بدون فائدة ولكن جوابها كان فيه شيئا من المنطقية فقالت لى : إن «الماء والسكر والشاى والحلوى» هى صدقة نتركها على القبر حتى اذا ماعبر إنسان الوادى جلس للإستراحة يجد مايشربه ويأكله ويتذكر المتوفى فيدعو له.

عجبا لك أيها الإنسان ولك أيها البشارى تجد تفسيرا لكل شىء .

وتحاول أن تمنطق الأمور حتى الغريب منها والعجيب .



رجال البشارية

يضربون البحر بسيوفهم

إن السؤال الذى طرحته مكية عليّ «ماهى طريقتك ومن هو شيخك» تردد كثيرا على مسامعى فى صعيد مصر وفى جميع أنحاء السودان السؤال فى مظهره بسيط ولايستحق أن تلقى له بالا ولكنه فى جوهره سؤال خطير يتضمن فكرة أنه لابد ان يكون لك وسيط يأخذ بيدك إلى الله وهؤلاء الوسطاء يتغيرون عبر الزمان والمكان وتتدخل الظروف السياسية والتاريخية والاقتصادية فى تشكيل فكر الوسطاء والاختلاف بينهم سمة تصنع الحدود الفاصلة بين طريقة صوفية وأخرى وقد تتعلق الأسس المختلف عليها بصلب الفكر الاسلامى أو بروافده .

والسبب الأوحد لميلاد تلك الطرق هو انحسار العدل وانتشار الظلم ليظلل جميع أوجه الحياة وسرعان مايخرج المهدى المنتظر ليحطم أوتاد الظلم ويزرع الأرض بالعدل ويصيغ القائد فكرا جديدا ليقود خطواته ويشهر سيفه على الاسلام ليلغى مايراه هو فاسدا ويضيف اليه إبداعاته فى ضوء علمه وثقافته .

وقد شهد العالمان العربى والإسلامى الكثير من تلك الطرق ومنها ماأخذ الطريق السلمى دعوته واكتفى بتلاوة الأوراد التى يضعها القائد والحرص على تنفيذ أركان الاسلام. ومنها ماأعلن الحرب واستخدام السيف لتقويم الباطل ومن تلك الطرق: الطريقة الوهابية التى أسسها محمد بن عبد الوهاب بالجزيرة العربية، والطريقة السنوسية التى نمت بالمغرب العربى وليبيا وأسسها محمد بن على السنوسى والذى تأثر كثيرا بفكر الوهابيين وفى السودان خرجت الحركة المهدية وأسسها محمد أحمد الذى اتخذ من السمانية طريقا له ومن محمد شريف نور الدايم شيخا له وانطلقت الدعوة المهدية من الجزيرة «آبا».

والطرق الثلاث أعلنت الحرب على الخلافة العثمانية وعلى الانجليز وكانت النتيجة الهزيمة؛ العسكرية للإتجاه السياسى الذى جمع بين تلك الطرق ولكن الجانب الدينى والصوفى لتلك الطرق لم ينته وإنما ظل ينتشر بين القاعدة العريضة من البسطاء والفقراء وقدم من الحجاز محمد عثمان لأرض السودان ودعا لطريقة جديدة وانضم إليه السيد على الميرغنى الذى أصبح خليفته وسميت الطريقة باسمه «الميرغنية» وانطلقت من حى الختمية الموجود أسفل جبل التاكا بمدينة كسلا لتنتشر ويكون لها صدى واسع فى كل السودان.

المشهد أمامنا الآن فى بداية القرن الحالى والاستعمار الانجليزى يسعى لبسط نفوذه على المنطقة العربية ولكنه يفشل فى محاولة بعد أخرى والسبب هو الطرق الصوفية الكثيرة فهى صاحبة القيادة على فكر وعقول البشر، وأمسك الاستعمار بالفرصة فأوجد لنفسه طريقا بين الطرق الصوفية ليمسك هو أيضا بعقول الناس ونحن الآن على المسرح السودانى الذى تتزعمه أكبر طريقتين وهما المهدية والميرغنية.

والميرغنية منذ نشأتها كانت موالية لمصر وللحكم المصرى فى السودان ولكن المهدية بعد هزيمتها العسكرية أضحت تكن العداء للحكم المصرى فى السودان والذى كان له دور القيادة فى ضرب الثورة المهدية. واستغلت الإدارة الانجليزية ذلك الشعور فنفخت فيه النار وأخذت فى تدعيم المهدية فسمحت للسيد عبد الرحمن المهدى بالعودة للجزيرة «أبا» التى بدأت منها الشرارة الأولى للثورة المهدية على يد ابيه وشجعته على زراعة القطن بالمنطقة لتصبح له قوة مادية وعمدت إلى تقديم المساعدات المادية له.

وهكذا تحقق الهدف وهو إيجاد الفرقة بين أبناء الوطن الواحد.. وتطورت الحياة السياسية فى السودان واصبح قطبا الصوفية الميرغنية والمهدية أحزابا سياسية وسميت الأولى بحزب الاتحاد الديمقراطى والثانية بحزب الامة.

البجا والصراع الحزبى

وكانت قبائل البجا التى تسكن الصحراء الشرقية فى مصر والسودان تنتمى إلى الطريقة الميرغنية حتى قامت الثورة المهدية ووصلت إلى شرق السودان بزعامة عثمان دقنه عام ١٨٩٣ فدب الشقاق بين القبائل وانقسمت بين مؤيدين ومعارضين ودارت الحروب بين أتباع الميرغنية وأتباع المهدية او الدراويش كما يسمونهم فى السودان ولم تنته الحروب بسقوط عثمان دقنه فى معركة «توماله» فى ابريل ١٨٩١ ولكنها استمرت وأدت إلى تفتت وحدة القبائل والعشائر والبطون كان على أثرها أن أصبح الأخ يتبع الطريقة المهدية وأخوه يتبع الميرغنية واصبح العداء حليفا لأتباع الطريقتين وكم عانت قبيلة البجا وانشغلت عن مصالحها الخاصة بالصراع الحزبى، ويشهد زعماء البجا وعلى رأسهم الشيخ محمد صالح ضرار أشهر مؤرخى البجا بأن قبيلتهم لم تستفد من حكومات الأحزاب إلا الحزازات والضغائن وكراهيتهم لبعضهم بعضا. وهذا الأمر دفع بشيوخ البجا إلى التفكير فى عمل حزب يضم القبيلة بكل فروعها ويكون له برنامجه السياسى الخاص. وذلك لحماية القبيلة خاصة أنه بعد استقلال السودان كانت هناك نزعة تهدف لاستقلال شرق السودان عن الدولة على اعتبار أن الشرق يضم قبائل واحدة مشتركة فى الأصل واللغة والمعتقدات وتحت ضغط النزعة الاستقلالية التى تسعى لها قبيلة البجا وافقت الحكومة السودانية على عقد مؤتمر البجا الأول فى عام ١٩٥٨ وقد سعت حكومة اسماعيل الأزهرى لامتصاص غضب شعب البجا فعين أحد نواب البجا فى حكومته وهو الشيخ «بامكار محمد عبد الله» المولود فى بورسودان من أسرة بشارية وهو من زعماء البجا الذين كان لهم دور قيادى فى الثورة التى اندلعت فى أرجاء السودان عام ١٩٢٤ بسبب ترحيل الجيش المصرى عن أرض السودان وقد خاض هو ورفاقه عدة معارك ضد الجيش الانجليزى فى شرق السودان وتم على آثرها نفيه إلى «طوكر» ولكنه عاد ثانية لموطنه بعد عودة الجيش المصرى وله دور قيادى فى الحزب الوطنى الاتحادى جناح الختمية وقد أقيل من منصبه بعد مشكلة حلايب التى اثيرت عام ١٩٥٨ نتيجة لموقفه المؤيد لحكومة عبد الناصر فى مصر.

ودائما ماتتحطم أحلام البجا على صخرة الصراعات الحزبية بين شيوخها فمن المعروف ان قبيلة الهدندوه وهى أكبر فروع البجا وفيها الزعامة تنتمى إلى الطريقة المهدية وحزب الامة بينما بقية فروع البجا مثل العبابدة والبشارية ينتمون إلى الطريقة الميرغنية وحزب الاتحاد الديمقراطى ومن هنا ينشأ الصراع ويصبح الاتفاق أمرا صعبا.

والبسطاء من بدو البجا لايعنون كثير بالسياسة منهم من يأخذون من الميرغنية والمهدية والمجذوبية والشاذلية الطريق الدينى، فيحفظون الأوراد ويرددونها فى الحفلات الدينية التى تقام فى «الخلاوى» وهى الكتاتيب المنتشرة بالمدن والأحياء فى شتى بقاع السودان وتعمل على تعليم الأطفال الدين الاسلامى وتقوم قبيلة الأشراف بالدور القيادى فى هذا العمل.

ويرتبط البدو بعلاقة حب روحانية بشيوخ تلك الطرق تدفعهم لزيارة قبورهم وزيارة الشيوخ القائمين على الدعوة الآن فى المناسبات والاعياد للتبرك بهم ويحملون معهم العطايا والهدايا ويعودون للصحراء - وهم - حاملين الأحجبة والتمائم التى تحفظهم من شرور الحياة.

الانتقام من البحر

والصحراء بطبيعتها القاسية فرضت العزلة على شعب البجا وشعوب كثيرة منتشرة فى افريقيا مازات تعيش على الرعى وتلك العزلة هيأت مناخا طيبا لولادة ونمو حياة القصص الخرافية والأساطير والتى تجمع فى مضمونها بين الحقيقة والخيال والفلسفة وتنسجها بنسيج له بريق السحر فى عيون بدو الصحراء فيؤمنون بها ويدافعون عنها.

تعالوا معى لشاطىء حلايب لنشاهد معا الرجل الذى يحارب البحر بسيفه ويرميه بالحجارة ليقتل الشر الساكن بجوفه.

فإن حياتى على ساحل البحر الأحمر من الغردقة إلى طوكر جعلتنى أبرم وثيقة صداقة بينى وبين البحر أجلس إليه حينما أفرغ من عملى أحاوره وأبث له مابداخلى ويسمعنى هو فيترك لفكرى العنان لينطلق مع امتداده الواسع اللانهائى.

يتجدد فكرى وأتونس بوحدتى وأستمتع بجمال مشهده وروعة الوانه، وفى جلسة على بحر حلايب تعلق نظرى برجل بشارى من سكان الجبال وهم مازالوا متمسكين بزيهم القديم والذى يسمى «التكشيتة» ويرتدون أسفله السروال وأهم شىء يحرص عليه بشارى الجبل هو دهن لباسه بالدهن المستخرج من الضأن لاعتقاده ان هذا يحفظ الثياب ويعطيها الليونة ويطيل من عمرها أقبل الرجل حتى اضحى على مرمى بصرى وانحنى على الشاطىء يجمع الزلط ويملأ به جرابه وأنا مراقبة له فوجدته يتمشى على الشاطىء ويلقى بالحجر عن آخر ذراعه فى البحر ويتحدث بصوت عال وكأنه يصرخ بشىء وكلما فرغ الجراب أسرع ليملأه من جديد ويعاود قذف البحر بالحجارة.. وتصورت فى البداية انه يلهو ويسلى نفسه ولكن ، .... إنه يتصرف بجدية وكأنه فى معركة حقيقة ! .... وساورنى الخوف منه .... واشتد، بعدما اقترب منى الرجل وسألنى انت مش خايفة؟ فسألته من ماذا؟ فقال من الجن الساكن فى البحر إنهم يخطفون البشر ويقتلونهم فى الماء فأخبرته اننى لم أر أحدا فقاطعنى قائلا: إنك لاترينهم ولكنهم يجرونك إلى داخل البحر حتى تغرقى .. ماذا أقول له؟ .

هل أصارحه بأن تلك خرافات وأننى غير مؤمنة بها.. ولكن من المؤكد أن كلامى سوف يثير غضبه.. وسألته هل أنت رأيتهم ولأجل هذا ترميهم بالحجارة ؟ فأخبرنى بأنهم مختبئون فى الأمواج وقد أخذوا منه ابنه الوحيد وقتلوه وهو يرميهم بالحجارة انتقاما لابنه؛ الرجل حزين مهموم وحزنه لاينبع فقط من فقدان وليده وإنما من كرامته المجروحة فهو لم يأخذ بثأر ابنه وتلك مسألة قاتلة لدى البشارى . أبدا هذا الرجل ليس بمجنون ولكنه معزول داخل الصحراء وتذكرت على الفور قصة حكاها لى ناظر قبيلة البشارية حينما قابلته فى بلده «بعلوك» على نهر عطبرة بالسودان فقد أخبرنى الشيخ كرار بأن البشارية يحاربون البحر ، حينما يغرق أحدهم فى مياه البحر تهب القبيلة وتجمع فرسانها ويذهبون للبحر للأخذ بالثأر منه ولكنهم فى تلك الحالة لايجدون قاتلا بعينه يمكن اغتياله وإنما يمسكون بسيوفهم ويضربون الماء ضربات سريعة ومتوالية قوية عنيفة تحمل معها كل الغيظ الساكن بقلوبهم حتى ترتفع الأمواج ويظهر الزبد الابيض هنا يصرخ البشارية ويهللون لقد قتلناهم.. ففى تصورهم أنهم قتلوا سكان الماء الذين اعتدوا على حرمتهم .

ومن الحكايات التى تحكى على سبيل النوادر لدى البجا أن أحد افرادهم أشرف على الموت وكانت القبيلة حديثة عهد بالاسلام «تلك القصة حدثت فى عام ١٩٣٥ وقصها علىّ احد الشيوخ القائمين على الدعوة الاسلامية فى شرق السودان» وقد علموا من هذا الشيخ ان هناك ملكا يسمى عزرائيل وكله الله سبحانه وتعالى لقبض الأرواح التى تنتهى أعمارها فى الدنيا فاقبل أبناء الرجل والتفوا حول فراشه واصطفوا فى شكل دائرة واكتافهم ملتصقة ببعض وكل منهم يمسك بسيفه لتلتقى نصول السيوف فى مركز الدائرة وتظلل فوق الرجل المشرف على الموت والهدف من هذا التشكيل الحربى هو حماية الرجل من ملك الموت وبالطبع جن جنونهم حينما اكتشفوا أن روح والدهم سرقت رغم الاستعدادات الأمنية التى اتخذوها .

لأول وهله يبدو كلامى غريبا وساذجا ولكنها فى الحقيقة فلسفة صنعها البجاوى بنفسه وهى تسعده فى حدود قدارته وإمكاناته العلمية والنفسية التى اتيحت له عبر آلاف السنين وتلك الفلسفة لن تتغير بقوة القهر ولا السيف والسبيل الوحيد لتغييرها هو انتشار التعليم ولن تأتى الثمار فى يوم وليلة ولكن بعد تعاقب الأجيال واستمرار التنمية العلمية الشاملة.

وإياكم وأن تتهموا شعب البجا القديم والعريق الذى تضرب جذوره فى عمق التاريخ بالوثنية لاهو ولاشعوبا أخرى كثيرة تنتشر عبر القارة الافريقية وفى أماكن كثيرة من العالم وإن كان هناك اتهام فهو موجه لكم ياأبناء المدينة ويا أصحاب الحضارة التكنولوجية فقد انغلقتم على أنفسكم وتقلصت أهدافكم ونسيتم أهم قاعدة فى الأديان الاسلامى والمسيحى واليهودى والبوذى وكل أديان الأرض نسيتم ان للفقير حقا فى مال الغنى وأن للجاهل حقا فى علم العالم وللمعوق حقا على السليم المعافى ...

نسينا جميعا حقوق هؤلاء البشر فى الحياة والعلم واكتفينا بالتباهى والتعالى عليهم فنحن اصحاب الرسالات السماوية وهم الكفرة الوثنيون..

اين وزارة الأوقاف المصرية أين المجلس الأعلى للشئون الاسلامية أين الأزهر أين الهيئة العالمية للإغاثة الاسلامية .. أين .. وأين .. وأين آلاف العناوين الكبيرة.

أين دورها فى نشر العلم وأقول العلم لأنه القاعدة الحقيقية لفهم الاسلام فقد آن الأوان ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين أن نؤمن بعقولنا ونكف عن العاطفة المشبوبة التى نكنها بلقوبنا للدين فتجعلنا صرعى للفتن فليكن العلم قائدنا والحكم بين أهوائنا وعواطفنا .

ووزارة الاوقاف «كتر خيرها بنت مسجدا» فى الشلاتين وآخر فى أبى رماد وتسعى جاهدة لتحويل الصحراء إلى مسجد كبير وهذا يحتاج لملايين الجنيهات ونسيت أن الأهم من المسجد والمبنى القادة الذين يتولون نشر العلم والدعوة ونسيت أن الاسلام لم يكن يوما دينا كهنوتيا يحتاج لمكان تمارس فيه شعائره وطقوسه لقد جعل الله الأرض كلها مسجدا تقام الصلاة فى جزء منها وبقية شعائر الاسلام لاتحتاج لمكان لممارستها مثل الصوم والزكاة.

أنا لست ضد بناء المساجد ولكنى ضد إنفاق المبالغ الضخمة التى نقترضها من هنا وهناك لبناء علب مسلحة داخل الصحراء وأتصور أنه من الممكن بناء أكواخ كبيرة من الخشب أو سعف الدوم مثلما يفعل البدو تكلفتها بسيطة وتتفق مع المناخ الحار الذى يسود المنطقة وفيها يلتقى البدو وتقام الصلاة ونوجه اهتمامنا وأموالنا إلى بناء القائمين على الدعوة نختار منهم الكفاءات الجيدة ونزودهم بالكتب والوسائل العلمية الحديثة والسيارات المجهزة لعبور الصحراء حتى يتمكنوا من الوصول إلى البدو فى أماكن وجودهم ويفيضوا عليهم بالعلم والسلام فالبدو المنتشرون فى عمق الصحراء هم المستحقون لكل الخدمات والعطاء العلمى والثقافى والصحى، وهذا وحده لايكفى فلابد من التغلب على المشكلة الضخمة التى وقفت على مدار سنوات طويلة جدا عقبة أمام فهم البجا للاسلام وتلك المشكلة هى اللغة البجاوية. فكل البشارية وسكان المثلث الإدارى وسكان الصحراء الشرقية خاصة القاطنين لايتحدثون اللغة العربية ولايفهمونها ، وهذا حال بينهم وبين فهم الشريعة الاسلامية وقراءة القرآن ومن العبث أن ننتظر حتى تجبرهم الظروف على التحدث بالغة العربية فلو كان هذا أمرا سهلا لحدث منذ قرون لحدث منذ نزول العرب والمسلمين إلى الصحراء ولكنها مشكلة صعبة لابد من اقتحامها . أنا أقترح الحل

الذى يكمن فى اختيار عدد ممن شباب البشارية الذين يجيدون العربية بالإضافة إلى لغتهم الأصلية ويتم إعدادهم دينيا وعلميا وتزويدهم بالكتب ليتزودوا منها ويتم نشرهم داخل الجبال فى صحبة الدعاة خريجى الكليات الدينية والأزهر ومع الوقت سوف تتكون قيادات من البشارية وسيتعلم خريجوا الجامعات اللغة البشارية وتقطع الوقت ونصل بالمعرفة لسكان الجبال وحتى يكتب النجاح لهذا العمل لابد من الحب لمصر وللصحراء وللبشارية وأدعو وزارة الاوقاف أن تنفق بسخاء على الإنسان وتغل يدها بعض الشىء عن العلب المسلحة فالإنسان هو الخالق والمبدع وصانع الحضارة.

رحلتى إلى الشمال

علمت أن بعض من الهدندوة والبشارية هاجروا من موطنهم بالشرق إلى الشمال بالدامر وعطبرة بعد إجتياح الجفاف لوديانهم فقررت السفر من الخرطوم إلى الشمال حيث يسكنون وسألت عن أنسب وسيلة أنتقل بها لمدينة بربر فأبلغونى أن القطار مريح حيث أن الوسيلة الأخرى هى سيارات السفنجة وهى سيارات النقل الكبيرة حيث ترص فى الصندوق كراسى صغيرة من جريد النخيل او الحديد وتظللها مظله من البلاستيك او الأقمشة البالية .

فى صباح يوم الجمعة ذهبت لمحطة السكة الحديد الوقت يمر والقطار لم يصل للمحطة، وبعد قلق سألت أحد الموجودين عن قطار الشمال فأشار إلى القطار الواقف أمامى منذ ساعة ، أخذتنى الدهشة ! ..... فهذا قطار لنقل البضائع ! ولكن الرجل أكد لى وبعد أن تأكدت حملت حقائبى وصعدت إليه القطار يخلو من الكراسى إلا البعض منها المتناثر فى الزوايا وأكثرها محطم . الناس يفترشون الأرض منهم الجالس ومنهم النائم كذبت عينى وقلت ربما تلك العربة فقط وأخذت اجوب القطار من أوله لآخره فى محاولة عبثية للحصول على مكان يرقى لجلوس انسان ولكن.

القطار يخلو تماما من النوافذ والشبابيك فجميعها محطم وسقفه ليس له الا الاسم فقط فكله ثقوب ومفتوح فى أغلبه وبالطبع ليس فى تصميمه إختراع اسمه

دورة المياه استسلمت لقضاء الله وفى أحد أركانه افترشت برش من سعف الدوم وفوقه بطانية حملتها للطوارىء وجلست جلوس الصابرين تحرك القطار وياليته ماتحرك فبعد برهة قليلة امتلأ القطار بالتراب وغطى التراب الموجودين اختنقت منه وأنا لاأملك من الماء سوى كمية صغيرة فى زمزمية أهداها لى احمد بن اختى فى القطار وكنت اكتفى ببل المنديل ومسح وجهى حتى يتسنى لى استنشاق الهواء وكلما أبصرت الناس من حولى خيل لى أنه يوم القيامة ، اليوم الذى تخرج فيه الأجسام من القبور يغطيها التراب فكل الناس تحولوا إلى أشباح يغطيها تراب كثيف، أحدث خالقى وأسأله: أن يلهمنى الصبر فهذا الهم علىَّ أن أحتمله ١٤ ساعة حتى أصل لمدينة الدامر الوقت يمر ببطء والقطار يمشى على قشر البيض مثلما يقولون فى الأمثال فيقف كل نصف ساعة حتى يتمكن الرجال من قضاء حاجتهم ويقف احتراما لمعزه على الطريق وتارة اخرى يقف لجلب الماء.

إنتابنى حالة من العصبية والحزن لما أنا فيه والنوم بعيد المنال وسألنى جيرانى عن وجهتى فأبلغتهم أننى متوجهة للدامر بهدف البحث والدراسة لقبائل البشارية والهدندوه وسألتهم أن يرشدونى لمكان أسكنه وعلمت منهم أنه لايوجد بالمنطقة لوكاندات للإقامة والمكان الوحيد الذى يمكن أن أستأجر فيه غرفة او بيت هو «مربع ثمانية» وحملت المعلومة بداخلى وصمت وبداخلى نداء للزمان أن يجرى بأسرع ماأوتى من قوة حتى ينفرج الهم عنى. وقف القطار فى محطة شندى وصعد اثنين من الأجانب وجدت نفسى واقفة وأسرعت إليهم ادعوهم للجلوس بجوارى فقد أجد فيهم الأنيس لوحدتى والمزيل لهمى جلس «البرشت» وزوجته «فريانا» وأخذنا نتعارف إنهم من المانيا ويأتون للدامر لدراسة الطرق الصوفية الممثلة فى الطريقة المجذوبية وهم يترددون على المنطقة والسودان منذ أربع سنوات وسألنى البرشت عن المكان الذى أنوى الإقامة به فى الدامر فقلت له وبكل ثقة «فى مربع ثمانية» فأعاد السؤال بصيغة أخرى تعرفى حد هناك؟ فأجبته بالنفى وتحدث لزوجته باللغة الالمانية ثم صمتوا فترة وهم يحدقون نظرهم اليَّ ثم قال: أنا عشت فى بلادكم (يقصد مصر) كثير وأعلم الكثير عن تقاليدكم وشكلك يوحى بالجدية وينم عن أنك من عائلة محترمة

استوقفته عن الكلام وسألته عما يقصد فكلامه يحمل دلالات سيئة واعتذر البرشت وأجابنى أن مربع ثمانية هو المكان المخصص لممارسة الدعارة وأنه كان فى حيرة من امره هل يبلغنى بالأمر أم يصمت عملا بمبدأ الحرية .

«ياالله صدقت وصدق رسولك الكريم بقوله من خرج فى طريق للعلم فهو فى ذمة الله حتى يرجع» فرت دموعى من فرط سعادتى بحماية الرحمن لىّ كيف يكون حالى لو أنى نزلت الدامر وتوجهت لمربع ثمانية واستأجرت مسكنا وانا غير مبصرة بالحقيقة . الحمد لله الذى سخر لى البرشت وزوجته لينقذونى من الجحيم.

وبعد أن أفقت من صدمتى سألتهم النصيحة فى مكانٍ اسكنه وعلمت ان للشيخ البشير زعيم المجذوبين فى الدامر لديه ساحة ويمكننى النزول فيها وطمأنونى بأنهم سوف يصاحبونى فى رحلتى . وصل القطار المشئوم إلى الدامر فى العاشرة مساءا . وقد بلغت من الإعياد أشده حملت حقائبى الثقيلة مسافة كبيرة حتى وصلنا ساحة الشيخ البشير ولكن للأسف لم يكن موجودا لنستأذن منه ولايوجد سوى غرفة واحدة تضم صديقتى وزوجها وأغلقت الأبواب أمامى ثانية ويسعى البرشت لحل مشكلتى فذهبنا إلى بعض أصدقائه من الالمان والدانمركيين الذين يعملون فى مشاريع للتنمية بالمنطقة نسألهم مساعدتى ولكنهم أعلنوا اسفهم وبدا الهلع على وجهى فالساعة اقتربت من الثانية عشر مساءا ماذا أفعل وأين أنام؟ جرت كريستين ورائى تضمنى فى صدرها وتخبرنى انه يوجد بمنزلها غرفة بها بعض الأشياء المهملة «كراكيب» ويمكننى المكث بها وتعتذر عن عدم وجود سرير زيادة تمنحه لى فرت دموعى وأنا أبذل لها شكرى على صنيعها فقد منحتنى الأمان وهو أعز أمنية لأى انسان خاصة فى مثل ظروفى .

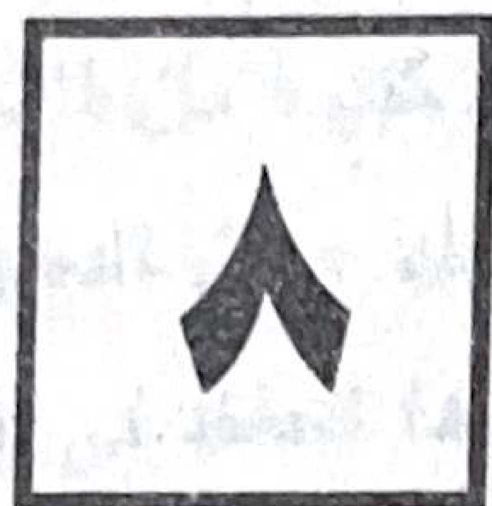
افترشت البطانية التى أحملها على الأرض واستسلمت للنوم بعد يوم طويل وزاد من طوله الألم النفسى الذى عشت فيه، قضيت اليوم التالى مع صديقتى كريستين وهى انثروبولوجست تعمل فى مشروع دانمركى لمواجهة التصحر الذى يغزو الأراضى الزراعية فى شمال السودان وعرفتنى على خفير المشروع وهو «حسين اداروب» عجوز بشارى رحب الرجل بقدومى لموطنهم وسعد كثيرا بفكرة اهتمام

باحثة مصرية بقبائل البجا وتحملها المشاق الجسام للبحث عنهم وتسجيل حياتهم وإمعانا فى كرمه فقد أهدانى العجوز حمارا لأركبه وأتنقل به بين دروب البلدة حيث أن السيارات قليلة ومعظمها متوقف نظرا لأزمة البنزين التى تعانى منها البلاد، ولكنى شكرته وأعدت له الحمار فأنا غريبة ولا أعرف الشوارع والطرقات وسوف يكون عبئا عليّ ولكن الرجل الطيب أصر على أن يمنحنى الحمار ويمنحنى أيضا سائق له.

وتولى «سولى» وهو طفل صغير لايتعدى عمره تسع سنوات ويبدو أنه من أصل زنجى قيادة الحمار إلى الأماكن التى كان يرشحها لى شيخى العجوز لمقابلة البدو أمضيت يومين فى صحبة سولى والحمار وفى اليوم الثالث جاءنى سولى يصرخ فقد سرق الحمار مشكلة جديدة من أين لى مبلغ عشرة آلاف جنيه سودانى لأشترى حمارا للرجل الطيب؟ وأين أبحث عن الحمار الضائع؟ ونصحنى سولى أن نخرج للبحث عن صديقنا الثالث وكلما سألت أحد عن الحمار؟ سألنى عن شكله؟ وبالطبع أنا لاأملك أية اجابة فشكله حمار فلم يكن لدى الوقت لكى أدقق النظر فيه وأتعرف على أذنه الكبيرة او عيونه الواسعة او ذيله الأسود . ذهب النهار كله وعدنا للبيت بدون عمل وبدون حمار وقررت أن أستغنى عن جزء من ميزانية الرحلة وأشترى حمارا لعم حسين فجزاء الإحسان لايكون إلا إحسانا وبعد آذان العشاء جاءنى رجل يسعى واخبرنى أنهم وجدوا الحمار وعلىّ أن أذهب لاستلمه فقد انتشر الخبر فى بلدة التلاواب كلها فالجميع علموا بأن حمار الدكتورة المصرية سرق وتضافرت الجهود للبحث عنه.

رجعت بالحمار إلى شيخى العجوز ورجوته أن يأخذه وقلت له مازحة جئت بلادكم لأبحث عن البشارية مش عن الحمار .

وأبقيت على صديقى سولى فقد لازمنى طوال فترة إقامتى بالشمال.



فرح الشعدنياب

ذهبت لمنطقة تسمى الشعدنياب تبعد عن الدامر بحوالى ١٠ كم حيث يسكن بها عبادى عجوز «النور عبد اللطيف» وهو ضرير ولكن وهبه الله ذاكرة أليكترونية تضم كل التفاصيل التى ترجع لحرب الدراويش «الثورة المهدية عام ١٨٨٤» بالإضافة إلى الكثير من الأشعار والأساطير التى تخص البجا وفى إحد زيارتى له علمت أن حفيدته سوف تتزوج ودعونى لحضور حفل الزفاف.

فى الصباح الباكر ترجلت أنا وصديقتى الالمانية فريانا لحضور الفرح فهى خابرة للطريق اكثر منى وفى الحوش الكبير جلست النساء لتضعن الدلكا وهى الدقيق المعجون بالروائح المختلفة والماء ويفرش فى أطباق كبيرة من الفخار ويقلب على مواقد الفحم والدل والطلح حتى تنضج وكل فترة يعاد عجن الدقيق وإضافة الروائح إليه ثم يلقى على المواقد حتى يصبح لونها بنى بعدها تحفظ فى آنية فخارية ويضع منها كمية كبيرة تكون زاد للعروس فى بيتها وبعد ان شاركت فى إعداد الدلكا ذهبنا للعروس لنشارك ونشاهد طقوس إعداد حفلة العرس فى الليل.

جاءتنى خالة عائشة تمازحنى وتقول لي: «ابنى داير يعرس مصرية تعرسيه» وصدمتنى كلماتها فتلك الكلمة تحمل مغزى سىء فى ثقافتى المصرية وأسرعت حليمة وهى السيدة التى تقوم على تزيين العروس وتسمى «حنانة» بترجمة كلام عائشة لى فقالت: «هى تقصد أن تقول لك أن ابنها يرغب فى الزواج من فتاة مصرية» وبادلتهم مزاحهم وبدأت حنانة بدهن جسم العروس بالدلكا وكل الحاضرات وبعد أن يجف العجين وينشف تزيله عن الجسم باستخدام كيس ناعم الملمس ثم بدأت مرحلة وضع الحنة وتتم المرحلة الاولى بوضع الحنة المخلوطة بالمحلبية على العقلة الأولى من كل صباع ثم تقوم الحنانة برسم باقات الزهور على

كف اليد والقدم أيضا باستخدام كيس من البلاستيك وتعرض اليد والقدم للنار حتى تجف بسرعة وتفرك الحنة فتزول وتترك كفوف اليد والقدم وهى منقوشة بشكل جميل وكم كنت سعيدة بنقش الحنة على كفوفى رغم الألم الشديد الذى شعرت به من اثر تعرضها للنار.

وبدأت المرحلة الثالثة من إعداد العروس فقامت الحنانة بعمل خليط من البيض والعصفر يسمونه بالجوهرة ودهنت به جسم العروس ووجهها ورغبة منى فى مشاركتهم فرحتهم وضعت على وجهى بعض من الجوهرة وبعدما غسلت وجهى نظرت فى المرآه وصعقت من شكلى فقد بدا وجهى وكأننى دهنته لاكيه أصفر وحاولت بشتى الطرق ازالة صفارة ولكنه أبى والغريب أن النساء أبدين إعجابهن الشديد بى ويقولون «سمح» بمعنى جميل .

ويبدو أنهم يحبذون استخدام الجوهرة لأنها تساعد على ظهور بشرتهم السمراء بشكل يميل للبياض ولكن معى أنا فقد جعـــلتنى صفراء .

وخلعت الحنانة الملابس عن جسم العروس ودهنته بزيت السمسم فوق موقد النار أجلستها وغطتها ببطانية ليتصاعد الدخان عليها ويساعد على امتصاص الجلد الزيت ليصبح ناعما لينا واستمرت العروس على تلك الحالة مايزيد عن ساعتين وهذا يشبه حمام البخار فى المجتمعات الحديثة طالت طقوس زينة العروس فمنذ الصباح الباكر وحتى بعد الغروب بفترة خرجت فى شوارع القرية لأتابع موكب العريس يحيط به الرجال والنساء وتصاحبه الزغاريد ويقف أمام العريس احد أصدقاءه ويرفع الملابس عن ظهره فيضربه العريس بالسوط الذى يحمله بيده ثلاث مرات ثم يتبادلان عبارة «ابشر حبابك عشرة» وينصرف ليأتى آخر ويفعل مثل الأول وهكذا يمضى العريس ساعات طويلة ممسكا بالسوط وضاربا لأصدقاءه وبشكل ودى بعيدا عن العنف والقسوة وهو مظهر من مظاهر رقصة قديمة لدى البجا تسمى «هلوس» يقوم فيها العريس بضرب أصدقاءه بالسوط بعنف وقوة على دقات الطبول وتصفيق الرجال.. ويلقب أكثر الرجال تحملا لضربات السوط بالفارس.. ويسعى كل الرجال للحصول على هذا اللقب والشرف المصاحب له .

وترقص النساء والرجال معا... الليل انتصف وساعتى تشير إلى الثانية وسألت الحنانة عن موعد الزفاف فأخبرتنى أنه فى الصباح كتمت دهشتى وذهبت معها لإحضار العروس وقد بدت فى هيئتها الجميلة بثوبها الوردى الذى يكشف عن صدرها وذراعيها وتتدلى على كتفيها الشعر المستعار والحلى الذهبية تزين رقبتها وذراعيها وأذنيها وانفها وساقيها ففى تلك الليلة تاتى كل امرأة تحمل حليها الذهبية لتتجمل بهـا العروس وتبدو وكأنها كتلة من الذهب المتناثر على جميع أجزاء جسمها ويربط على وسطها «الرحط» شريط من اللون الأحمر تتدلى منه العملات الذهبية وتغطى العروس بتوب من القماش الحرير الملون يسمى «جرسيس» .. تدق الدفوف والطبول وتعلو الزغاريد وتدخل العروس إلى الحلبة ويأتى العريس وتدور معركة وهمية بين الاثنين يحاول فيها العريس قطع الرحط من حول وسط العروس وهى تقاومه وتنتهى بفوز العريس الذى يمسك الرحط ويرقص به ويلف الحلبة سبع مرات ويلقيه على النساء اللائى يصحن مزغردين مهللين بالنصر ويرفع العريس التوب الحرير من فوق العروس ويراها لأول مرة وهى فى أبهى زينتها وتظل العروس ترقص حتى تقع على الأرض فيحملها العريس ويدخل بها غرفتهم.

ينفض الفرح وهممت بالرحيل مع صديقتى الالمانية وزوجها وتمسك الخاله عائشة بذراعى تسألنى عدم الرحيل فابنها علم بخبر وجودى وسوف يأتى فى الصباح ليرانى وتتفق على الزواج فقلت لها مازحة «ياخاله أنا ماداير اعرس سودانى أنا بأمشى اجعد عند امى براى.. اما ماجدر اسوى الزنية والرقيص بتاعكم» وخرجت وراء البرشت وزوجته واتخذت منهما دليلى إلى مسكنى حيث أننى لاعرفه إلا شبها.. البرد قارس، والطريق طويل والظلام حالك.. وبعد دقائق هدأت خطواتى من التعب والإرهاق وتاه منى صديقاى ووجدت نفسى وسط مجموعة من الكلاب.. النباح يعلو الى السماء وأنا أجمع الحجارة والزلط لأرمى بها الكلاب لتنصرف عني.. ابتلت ملابسى من عرق الخوف والذعر وعلت صرختى لتدوى فى المكان أنادى على خالقى «يارب» فيأتينى الرد بأذان الفجر وانصت اليه لأعرف اتجاه الصوت فجريت اتجاهه حتى وصلت إلى مسجد صغير «زاوية مبنية من

سعف النخيل داخل الصحراء» وانتظرت فى صحنه حتى انهى الرجال صلاتهم وسألتهم أن يعيدونى لمسكنى ولكن كيف وأنا لاأعرف اسمه ولاوصفه.. واسرع إمام المسجد وجلب بطانية لألف بها نفسى فقد أخذت الرعشة طريقها إلىّ وقدم لى كوب من الشاى وما أن فرغت منه حتى بدا نور الصباح وأبصرت من على بعد قضبان السكك الحديدية عرفت اننى على مقربة من مسكنى ، شكرت الشيخ على صنيعه معى وترجلت حتى وصلت لمسكنى وأنا غير مصدقة أننى نجوت من أنياب الكلاب وظل صوتها يتردد فى يقظتى ومنامى يفزعنى ويرعبنى.

قصتى مع السحر

السحر والحسد من القضايا المعلومة والمجهولة فى وقت واحد فهى معلومة لدينا جميعا يصدق على وجودها القرآن وكل الكتب السماوية وهذا هو الدافع لتصديقها ولكنها مجهولة لأننا لانعرف عنها شيئا وأقصد الجهل العلمى لتلك الظاهرة فنحن نرى أناسا يدعون المقدرة على اتقان العمل السحرى وآخرون يلجأون إليهم للاستفادة من هذا العمل لحل مشاكلهم الخاصة والتى تعرقل مسار حياتهم ونرى ايضا الكتب التى تحمل أسرار وطقوس العمل السحرى ولكن كل هذا ليس بكاف لفهم الظاهرة بشكل علمى يفسر لنا ويجيب على أسئلة كثيرة تتعلق بتلك المسألة ومنها على سبيل الثال من هؤلاء الناس «السحرة» وماهى القدرات الخاصة التى يتميزون بها على باق البشر وكيف يحصلون عليها؟ أم أنها هبة يولدون بها.. وماذا تعنى الطلاسم والرموز التى يستخدمونها وإلى أى مدى تمتد قدرة الساحر وبمعنى آخر المنتهى لارادة الساحر فهل هو يملك إرادة على الأشياء وقلوب البشر ليحقق مبتغاه وهل يختلف السحره فى قدارتهم بمعنى أنه يمكن أن يكون كل ساحر متخصص فى شىء معين يختلف عن قرينه. وهل من العدل الإلهى أن يتميز بعض الأفراد بقدرة خاصة وهبت لهم أو اكتسبوها بالإرادة ليتحكموا فى إرادة البشر مئات الاسئلة تدور بخلدى عن الموضوع وزدات الأسئلة مع رحلتى فى الصحراء وداخل عقول وقلوب البشر البسطاء الذين قهرتهم الطبيعة .

التقيت بالكثيرين من السحره وضاربى الودع وفاتحى الكتاب وسائلى الرمل والمعالجين بالأحجبة والتمائم فى أماكن كثيرة على أرض مصر والسودان وأشهر تجمع لهم فى ميدان الامم المتحدة بالخرطوم وهو من أكبر الميادين بالعاصمة السودانية هذا الميدان يمثل بانوراما حقيقية للحياة فكل جانب منه يشهد نشاطا وحياة مختلفة تماما عن الجانب الآخر فالمنطقة المحيطة بنادى ناصر يفترش أرصفتها وطرقاتها السحره وكل المتخصصين فى التنبؤ بالغيب وفى مواجهتهم على الجانب الآخر نجد عالم المنطق والعلم وهو الحى الذى يضم أشهر مكتبات الخرطوم.

وفى جانب آخر من الميدان يتجسد الجوع والفقر والمرض فى الكتل البشرية الملقاة على الأرض وفى الطرقات وهم من اللاجئين القادمين من أرجاء الاقاليم السودانية جاءوا ليسكنوا الأرصفة المجاورة للقصر الجمهورى لعلهم ينالون نظرة رضا ورحمة من الناس اللى فوق.. كلهم عرايا والمستور منهم يغطى العورة رجالا ونساءا «النصف الاسفل فقط» بخرقة بالية او مايتيسر من الجلد والأطفال عرايا تماما وتقف اللغة عائقا أمام سؤالهم لك بشىء يقتاتون عليه ولكن أبدا لم تكن اللغة فى يوم من الايام عائقا بين إحساس البشر بعضهم ببعض وإحساسك يدفعك لأن تخرج كل ما فى حوزتك من مال وطعام لتقدمه لهم .. ولكن كم من المال تملكه فى جيبك وكم من البشر تستطيع أن تطعمه وتتمزق نفسك حسرة والم حينما تقع عينيك على طفل رضيع يزحف على الرصيف يتناول أى شىء تصل إليه يده الرقيقة .. عقب سيجارة.. ورقة شجر.. فالكلاب والقطط لم تترك للوليد شيئا يقتات عليه .. تدور رأسك بآلاف الأسئلة وينفطر قلبك من الأسى والحزن.

هذا المشهد المروع كنت أراه يوميا وأنا فى طريقى من مقر إقامتى بعمارة الواحة إلى جامعة القاهرة فرع الخرطوم وظلت دهشتنى قائمة طوال شهرين قضيتهم بالخرطوم من هذا العالم الغريب.. من التناقضات حينما تتآلف وتتصادق.

فى الصباح الباكر يقوم كل ساحر بكنس المكان الذى يفترشه ويرشه بالماء ويرتب بضاعته سواء كانت الودع أو الرمل أو الكتاب أو الأعشاب السحرية..

ويجلس فى انتظار رواده والرواد هناك ليسوا - كما نعتقد نحن فى مصر - بفقراء وليسوا بجهلاء وإنما هم ضباط فى الجيش وموظفين بالحكومة ومدرسين يسألون العراف على السفر والأولاد والعمل والمال.

وقد صادقت كل العرافين لأمضى وقتى كله فى جوارهم مرة أسالهم عن حالى وأخرى أتعلم منهم وثالثة أكون مشاهدة وكنت أحاول التعرف على بدايتهم الأولى التى أهلتهم لدخول هذا العالم، العالم الذى يقع بين الخيال والحقيقة.

الكثير... والكثير من القصص التى رواها لى البسطاء هم صادقون فى روايتهم ولكنها تتنافى مع المنطق الذى يحكم فكرى، ولنلقى نظرة على تلك العوالم.

عالم الودع

مريم كادقلى من جبال النويا فى طفولتها أصابتها حالة من النوم المستمر وصاحبة امتناع عن تناول الطعام والصمت واستمرت حالتهاثلاثة أشهر وفى يوم نطقت الصغيرة بعد أن افاقت من نومها مفزوعة من حلم رأته.. وجاءوا بالفكى لينظر فى حالتها وبشخصها فقصت عليه الصغيرة مارأته فى منامها «رجل طويل أسود اللون شعره كله من الودع وبيده اليمنى حربة وحوله مجموعة من الأطفال الصغار يضربون على الدلوكة «الطبلة بإيقاع عنيف وجاءت امرأة ضخمة الهيئة يتدلى على وجهها الودع وبيدها خنجر وهمت بقتل الفتاة لأنها لاتسمع الكلام وشخص الفكى الحالة فهؤلاء القوم الذى رأتهم الفتاة فى حلمها هم قوم من الجن وبعد قراءة التعاويذ حاور الإنس الجن وسألهم عن مرادهم من الفتاة وطلباتهم.

وفى صباح اليوم التالى خرج الفكى ووالدى الفتاة وعندما وصلوا لشاطىء النيل ربطوا الصغيرة بحبل وعصبوا عينيها بمنديل أحمر ولفوها بقماش أحمر وألقوا بها فى النهر وبعدما جاءهم الأمر من شيخ الجن لملموا الحبل وخرجت الفتاة حية.. لتروى مارأته فى قاع البحر أطفال صغار بيض البشرة ويلبسون الملابس الحمراء المزركشة بالودع.. أقبلوا على الإنسية واحتفلوا بها وأهدوها سبعة ودعات وتلك هى الإشارة فالجن يرغبون فى أن تعمل تلك الصغيرة معهم وتضرب الودع لتنبىء عن المستقبل فهى ترمى الودع وهم يخبرونها بالأحداث، وذلك نظير أن تقدم للجن

قربانا كل عام وهو عبارة عن ضأن أو عنزة ومنذ ذلك اليوم ومريم تضرب الودع وتحافظ على عهدها مع الجن.

وتلك هى زينب التى أصيبت فى طفولتها بحالة من الصرع ودق أهلها الزار حتى تبرأ من مرضها ولما حضر الأسياد أمروا الفتاة أن تحط الودع وهذا شرط لشفائها وحتى تنال الصغيرة صحتها نفذت الأوامر وحملت الودع لتجوب البلاد وتكشف عن المجهول لبنى البشر وتنال منهم المال الذى تقتسمه مع الجن ونصيب الجن هنا ليس دبيحة ولكنه ذرة تشتريه زينب بنصيبهم من المال وتنثره بين القبور فى نفس التوقيت من كل عام وهو الموعد الذى أبرمت فيه معهم.

وعائشة أيضا مرضت فى طفولتها وكادت الحمى تقضى عليها ولكن الفكى أنقذها بعد أن فتح المستور وعرف أن مرضها بسبب الجن وأسرع فى تقديم القربان ونحر الذبائح وكان ثمن شفاء الصغيرة هو ضربها للودع.

أما فاطمة أرى فقد رأت الجن بنفسها وأمروها أن تخرج للصحراء وتحفر أسفل شجرة حددوها لها.. وكان نصيبها سبعة ودعات حملتهم وعادت لكوخها وبعد سبعة ايام جاءوها ثانية وأخبروها بفن الصنعة.

الشىء الذى استرعى إنتباهى ولم أعرف له سببا أن ضاربى الودع كلهن من النساء ولاتجد امرأة تخط الرمل او تفتح الكتاب وكل نبؤاتهم تتسم بالسذاجة وكل الصور التشبيهية التى يتخذونها من البيئة ومن ثقافاتهم وتنبأنى مريم بأننى سوف التقى برجل أحمر وهى تقصد أنه ابيض البشرة أو تقول لى: إننى سوف اسافر باتجاه البحر او أننى مشغولة البال وهناك انسان يفكر فىّ، أو اننى سأحمل «مخلاية» وتعنى حقيبة وكل هذه التنبؤات أحداث عادية ليس لها دلالة ولاقيمة ويبدو أن أساتذتهم من الجن الذين يلقونهم بالغيب لايعلمون بالتكنولوجيا الحديثة.

«تيجانى» شاب صغير هجر بلدته المجاورة لمدنى وجاء للخرطوم سعيا وراء الرزق تعلم عن والده حرفة العلاج بالأعشاب وهو يخرج كل فترة للجبال باحثا عن الأعشاب يجمع البعض منها بنفسه ويشترى الآخر ويعرض بضاعته على الرصيف

ويأتيه المريض يصف له مايشكو منه يفتح «تيجانى» الكتاب ثم يخبره بالمرض والعلاج.

وشكوت لصديقى مرضى، صداع شديد وإعياء، ووضعت يدى على الكتاب الذى يمسكه تيجانى وأخذ هو فى تلاوة التعاويذ ثم أمرنى أن أفتحه ، الكتاب مكتوب بخط اليد وأوراقه قديمة مهلهلة وكلماته بدون نقط على الحروف ولم أتمكن من قراءته ولكن تيجانى أخبرنى بقدرى فالمرض الذى اشكو منه ليس له سببا عضوى ولكنه بسبب جن يسعى للانتقام منى لأننى ألقيت بالماء الساخن عليه حينما كان يسكن «عين التواليت» والعلاج هو إرضاء الجن بنحر ذبيحة وحمل حجاب يكتبه التيجانى.

وبالطبع أنا لاأومن بتلك الأقاويل ولكن لابد وأن اتظاهر بالإيمان بها حتى أتمكن من المكث إلى جوار هؤلاء الناس فى محاولة منى لفهم الظاهره.

والعلاج الذى أمرنى به تيجانى يكلفنى ألف جنيه فأبلغته أننى لاأملك المبلغ وعليه أن يبحث عن علاج أرخص فأمرنى أن أمر عليه بعد يومين حتى يتسنى له أن يستدعى الجن ويسأله الرأفة فى حالتى وبعد يومين عرفت أن الجن رحيم القلب وافق على أن أنحر له ارنب أبيض اللون وأطعمه لسبعة من المساكين وبالفعل اشتريت أرنبا وذهبت به لتيجانى فذبحه وقسمه سبعة أقسام وقمت بتوزيعه على بعض الفقراء وفعلت هذا بنية الصدقة وليس نزولا على رغبة الجن وهذا أتاح لى فرصة التقرب من تيجانى ومحاورته بشكل تفصيلى عن عمله.

ومن غرائب هذا العالم رجل يسأل الحمامة ويستخيرها فى أمر الخلق. رجل عجوز نحيف جدا يخيل إليك أنك تستطيع تعداد عظامه من شدة. بروزها يربط حول وسطه جلد فهد ومربوط حول ذراعيه وفخديه وفى رقبته مجموعة كبيرة من التمائم والأحجبة الفضية والجلدية وإلى جواره مخلاية من الجلد بها حاجياته ويمسك بيده حمامة وأمامه عدة أكوام من الرمل كل كومة لها دلالة ومعنى يعرفها هو جلست بجواره وأخبرته أننى غريبة عن البلد وأود الكشف عن مستقبلى أطلق عيسى البخور؛ رائحته غريبة ونفاذه، وأمسك بالحمامة واسر إليها اسمى واسم أمى ثم

اطلقها فطارت فى السماء انتظرت صامتة ناظرة إليه فجأة سقطت الحمامة فوق كومة من الرمل التى أمامه بدا على وجه الرجل الحزن ونظر إلىّ وقال: يابنتى انتى مالكيش مستقبل انت محبوسة ، حاولت ان اكتم نوبة الضحك التى تفجرت بداخلى وأنا اتذكر اغنية قارئة الفنجان فطريقى مسدود ، عيسى يعمق النظر فىّ وأنا منتظرة كلماته ليشرح لى اين ذهب المستقبل وهل الموت قريب ينطق عيسى ويخبرنى أننى مرصودة فقد قام أحد الجن الكبار وهو من العلماء المسيحين بحجبى عن النظر فلم يعد يرانى أى رجل وسألته لماذا؟ فقال لأنه يحبك فأعدت السؤال ويعدين إيه آخر الحب: فقال هو يريد أن يتزوجك فأجبته أنا ماعنديش مانع صرخ عيسى وقال لا، ليه ياعم عيسى، لأنك لو تزوجتيه سوف تنزلى لتعيشى معه... ياعم عيسى لازم يكون فىّ حل إما أنه يظهر لى ويتزوجنى وإما أن يرحل. لكن بلاش وقف الحال؟ يضحك الناس المحيطين بى ويشعر عيسى بروح السخرية فى حديثى فيغضب منى فاعتذرت له ووعدته أن أفعل ماينصحنى به عاد عيسى ليطلق البخور ثانية وطارت الحمامة وعادت لتقع على كومة أخرى من الرمل ينفرج وجه عيسى عن ابتسامة فقد جاء الفرج ووافق العالم المسيحى على الرحيل وفك سجنى بشرط أن أحمل حجابا يكتبه لى عيسى وألبس فى رقبتى عقد من الخرز الأحمر وأربط حول عضدى شـــريط أحمر وأنحر ذبيحة فى صباح يوم الأحد وتكون من الضـأن الأحمر.

ونفض عيسى جرابه وأخرج لى المطلوب الحجاب والشريط وعقد الخرز الأحمر وزجاجة صغيرة بها سائل أضعه فى الماء وأستحم به ويحذرنى عم عيسى من التهاون فى الامر لأن حياتى ومستقبلى مرهونة بالطاعة والاستجابة لأوامر العالم الجليل أعطيت عيسى مبلغا من المال وحملت منه علاجه وانصرفت .

فى اليوم التالى سافرت لشمال السودان وأهديت علاجه لبعض من قابلونى فهى هدية محببة لنفوسهم ولم اتمكن من نحر الخروف الاحمر لأننى اعانى من ازمة مالية ويبدو ان الجن لديهم ازمة ايضا فى اللحمة فكل طلباتهم من الذبائح وشىء مثير للضحك فاللحمة هى المشكلة الحية لبنى الانسان والجن معا .

بكسلا وفى منطقة جبل التاكا رأيت أغرب شيئا واجهته فى رحلتي. كنت اجلس وسط مجموعة من بدو قبيلة بنى عامر بخيمة، والظلام حالك فالقمر غاب وترك الصحراء وحيدة لاينيرها الا ضوء النجوم المنثورة بقية السماء وعلى ضوء الفانوس أبصرت أمامى رجلا يلبس بدلة وقميص بكرافتة على الرغم من اننا فى عز حر اغسطس ويحمل فى يده حقيبة جلدية أقبل عليّ والقى السلام على الحاضرين ووجه لى السؤال «ليه يامنى النزيف مستمر من انفك منذ شهور؟» انتابنى الفزع منه كيف عرف تلك الحقيقة فمنذ نزولى للسودان وانا مصابة بحالة نزيف من الانف نتيجة الارتفاع الشديد فى درجة الحرارة ولكنه شيئا خاصا بى ولايعرفه أحدا عنى.

جلس الرجل فى جوارى وقال لى : امك مشغولة عليك - جواباتك انقطعت عنها؟ فأجبته انه تعذر عليّ إرسال خطابات منذ نزولى لجنوب شرق السودان وقال لى انا سوف اطمئنك عليها فسألته كيف.. ولكنه صمت ورفع وجهه صوب عينيه تجاه الفانوس المعلق فى سقف الكوخ فأخذ يحملق فيه وهو صامت وبعد دقائق أخذ يصف لى مسكنى فى مصر ويصف لى أمى وأختى التى تجلس فى جوارها وكأنه ينظر بالفعل فى بيتى وطالت نظرته للفانوس وكثرت الحقائق التى يقولها عن أسرتى ثم قال لى مادحا فى شخصيتى وأخلاقى ثم متأسفا على حظى السيء فى الحياة وسألته عن سبب سوء الحظ فأخبرنى ان نجمى خفيف ولذلك فأنه يتأثر بالحسد سريعا ومعظم المشاكل التى اتعرض لها بحياتى نتيجة للحسد. مظهر الرجل وحديثه ينبأ عن علم وبالفعل صدق حدسى فقد تعلم السيد البشير على يد استاذ انجليزى علوم ماوراء الطبيعة والتى يسمونها «بارا سيكولوجى» والتى تهتم بتنمية قدرات الانسان الروحية كالقدرة على الجلاء البصرى والجلاء السمعى وأيضا المقدرة والسيطرة على الجسم البشرى، كان يوقف الدورة الدموية وعلى الرغم من قراءاتى الكثيرة فى هذا الموضوع الا اننى لم اصدق مقولة ان بإمكان الانسان ان يتحكم فى جسمه فيوقف قلبه او دورته الدموية عن العمل . وعلى الفور فتح السيد البشير حقيبته واخرج منها خنجرا وشمر عن ذراعيه وأخذ يقطع لحمه بالسكين وابصرت بعينى ذراعيه مفتوحة واللحم متدلى ولا أثر للدماء وكأن عروقه جافة تماما

الدهشة تملأنى ورأسى تدور بمئات الأسئلة ولا املك أية إجابة فغرابة الأمر تجعلك مذهولا مدهوشا ثم مر بكف يده على ذراعه فالتحم الفتح وكأن شيئا لم يكن ، واخرج زجاجة بلاستيك وأفرغ مابها من البنزين على نفسه وأشعل كبريتا .

فاصبح كتلة من النار صرخت، الرجل يحترق والرجال من حولى فروا جريا خوفا من الاحتراق وبعد دقائق نفض السيد البشير النار عنه وكأنه ينفض بعض الاتربة التى علقت به والرجل صحيح معافى لم تصبه النار بشيء .

نظر الىّ وقال : يابنتى دى علوم روحانية وليس لها أية علاقة بالجن وطلبت منه ان يعلمنى ولكنه ابلغنى ان الطريق صعب ويحتاج لسنوات حتى اصل وللبشير اصدقاء كثيرون فى جميع انحاء العالم يسافر اليهم بالروح.

روح الزار تسكن جسدى

دلونى ولاد الحلال على منزل «فاطمة آرى» شيخة الزار فى كسلا دققت الباب والصوت يعلو من الداخل «ادخلى» مررت بحوش كبير به بعض الطيور حتى انتهيت الى حجرة استقبلتنى فاطمة بالأحضان فقد علمت بمقدمى من عم صالح المشرف على استراحة القاش التى أقيم بها جلست لجوارها متسائلة عن معنى الزار وطقوسه ولكنها رفضت الحديث خشية ان تحضر الأسياد تمسك بجسمى ونصحتنى ان اقدم القربان للأسياد اولا حتى اكسب ودهم وطلبت شيئا من «اثرى» حتى تتعرف على نوع القربان المطلوب فلكل روح طلبات مختلفة عن الأرواح الأخرى وفى اليوم التالى جاءنى المرسال يبلغنى ان القربان المطلوب اربعة ازواج من الحمام الأبيض وخمسة كيلو ارز باللبن واسرعت لعم صالح أسئله المشورة ونصحنى هو الآخر بتنفيذ الاوامر طالما نويت حضور الزار.

وبعد ماقدمت فروض الطاعة أمسكت فاطمة بيدى ودخلنا غرفة بها عدة الزار وهى ١٤ بخارة أو طبلة وعدد كبير من السيوف والعصى والملابس وفتحت لى قلبها وعقلها وقالت لى : الروح أو الزار هو نوع من الجن غير شرير يتملك البشر ويمسهم ولايمكن التخلص منهم إلا عبر طقوس خاصة طابعها المرح والرقص على ايقاعات

الدفوف وإطلاق البخور فهو نوع من الجن اللعبى أو الجن النزهى وهذا النوع من الجن عاش بين السماء والأرض بعيدا عن سيطرة النبى سليمان وحينما أمرهم سليمان بالنزول إلى الأرض رفضوا إلا ان يستقبلهم اهل الارض بالرقص والغناء واطلاق البخور احتفالا بهم وتهليلا بقدومهم وهناك انواع كثيرة من الزار «الريح الأحمر ـ لولا الحبشية ـ الهدندوى ـ الجالا ـ حكيم باشا ـ الدرويش» ، ولكل منهم طلبات تختلف من روح لآخر وايضا لكل منهم نغمات موسيقية خاصة تدق بها الطبول والدفوف .

ومن تتملكه تلك الأرواح تظهر عليه بصورة سيكولوجية او عضوية كحالة من الاكتئاب النفسى او الآم بالظهر والمعدة وضعف عام .

والثقافة السودانية تسمح بقيام حفلات الزار حيث ان المريضة تذهب لاقرب مستشفى اذا كانت تقطن بالمدينة وتطلب منها موافقة مكتوبة على اعلان الزار وبهذه الورقة تتقدم الى اقرب قسم للبوليس وتحصل منه على الموافقة والحماية لحفلتها ولضيوفها.

وتبدأ الرحلة بأن تذهب المريضة الى «الكودية» او شيخة الزار وتعطيها شيئا من «أترها» وفى الليل ترقد الشيخة بعد ان تضع الآثر تحت رأسها مع بعض الحلوى والسكر فتأتى المريضة للشيخة فى المنام لتخبرها عن متاعبها وتكشف عن الأسياد وعما يطلبون منها.

وفى الصباح تذهب الشيخة لمنزل المريضة وتطلق البخور فيحل احد الأسياد نيابة عن الباقين ثم يتحدث بلسان المريض بما يريده الأسياد .

وتبدأ المريضة فى شراء الملابس والحلى والاطعمة والبخور وكل مايطلبه الاسياد وفى موعد ضرب الزار ينصب الكرسى فى مسكن المريضة ويقصد به كنس المكان ورشه بالماء ثم وضع منضدة كبيرة فوقها كل مالذ وطاب من الطعام والشراب والخمور وكل مايطلبه الاسياد. ومن حسن الحظ اننى حضرت عدة حفلات فى كسلا وفى بور سودان .

وكانت المريضة فتحية لديها عدة شيوخ منهم لولا الحبشية وعبد القادر الجيلانى والهدندوى وبناء عليه فقد أشترت الملابس الخاصة بكل شيخ وهى تحتفظ بتلك الملابس فى صندوق خاص بها طول العمر ولاتعيرهم لأحد.

وبدأت الحفلة بدخول فتحية وهى ترتدى توب اخضر وبطرف الثوب غطت وجهها واخذت تلف حول الكرسى ويتقدمها شيخ الزار وكان «ودهوله» شيخ مشايخ الزار ببور سودان وبعد ان لفت سبع مرات جلست على الارض واخذ ودهوله يطلق البخور ونزل الجميع لحلبة الرقص الدفوف وعددهم ٧ والطبول وعددهم ٧ الدقات تعلو والجميع يرقص رجالا ونساءا وتمر المرأة فوق البخور لتنال اكبر قسط من دخانه داخل ملابسها وتضع شيئا من النقود فى صندوق البخور وتظل المريضة ترقص حتى تسقط مغشيا عليها وتتوقف الطبول لتعود من جديد بأنغام عبد القادر الجيلانى وتلبس المريضة الملابس البيضاء ويعاد الرقص مرة ثانية وتسقط مغشيا عليها للمرة الثانية وهذا فى صالح المريضة والاغماء الذى يصيب المريضة دلالة صحية تعنى ان الارواح بدأت تغادر الجسم وتبدأ الوصلة التالية من الزار بدق طبول زار الحبش او لولا الحبشية ولبست فتحية جلباب وشال وطربوش من اللون الاحمر وعلقت على صدرها صليب من الذهب وجاءوا بخروف لونه احمر وكأنهم يوضؤونه بغسل وجهه ورأسه ور جله بالماء ثم غطوه بثوب ابيض وخلفه وقفت فتحية وست من النساء وجميعهن يحملن الشمع وينزلن لحلبة الرقص ويصاب الخروف بنوع من العصبية حتى انه يحرك رأسه يمينا ويسارا مثلهم وتأتى الإشارة ببدء عملية النحر بأن اعطى ودهوله الجزار قبضة من البن وأخرى من السكر وينحر الخروف وتتلقى الشيخة دمه فى صحن تقدمه للمريضة حتى ترتوى من الدماء وفتحية شربت مقدار فنجان من الدم ثم تناولته بقية النساء ليشربوا منه.

واستمرت الدفوف والبخارات تدق والرقص يستمر حتى سقط كل المدعوين مغشيا عليهم وعلى رأسهم المريضة ونظرت الى الشيخ ودهوله متحدية له فقد اقسم حينما رآنى اول مرة ان روح لولا الحبشية تسكن جسدى وانه بمجرد ان تدق الطبول سوف ارقص حتى الغشيان ولكننى حضرت عدة حفلات للزار ولم يحدث

مرة اننى رقصت معهم وداعبت الشيخ بقوله: « انا الزار بتاعى مايكل جاكسون وليس لولا الحبشية» فى كل حفلات الزار يشربون الخمور والسجائر ولكل روح نوع مفضل من الخمور فزار «ودبرنو» يفضل له الكونياك «ونمر الكندو» يحب الويسكى اما الحكيم باشا فمشروبه الأساسى البيرة.

وبعد عودة الوعى للمغشى عليهم تقدم الذبيحة فى شكل «شواء » ويقدم صحن للمريض به «المرارة» فتناولت ثلاث قطع منها ووضعتها فى اركان مسكنها ثم تناولت ثلاثا اخرى وتفعل هذا ايضا بالنسبة للحم وبعد ذلك يتناول المدعوين الطعام .

وفى نهاية اليوم تخصص غرفة للمريضة تنام فيها بمفردها ولايدخل عليها إلا الشيخ ليطمئن على حالتها.

وتكرر الاحداث فى اليوم التالى ويختتم اليوم الثالث بزار «شيخ منزو» ويذبح بنفس طريقة نحر الخروف ، والمريضة لبست جلبابا اسود وطاقية وتمارس نفس الطقوس السابقة ولكن الرقص فى هذا الزار يتصف بالعنف والإيقاع السريع والنغمات العالية ويقصد بـ «الشيخ منزو» روح الانسان الزنجي.

وتنتهى حفلات الزار بـ «زار الدراويش» ويغنى فيها المدائح النبوية وبعد تناول الغداء وحلول الظلام تخرج المريضة وخلفها النساء الى الشارع وهن يرفعن بأيديهن الى اعلا رؤوسهن وهذا الطقس يعرف بـ «التفكيك» ويعنى خروج الروح الشريرة من الجسم للابد .

(زار حبوبة)

اذا اشتكت المريضة من حالة انتفاخ شديد بالبطن ولاتستجيب حالتها للعلاج فعلى الفور تشخص الحالة بأن المريضة تتملكها «روح حبوبة» وتقام الحفلة وهى أقل فى الطقوس والتكلفة من الانواع الأخرى.

فبعد العشاء تلبس المريضة ثوب ابيض وطرحه من نفس نوع القماش «سكوبيس» ويذبح حمل صغير فى طشت كبير بحيث لاتسقط أية نقطة دم خارجه

ثم يغسل الحمل مثل غسل الميت ويلف فى سبع قطع من القماش الابيض كالكفن تماما ويوضع بجوار المريضة التى تنام على السرير وتطفأ الانوار ثم تضع الشيخة او الكودية سكين كبير على بطن المريضة وتضغط عليها بقوة وذلك مع تصاعد البخور والنغمات الموسيقية وتلف النساء حول السرير راقصات ومترنمات بأغنية حبوبة ينشدون الروح ان تخرج من الجسم ولايتوقف الرقص الا بعدما تعلن الكودية ان بطن المريضة عادت لطبيعتها بعدها تخرج النساء حاملة تابوت الحمل ويلقون به فى النيل .

(زار الجبنه)

الجبنة بفتح الجيم والباء هى مشروب القهوة ويذيع انتشاره فى كل الاقاليم السودانية وهناك اعتقاد بأن القهوة لها روح لابد من استرضائها حتى لاتغضب وتؤذى الناس وتبدأ الحفلة بتجمع كل السيدات فى حوش المنزل وتبدأ بعضهن والذى سمح لهن الشيخ «ودهوله» بصناعة الجبنة ويعطى الشيخ الإشارة ببدء الاحتفال فيحمل الجبنةبيده ووراءه سبع نساء كل منهن تحمل واحدة وسبع نساء أخريات ورائهن يحملن الصوانى والفناجين وامام صنم الزار «صندوق من الخشب مطعم كله بالخرز والودع» يلقى الشيخ ببعض القهوة على الارض ويتمتم ببعض الكلمات الأمهرية ويعود ثانية لحوش المسكن وخلفه النساء ويبدأ فى صب القهوة وتقدم لكل المدعوين بشرط ان تمسك الفنجان بكفوف اليدين معا وبعد الانتهاء يتم وضع الفنجان فى الصينية مع النقوط «بعض المال» وبعد الانتهاء تماما من شرب القهوة يقف الشيخ امام الصنم مرة ثانية وكأنه يستأذن فى اختتام الحفلة والانصراف وحفلة زار الجبنة تتم كل يوم أربعاء من كل اسبوع .

وقد حضرت عدة حفلات للزار بكل أشكاله وفى مناطق مختلفة وشيوخ الزار الذين قابلتهم فى السودان جميعهم اجمعوا على ان روحا شريرة لتلك الارواح قبل حضورى ودخولى لحفلات الزار الا ان هذا لم يغننى ولم يحمنى وكانت الوصية التى اتلقاها عند توديعى لشيخ الزار انه لابد ان اقيم الزار بعد عودتى لبلدى وان كنت احترمت تقاليد شـــيوخ الزار واسرعت بتقديم القرابين لكن هذا لايعنى اننى مقتنعة به.

فهو مجرد وسيلة للتفريغ الانفعالى للمريض حيث تساعد اصوات الطبول الصاخبة والرقصات العنيفة ورائحة البخور الأخاذ وشكل دم الذبيحة على إحداث حالة من الانهيار تعقبها غيبوبة وهى شبيهة بتلك التى تحدثها الصدمات الكهربائية فى علاج المرضى النفسانيين.

ولكن استمراره والتصاقه بالعالم الخفى عالم الجن والارواح هو من فعل مجموعة من الناس «الشيوخ» حرصا على مصلحتهم ووجودهم حيث لايخفى علينا ان الشيخ الذى يقود الزار يحصل على مبالغ كبيرة بخلاف الهدايا وبالإضافة الى السلطة الروحية التى يمارسونها على كل مرضاهم.

لاتصدقوهم اذا قالوا نحن ندافع عن الدين
(خمسة عشر يوما فى معسكر اللاجئين)

عبرت الحدود السودانية الى مدينة «تسنى» داخل الاراضى الاثيوبية مع جماعة من قبيلة بنى عامر وفى العودة وعلى الطريق فوجئنا بالطيران الحبشى يضرب الطريق بالقنابل وذلك فى اطار الصراع بين القوات الاثيوبية الارترية.

وكان الحل هو المكث بالمنطقة حتى ينتهى الحصار ولكنه دام خمسة عشر يوما ولم اجد بدأ من الإقامة داخل معسكر لمرضى الحمى الشوكية الذى أقامه «الصليب الأحمر الانجليزى» لعلاج المرض ورعاية اللاجئين.

الخيام متناثرة على ارض المعسكر تضم الاشباح بعد ان نهش المرض والجوع أجسامهم، عرايا الا من الخرق البالية الحزن يسكن صدورهم ويلون وجوههم.

اقتربت من هيكل عظمى متحرك لسيدة ولا اعرف عمرها وأظن انه مليون سنة من الهم والجوع لأقدم لها بعض الحلوى والبسكوت فقد كنت اعاون صديقتى «لوسى» الممرضة الانجليزية التى تركت بلاد الثلج والرخاء وجاءت تمد يد العون للفقراء. وسعدت السيدة كثيرا حينما حدثتها بلغتها البجاوية وبدا الرضا على وجهها باللقيمات والحلوى التى قدمتها لها ولأطفالها وهممت بمغادرة

كوخها ولكنها امسكت بطرف ثوبى فجلست فى جوارها لأسمع رجائها فأمسكت بطرف الخرقة الملفوفة على وسطها وفكت عنه عقدة كانت معقودة على خاتم قديم واعطته لى؛ وانتظرت كلامها فقالت: «مات زوجى وولدى .. وليس لى سوى هاتين الطفلتين.. خذيهم معك يخدموكى نظير اطعامك لهما وحمايتك لهما فى بلدك انا بسمع ان مصر امان».

ماذا اقول وكيف اقنع تلك السيدة التى قتلها الهلع والرعب فقبلت ان تتبع اولادها ثمنا لحياتهم وامنهم بأن امامى بلاداً كثيرة سأرحل اليها وانه من الصعب الرجوع لبلدى ومعى اطفال بدون جواز سفر فهى لاتعرف ان هناك حدودا تفصل بين البشر لاتعرف ان الحضارة جاءت ومعها كل الاشكال والانواع من الحدود.

ولم استطع توصيل تلك المعانى لها وتركتها وهى مقتنعة اننى قاسية القلب رفضت ان امد لها يد العون ويعلم الله اننى تركتها وقلبى ممزق من الحسرة والالم.ومن بين الاكواخ كوخ ينبعث منه نغمات البسنكوب «آله موسيقية تشبه العود ولكنها خماسية النغمات» قادتنى خطواتى اليه وجلست استمع وعلى الرغم ان الموسيقى الخماسية غير مالوفة لي.. الا اننى وجدت نفسى مشدودة للموسيقى وتحرك الشجن والحزن بداخلي والشيخ العجوز العازف لايتوقف كلما أنهى معزوفة بدأ فى غيرها،تحركت فى جلستى فى محاولة أن استند الى ظهر الكوخ فاصطدمت بشىء ملفوف وملقى على جانب الكوخ وبادرنى الشيخ قائلا: «ده ابنى .. ميت أنا منتظر ان يموت اخيه واشار بيده داخل الكوخ الى شاب يبلغ ١٣ عاما تقريبا وفى النزع الاخير .. اصل انا ماقدرش احفر القبر مرتين» ويعود العجوز إلى بسنكوبه يبثه حزنه وألمه ويشكو له من الإنسان الذى استجمع كل قواه ليدمر ويدمر كل لحن جميل فى الحياة.

وعجزت عن مواساة الرجل وكل ماصنعته اننى عاونته فى حفر القبر وموارة أولاده الثرى.

وكأن تلك المعاناة اقل من احتمال البشر فطار الطيران الحبشى فى السماء

ملقيا بالقنابل على المعسكر اذا ربما يكون مختبئا فيه احد افراد الجيش الارترى.
النار اشتعلت فى الخيام والصراخ والصيحات علت لعنان السماء والدماء وأشلاء
البشر تغطى ارض المعسكر وتنادينى صديقتى لوسى لنسرع بالرحيل ونحتمى
بالجبل حتى لايقبض الاحباش علينا وترحل طائراتهم ، أسرع وأنا حاملة لعدتى
«كاميرا - تسجيل» ولكن العجوز الملقاه على الارض تمسك بقدمى وتحول دون
هرولتى ، هى لاتعرف ماذا تقول فاللغة عائق بيننا فهى لاتعرف اللغة العربية وانا
لاأعرف الامهرية.. ولكن هل يحتاج الموقف للكلام؟ القيت بعدتى على الارض وحملت
العجوز وسرت بها.. لوسى نجت بنفسها.. وانا وسط الشظايا والاشلاء والدماء
والعجوز فوق كتفى لاأعرف كيف حملتها فقد كنت مريضة بحمى الملاريا علاوة على
الضعف والهزال الذى أصابنى من رحلتى بالصحراء واسفل الجبل وضعت العجوز.

انتابتنى حالة من الهياج العصبى وانا اصرخ فى الطيارين الاثيوبيين وهم
يطلون برؤوسهم من الطائرة التى تحلق على ارتفاع منخفض ليشاهدوا ويستمتعوا
بشكل الاشلاء والدماء.

وسيطرت علىّ رغبة ان اعتلى أعلى قمة فى العالم لاناشد الشعوب فى كل مكان
لأؤكد لهم انه ليس هناك من يدافع عن الدين فالدين فى قلوب البشر وعرش الله فى
قلوب خلقه وهم يقتلون القلوب .. فكل تلك الابواق المتشدقة بالدين هى ابواق تروج
للحرب ليس لصالح الله ولكن لصالح تجار السلاح ومصانع السلاح .

وانتابتنى حالة من الغيبوبة نتيجة للانهيار العصبى الذى اصابنى من المشاهد
المروعة واصوات القنابل وحينما عاد إليه الوعى وجدت نفسى باستراحة القاش التى
اقيم بها بمدينة كسلا بالسودان فقد حملتنى لوسى والطبيب مايكل فى سيارتهم فى
محاولة للنجاة من بحر الموت .

٩

الحـــــدود

إن فكرة الحدود قديمة قدم البشرية لأنها ارتبطت بمفهوم الملكية، حيث كانت تعيش القبائل الرعوية أو التى تعيش على الصيد والقنص بشكل منتشر على مساحات واسعة فى محاولة لاستغلال موارد البيئة القليلة والنادرة فى بعض الاحيان. ولم تتبلور تلك الفكرة بشكل محدد الا مع معرفة فنون الزراعة والاستقرار حول الارض حيث بدأت فكرة الملكية الخاصة وظهرت الحاجة إلى إقامة الحدود أو الفواصل بين الملكيات الزراعية الخاصة بعضها عن بعض وايجاد نوع من السلطة عليها وغالبا ماكانت تستخدم الظواهر الجغرافية كفواصل بين المليكات مثل نهر أو جبل وأراضى شاسعة من الصحراء أو السفانا.

ومع النمو المتزايد فى تعداد السكان والحاجة لمزيد من مصادر الغذاء فقد اضطرت المجتمعات باستغلال تلك المساحات والتى كانت بمثابة الحدود الفاصلة وقد ترتب على هذا انكماش الحدود وتماس الجماعات المستقرة على الارض.

ومع النمو الاكثر تحديدا للدول. كان لابد من تحديد إقليم الدولة بخطوط حدية دقيقة تعين الإطار الجغرافى الذى تمارس فيه الدولة سلطاتها الامنية والاقتصادية والسياسية وتلك الخطوط تحدد ملكية الدولة على السياسة والمجال الجوى ايضا.

تخطيط حدود الدول العربية

حينما نتحدث عن الدول العربية فيكون المقصود ارض الاسلام وهى البقعة الجغرافية الممتدة الاطراف من الخليج للمحيط والتى وحد الاسلام بين شعوبها وثقافتهم المختلفة وماقبل ذلك يكون الحديث عن الحضارات القديمة وأهمها حضارة المصريين القدماء وكانت على ارض مصر والحضارة البابلية التى نمت بأرض

العراق وايران والحضارة الاشورية بأرض الشام وحضارة سبأ بأرض اليمن والجزيرة العربية. وتلك الحضارات امتدت بمساحات شاسعة وشملت عدة دول بالتقسيم الحديث، ويصعب تحديدها بشكل جغرافى.

وبعد قيام الدولة الاسلامية كانت هناك فواصل أو حدود إدارية تهدف إلى تنظيم عمليات الحكم والسيطرة على الأمة المترامية الاطراف، ولم تظهر فكرة ترسيم الحدود وظهور الدولة الحديثة إلا بعد هزيمة تركيا فى الحرب العالمية الأولى وتنازلها عن الخلافة وملكية الاراضى العربية، وقد أعتمد الاستعمار فى تخطيطه للحدود الفاصلة بين الدول العربية وفى كثير من الأحيان على الخطوط الإدارية القديمة والتى كان معمولا بها فى زمن الخلافة العثمانية .

وهذا يؤكد لنا حقيقة أن نشأة الحدود العربية واقع يسبق نشأة الدول العربية وتلك الحدود فرضت على الشعوب ولم يكن لهم رأى فى تخطيطها وبالتالى فإنها بشكل أو بآخر غير مرضية لكل الاطراف وهذا هو السبب الرئيسى وراء الخلافات الخفية او الظاهرة بين كل الدول العربية حول حدودها والادعاءات التاريخية لكل دولة فى أرض وممتلكات الدولة الأخري. والواقع يطرح علينا الخلافات حول الحدود وعلى سبيل المثال المغرب وموريتانيا ـ تونس، الجزائر ـ مصر وليبيا ـ مصر والسودان حول حلايب ـ الخليج العربى والسعودية ـ العراق والكويت ـ وقد كانت حرب الخليج نتيجة لصراع حدودى بينهم.

الدول العربية بعد الاستقلال

كانت القضية الملحة والمطروحة على الساحة فى بداية الخمسينات استقلال الدول العربية ورحيل الاستعمار عن أرضها وقد تم ذلك بشكل متوال فى ضوء مفهوم القومية العربية والطرح الناصرى الذى كان يهدف إلى تحقيق حلم الوحدة السياسية ولذلك كانت قضية الحدود والمشاكل المرتبطة بها قضية هامشية فى الواقع العربى أنذاك فقد عمدت القيادات السياسية الى تجاهلها لسببين أولهما أنها شائكة جدا أو الفصل فيها بشكل يرضى جميع الأطراف أمر شبه مستحيل

وثانيهما هو الأمل فى تحقيق حلم الوحدة السياسية الذى سيقلل ويخفف من وطأة تلك المشكلة وربما يمحوها تماما.

ولكن مع ضياع الحلم وتغير حالة النظام العربى من التماسك النسبى إلى التردى شبه الشامل وخلل توازن القوى العربية داخل النظام الجزئى والكلى ظهرت وبرزت على الساحة القضايا الحدودية وبشكل مرعب فلم تعد القضية مجرد حدود جغرافية ولكنها تضمنت شرعية الوجود والتفاعلات مع الكيانات المجاورة، والاستغلال الاقتصادى للموارد وممارسة السيادة بالإضافة إلى القضية الأمنية والاسلوب الغالب فى حل المنازعات الحدودية

وتعبتر العلاقات السياسية بين الدول العربية وبالتحديد بين الأنظمة الحاكمة والعلاقة الشخصية بين الحكام هى الفيصل فى طرح المنازعات وحلها، فطالما كان هناك تآلف بين حاكمين متجاورين أقفل ملف المنازعات واصبح الانسجام الشخصى او الايدلوجى اقوى من الحجج التاريخية والوثائق اما اذا كان هناك خلاف بين اشخاص الحكام وهو الغالب فى العالم العربى فالنزاع الحدودى يصبح قضية قومية يتحرك لاجلها الجيش وتصبح أجهزة الاعلام ابواق التعبئة العامة ضد الدولة الأخرى.

والدليل على ذلك ان قصة الصراع حول مثلث حلايب بين مصر والسودان تتذبذب مع التوجهات السياسية ففى عام ١٩٥٨ تقدمت حكومة السودان بشكوى الى مجلس الأمن ولما كان نظام جمال عبد الناصر يقف على طرف الخصومة مع معظم أعضاء مجلس الأمن انذاك فقد تدخلت التوجهات العالمية فى معالجة المشكلة حيث كان إتجاه الحكم فى السودان يحظى بقبول وتعاطف الغرب وبالتالى كان موقف مصر ضعيفا لأنه الجانب الذى يعتمد على الحقوق التاريخية والوثائق.

وبعدما تغيرت الاتجاهات السياسية واصبح هناك توافقا بين القيادات السياسية فى مصر والسودان فى عهد الفريق عبود أو خلال حكم النميرى.. انزوت مشكلة حلايب وراء الستار لمدة ثلاثين عاما ثم كشف الستار عنها ثانية بعدما تولت جبهة الإنقاذ الإسلامية الحكم فى السودان.

ولاشك أن الأسلوب العاطفى المستخدم لحسم النزاعات العربية حول الحدود يبتعد كثيرا عن الموضوعية ويعرض الأمة العربية لمخاطر كبيرة ولعل حرب الخليج إحدى تلك المخاطر.

حلايب فى التاريخ القديم

بعد أن فقدت الدولة المصرية القدرة فى السيطرة على جنوب مصر، قويت قبيلة البجا التى تسكن الصحراء الشرقية وأخذت تغير على سكان وادى النيل فى النيل، وتقوم بأعمال السلب والنهب وتعود ثانية للصحراء معتمدة على تفوقها المتعلق بعلمها بطرق الصحراء ودروبها وأماكن تواجد المياه وهى المعين الأول على الحياة واستطاعت البجا أن تفرض سيطرتها على جنوب مصر لمدة قرن من الزمان من (٤٢٥:٥٢٥)م.

ودارت معركة كبيرة بين البجا والرومان الذين فرضوا سيطرتهم على مصر بعد اضمحلال الدولة المصرية القديمة وهدم الرومان معبد «ايزيس» الموجود بجزيرة «بجة» والذى كان يحج اليه البجا فى عام ٥٣٨م. وتقهقرت البجا وانعزلت داخل موطنها ونزل الرومان إلى الصحراء لإحكام السيطرة على البجا وأيضا لاستغلال مناجم الذهب المنتشرة بوادى عباد ووادى العلاقى.

وأنشأت البجا ميناء حلايب أو «إيديهاب» كمحاولة لإيجاد مصدرا للدخل يعوضهم عن السلب والنهب لسكان وادى النيل، وقد ورد ذكر الميناء فى كتب الرحالة القدماء منذ عام ٦٠٠م. واستخدمت مراكب بدائية لتحمل التجارة بين مصر والجانب الآخر: اليمن والجزيرة العربية والهند، وهى عبارة عن جذوع نخل الدوم الملتصقة والمربوطة بحبال التيل، وذاع صيت الميناء وزاد معه حجم التجارة من العبيد والمنتجات الأخرى كالتوابل وجلود الحيوان وريش النعام والبخور. وزاد معه ايضا دخل البجا وازدادوا ثراء وأصبح الميناء الرئيسى والوحيد لنقل حجاج افريقيا إلى الأراضى الحجازية. ولما كان ميناء حلايب يقع فى أطراف الصحراء المصرية فقد خضع للسلطان المصرى الذى ارسل نائبا عنه ليقيم به بهدف الاشراف على إدارة الميناء وجباية الضرائب التى بلغت ٣١٪ من الدخل الكلى . وقد أثبت ابن

بطوطة ذلك فى رحلاته حيث التقى بنائب السلطان عام ١٣٢٦م. حينما عبر حلايب الى جدة على الجانب الاخر، ولكن البجا بشراستتها المعهودة وجشعها الدائم دفعت الحكومة المصرية لهدم المعبد، فقد كانت تسلب وتنهب أموال الحجاج وامتعتهم وتقتل منهم الكثيرين وتعالت صراخات الحجاج لسلطان مصر ليحميهم من البجا وفى ذات الوقت كانت تدور المعارك على نهر النيل واطراف الصحراء بين الجيوش العربية والجيوش البجاوية فالثانية تقاوم وتحارب انتشار الإسلام، ودارت اربع معارك كبيرة انتهت كل واحدة بعقد اتفاقية هدنة وسلام ولكن سرعان ماتنقضها البجا وتعود ثانية للحرب.

أعتلى حكم مصر «بيبرس» وأعد العدة ووضع الخطة للقضاء على البجا وبنى خطته على كسر شوكة البجا بتدمير الميناء الذى يسيطرون عليه، وفى عام ١٤٢٦م. خرجت الجيوش من النيل متوجهة الى داخل الصحراء عبر وادى العلاقى وتحركت المراكب المحملة بالحجارة والدبش من ميناء القصير متوجهة جنوبا الى حلايب والمسافة بينهم تزيد عن ٥٠٠ ك.م ودارت المعركة وكان على أثرها تدمير ميناء حلايب وتدمير مدينة سواكن القديمة التى كانت قائمة على خدمة الميناء ويسكنها التجار وشيوخ البجا وهى تقع فى المنطقة الواقعة بين (ابو رماد / حلايب) وبالقرب من الساحل مباشرة.

ومازالت الحجارة البيضاء ترقد هناك وتحتفظ اسفلها جانباً كبيراً من تاريخ تلك المدينة العريقة التى استمرت لمدة تزيد عن ٨٥٦ سنة تخدم التجارة بين مصر وافريقيا وبين الجانب الآخر من ساحل البحر الاحمر.

ومنيت مصر بخسارة فادحة من هدم الميناء وفقدان مصدر مهم للدخل فأسرعت الخطى نحو انشاء ميناء جديد وسمى بنفس الأسم «سواكن» وألحق به كلمة الجديد للتفرقة بينه وبين حلايب ويقع على خط عرض ١٨° وتولت قبيلة الأرقيقة وهى فرع من البجا إدارته فى عام ١٥٢٠م ودبت الغيرة فى قلوب العبابدة والبشارية وهما الفرعان اللذان كانت لهم السيطرة على ميناء سواكن القديم مما دفع البعض منهم

للهجرة إلى سواكن الجديد للعمل بالميناء وتوالت هجرات البدو منذ عام ١٧٠٠م واتقسمت على أثرها قبيلتى العبابدة والبشارية الى نصفين الأول يعيش على أرض مصر والآخر يقطن بربر والدامر وعطبرة فى شمال السودان وكسلا، وبعلوك وقوزرجب فى جنوب شرق السودان وتم فتح السودان على أيدى قوات محمد على باشا فى عام ١٨٢٠ وأصبحت الاراضى الممتدة حتى خط عرض ١٤° تابعة لمصر وفى عام ١٨٦٥ صدر فرمان عثمانى من الباب العالى باسطنبول يقضى بملكية مصر لميناء سواكن الجديد وتم إخضاعه إداريا وماليا لمصر. وتم تعيين أحمد ممتاز باشا حاكما لشرق السودان والذى فى عهده تم توسيع الميناء وبناء المدينة والمبانى الحكومية وتوفير الخدمات مثل مياه الشرب النقية وتطورت الأمور سريعا فاندلعت الثورة المهدية فى السودان ووصلت الى الشرق بقيادة عثمان دقنة الذى كان يعد من أكبر تجار الرقيق وانضم الى المهديين بعد ان صدرت الأوامر والقرارات الدولية بتحريم تجارة العبيد. ودارت الحروب على أرض البشارية بين عثمان دقنة وأتباعه من المهدية وبعض المتحمسين من قبائل العبابدة والبشارية وبين البعض الآخر لنفس القبائل يدعمهم الجيش المصرى فى معركة بوادى «مسيح» عرفت بحرب الدراويش وكان النصر حليف الفريق الثانى فى عام ١٨٩١. وانسحب على أثرها عثمان دقنة وفريقه الى بور سودان والمناطق المتاخمة له ودبت العداوة ولازالت مستمرة ليومنا هذا بين فرعى العبابدة والبشارية الموالية لمصر وللطريقة الميرغنية المستقرين على أرض مصر وبين فرعى العبابدة والبشارية الموالين للسودان وللطريقة المهدية والمستقرين على ارض السودان حول نهر عطبرة.

وكانت النتيجة لهذا الانقسام ان تحولت نظارة القبائل وتمركزت بالسودان حيث نجد ان ناظر قبيلة العبابدة «حسين باشا خليفة واولاده» فى بلده بربر على نهر النيل ونظاره البشارية «على كرار» ببلده بعلوك على نهر عطبرة ولقد كان لهم دورا رئيسيا فى تخطيط الحدود الإدارية بين مصر والسودان فيما بعد اتفاقية ١٨٩٩.

وبعد القضاء على الثورة المهدية افصحت انجلترا عن نواياها وتتلخص فى فصل السودان عن مصر حتى يسهل التهامها واحتلالها وكانت أولى الخطوات هى

رسم الحدود الجنوبية المعلنة لانتهاء السيادة المصرية وجاءت اتفاقية ١٨٩٩ التى تمت بين انجلترا العظمى والباب العالى فى اسطنبول متضمنة تسعة بنود أولها وأهمها وهو الخاص بخط الحدود وينص على ان خط عرض ٢٢° هو الخط المحدد لحدود مصر الجنوبية والأرض التى تليه يطلق عليها اسم السودان وأعلنت الاتفاقية فى ١/١٩ وبعدها بشهرين صدر قرار وزير الداخلية المصرى فى ١٨٩٩/٣/٢٦ يقضى بفصل ٣٧ كم شمال وادى حلفا لاخضاعها للإدارة السودانية والهدف من ذلك إيجاد منفذا للملاحة السودانية بنهر النيل على جزيرة «فرس».

وبعد تنفيذ الأوامر الإدارية الخاصة بذلك القرار بدأت المناوات حول الساحل وإدارة شئون البدو بإيعاز من ناظر البشارية «أحمد كرار» المقيم بمدينة بعلوك طرحت التصورات حول اقتطاع جزء من الأراضى المصرية لوضعها تحت الإدارة السودانية واستمرت المداولات من عام ١٩٠٢ حتى صدر قرار وزير الداخلية المصرى مصطفى باشا فهمى فى عام ١٩٠٧ يقضى بفصل مثلث حلايب ووضعه تحت الإدارة السودانية ومثلث بارتازوجا لوضعه تحت الإدارة المصرية وبذلك تحقق هدف ناظر البشارية بإخضاع القبائل الموجودة بالمثلث لإدارته وتمكنه من جمع الضرائب منهم والتى تبلغ حصته ٧٥٪ منها والباقى تأخذه الإدارة المصرية. وتحقق هدف الانجليز من ضم المثلث لإدارته للاستفادة من الثروات المعدنية المتوفرة بالمنطقة بالاضافة الى خزان المياه الجوفية الموجود بمنطقة وادى حوضين وقد أفشى «جليشن» السر وراء الاهتمام الانجليزى بتلك القضية وقد خرجت المبررات آنذاك لتعلن أن هذا التقسيم يهدف صالح قبائل العبابدة والبشارية ولكن تاريخ البجا يكذب هذا المبرر حيث تجمعت القبائل القاطنة للأراضى التى نزعت من تحت الإدارة المصرية وتقدموا بشكوى الى السلطان المصرى يلتمسون منه العدول عن القرار واستمرارهم تحت الإدارة المصرية ولكن اصواتهم ذهبت هباء.

وصـــدرت الخرائط المصرية والســـودانية متضمنة الحدود الســياسية والإدارية معا.

حلايب فى التاريخ الحديث

ظهر الصراع حول مثلث حلايب على ساحة العلاقات المصرية السودانية فى فبراير عام ١٩٥٨ ثم عاد مرة ثانية فى عام ١٩٩١ ويرتبط تصعيد المشكلة بسوء العلاقات السائدة بين النظم الحاكمة والسائدة فى كل بلد، وتقدمت السودان فى كل مرة بشكوى الى مجلس الأمن تدعى فيها باحتلال مصر لأرض سودانية وتشكلت لجنة ممثلة من البلدين لبحث المشكلة ومحاولة الوصول إلى حسم لها وكل جانب لديه الحجم التى يتستند إليها لإثبات حقه فى المثلث الإدارى والذى تبلغ مساحته ٢٦ ألف كم^2 فماهى؟

أولا : الجانب السودانى

١ – إن الحياة الفعلية من جانب السودان لمثلث حلايب ومثلث وداى حلفا بمقتضى القرارات التى أصدرها وزير الداخلية المصرى استنادا لاتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩ والتى استمرت لفترة تزيد عن ستين عاما تعتبر دليلا حاسما يقطع بسيادة السودان على المناطق واقرارا بأنها جزء لايتجزأ من الاراضى السودانية.

٢ – إن قبول مصر للتعديلات التى دخلت على الحدود السياسية وقبولها لإدارة السودان لتلك المناطق طوال السنوات التى سبقت عام ١٩٥٨ دليل إثبات قوى يمكن الاستناد إليه فى القول بأنها قد تنازلت عن حقوقها السيادية فى تلك المناطق.

٣ – إن مصر فى إعترافها باستقلال السودان عام ١٩٥٦ لم يتضمن اعترافها أية تحفظات بشأن الحدود وهو مايمكن تفسيره بأنه إما أنها كانت تدرك عدم وجود أية مطالب لها فى هذه المناطق أصلا وإما أنها قد تنازلت عنها نهائيا.

٤ – إن مصر لم تتحفظ بشأن ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية وقد جاء به بند يحث الأعضاء على احترام الحدود الموروثة منذ عهد الاستعمار وقد تم إقراره من جانب مؤتمر رؤساء الدول الأفريقية عام ١٩٦٤.

ثانيا : الجانب المصرى

١ – إن التعديلات الإدارية التى تمت، صدرت بقرار من وزير الداخلية المصرى وهدفت التيسير على القبائل التى تعيش بالمنطقة.

٢ – لم يحدث أن ابرمت أية إتفاقيات دولية سواء بين مصر وبريطانيا أو بين مصر والسودان لإضفاء صفة الدولية على تلك التعديلات، وظلت تلك التعديلات توضح بالخرائط ويلصق بها كلمة إدارية للتفرقة بينها وبين الحدود الأساسية وهى السياسية «خط ٢٢°».

٣ – إن مصر لم تتنازل عن سيادتها عن تلك المناطق سواء قبل أو بعد الثورة ففى عام ١٩٠٨ أقيمت بحلايب نقطة شرطة مصرية ويخدم بها ضابط وبعض المعاونين المصريين وكانت عبارة عن كوخ من سعف الدوم مثل مبانى المنطقة فى ذلك الوقت، وكانت خاضعة لمأمور أسوان ورفع عليها العلم المصرى. وظل الوجود المصرى بالمنطقة إلى عام ١٩٢٤ حيث أجبر الجيش المصرى على الخروج من السودان. ولكن عاد مرة ثانية عام ١٩٣٦ بالإضافة إلى أن مصر كانت خاضعة لسيادة الباب العالى ولم تكن تملك الحق فى التنازل عن أى جزء من أراضيها.

وبعد الثورة واستقلال مصر والسودان انتشرت قوات حرس الحدود المصرية بالمنطقة «كان قائدهم رفعت الجوهرى وله عدة مؤلفات منها شريحة الصحراء عن السكان وتوزيعهم وعاداتهم» وأنشئت شركة علبة المصرية لاستخراج المعادن بالمنطقة عام ١٩٥٤ وظلت تباشر عملها حتى تم إدماجها فى شركة النصر للفوسفات عام ١٩٦٣، وظلت. تعمل حتى ١٩٨٨ وهو التوقيت التى بدأت تتحرش فيه القيادة السودانية بالمهندسين والعاملين بها وتعرقل وجودهم وعملهم، ومما يجدر الإشارة إليه أن النشاط التعدينى بالمنطقة بدأ منذ عام ١٩١٠ وكانت الحكومة المصرية هى المسئولة عن منح التراخيص وإبرام العقود بشأن استغلال المعادن المنتشرة بجبال علبة.

٤ – إن مصر ارسلت مذكرة للسودان بتاريخ ٤ فبراير عام ١٩٥٨ تطلب فيها استرجاع الإقليمين اللذين تديرهما السودان وهما واقعين شمال خط ٢٢°.

٥ – إن السودان سواء قبل أو بعد الاستقلال لم تمارس اى نوع من السيادة على مثلث حلايب، فقبل الاستقلال كان المثلث خاضعا للاهتمام المصرى، وبعد الاستقلال لم تمد السودان المنطقة بأية خدمات «إسكان – مواصلات وطرق –

كهرباء ـ مياه نقية ـ مشروعات للتنمية كالزراعة أو الصيد» وقد تحملت شركة النصر للفوسفات مسئولية توفير مياه الشرب والمواد الغذائية لسكان حلايب.

ويهمنى الإشارة إلى أننى دخلت حلايب أول مرة عام ١٩٨٢ ولم يكن بها أى مظهر للسيادة السودانية سوى نقطة بها ضابط وأربعة عساكر فى مبنى قديم من الحجارة، وكانوا يشكون من عدم اهتمام قياداتهم بتوفير الماء والغذاء لهم ، ومن المفارقات الغريبة أنهم كانوا يحصلون على مياه الشرب والطعام والبنزين من المصريين العاملين بقاعدة الجراد المصرية بمنطقة أبو رماد أو شركة النصر للفوسفات.

وبعد تولى الصادق المهدى الحكومة بدأ الاهتمام بحلايب فتم بناء وحدة صحية ومدرسة ولكن تظل الإمكانيات السودانية قاصرة عن تنمية المنطقة خاصة وانها تقع فى الطرف الشمالى الشرقى والطريق إليها من بورسودان غير ممهد فمازال « مدق » ولاتعبره سوى سيارات النقل «السفنجة».

ونجد بعد هذا الطرح أن الأسانيد التى يدفع الجانب السودانى مردود عليها بالقانون الدولى.

وفى ظل القانون الدولى والاتفاقيات المبرمة بين الجانبين يكون الحق مع مصر فى منطقة المثلث الإدارى إلا أن الاعتبارات والروابط الخاصة بواقع وحقيقة العلاقات المصرية السودانية تقضى بضرورة معالجة المشكلة فى إطار يتوخى المصلحة لشعبى وادى النيل بعيدا عن أية تدخلات خارجية.



حلايب مصرية

أود فى بداية حديثى اليكم أن أوضح نقطة مهمة وهى أن مناط عملى وأبحاثى هو العلوم الاجتماعية وقد تخصصت فى علم الأنثروبولوجيا الجمالية الذى يهتم بدراسة الجمال والفن لدى الشعوب البسيطة. وهذا هو ماكنت ابحثه داخل كيان قبائل البجا التى تسكن الصحراء الشرقية. والفن يكشف عن وجدان الشعوب بكل مااختزن فيه عبر آلاف السنين ولايمكن دراسة فن شعب من الشعوب وتتبع دوره ووظيفته إلا بالمعرفة الكاملة لتاريخ هذا الشعب بالإضافة إلى شكل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية التى يحياها. وقد حرصت على دراسة البجا بشكل متكامل مع التركيز على فنونه ولم يكن اهتمامى بالجانب السياسى إلا بالقدر الذى يساهم به فى النشاط الفنى.

وحياتى مع البدو فى الصحراء الشرقية بامتداد ساحل البحر الأحمر فى مصر والسودان والحبشة حتمت علىَّ أن أعيش مشكلة حلايب المطروحة على الساحة المصرية السودانية اليوم فهى سبب لكثير من المشاكل بين السكان وكادت فى يوم من الأيام أن تقودنى للمحاكمة داخل الخرطوم بتهمة التسلل عبر الحدود. فالحقيقة أننى منذ بدأت أبحاثى عام ١٩٨٢ عبرت الصحراء فى اتجاه الجنوب مرارا ، وفى البداية لم يكن هناك اى موانع تعوقنى واقصد بالموانع فقط الحدود أو التفتيش وفى رحلتى فى شتاء ١٩٨٧ فوجئت بجندى سودانى وفى الغالب أنه من سكان الغرب حيث تبدو عليه الملامح الزنجية يعترض على وجودى ومتحمس بشدة للقبض علىّ وحاولت ان استوضح منه الأمر ولكنه فى الغالب لايعرف شيئا سوى تنفيذ الأوامر وهذا حال اقرانه فى كل مكان. فشلت المحاولات فهو لايفهم ولايريد ان يفهم وضعى بالمنطقة ولم يهتم بالاطلاع على أوراقى . اشتعل الجدل بيننا وكان لابد من حسم الموقف فى نقطة شرطة حلايب. انتظرت ساعات حتى وجدنا سيارة ننتقل بها من

جبل علبة الى حلايب. قادني الشاويش الي مبنى قديم متهالك اصفر اللون وتحيط به اشجار الدوم. ومررنا بعدة طرقات ثم اودعني عند احد الأبواب.. وقفت انتظر المصير المجهول، الخوف يعتصرني .. فقضية التسلل عبر الحدود ليست بالأمر الهين.

نعم ارض مصرية

أقبل الضابط «سر الختم» نحوى مرحبا ومعتذرا وامتدت يدى اليه بأوراقى الرسمية ليتحقق من شخصيتي وعن طبيعة بحثي. فأعاد اليّ اوراقى وقال أهلا بك فى السودان فأجبته أننى على ارض مصرية بدليل الخرائط وبأدلة أخرى كوجود شركة النصر للفوسفات فى «أبو رماد» والقاعدة التابعة لوزارة الزراعة وتقوم بأعمال مقاومة الجراد وأيضا بانتشار نقطة المراقبة الجوية التابعة للطيران المصرى وأننى احمل كل التصاريح الأمنية التى تسمح بوجودى فى المنطقة بالاضافة الى قرار الحاكم العسكرى المصرى الذى ينص على انه من حق أى مصرى ان يوجد على جزء من أرض مصر داخل حدوده السياسية ضحك الضابط بشكل طمأننى وقال لى : «انت حافظة القرارات» بالتاكيد لابد أن أعرف خطواتى فى بحر الرمال الذى آمر به وأعبره وجلس الضابط وبروح الود وعمق الحضارة التى تجمع بين المصرى والسودانى ليشرح لى ان الأرض مصرية ولكن الإدارة سودانية بمعنى أن الإشراف على المنطقة ومتابعة الإجراءات الأمنية تكون من اختصاص السودان. الوضع غريب كيف أترك بيتى ليديره غيرى .

كان الوقت قد مر وأسدل الليل أستاره واقترح ختم السر ان أبيت فى ضيافة ناظر مدرسة حلايب ومع الصباح تتبدد خيوط الظلام، وفعلا تتبدد الغيوم فقد قدم ختم السر ومعه بعض المسئولين الإداريين بالمنطقة مؤكدين ترحيبهم بى وبوجودى بينهم على الأرض سواء كانت مصرية أو سودانية وبعد حوار طويل اتفقنا معا أن الحدود التى التى صنعها للاستعمار هى على الورق وليس لها سلطان على القلوب المصرية والسودانية ونصحنى بعدم تكرار التجربة لأن القانون لايرحم. وعدت لموطنى بالشلاتين بعد أن أمضيت بالمنطقة أسبوعا كاملا فى رعاية الإداريين السودانيين .

وكان بداخلي شغف شديد لمعرفة جذور هذا الوضع الشاذ في دنيا الحدود.. فلاتوجد دولة فى العالم تملك نوعين من الحدود.. حدودا سياسية دولية معترفا بها عالميا وحدودا أخرى ادارية . ولكن الحقيقة انني انشغلت ببحثي في الفن عن تلك القضية خاصة ان تجربة الحدود قد انتهت.. ولكنها تجددت ثانية في رحلتي للسودان. فبعدما وصلت الى السودان.. عام ١٩٨٨ بالطائرة وامضيت العام اتنقل بين اقاليمه المختلفة وانتهت بى الرحلة الى بور سودان فكرت أن اعود لمصر بالطريق البرى أى عبور الحدود حتى يتسنى لى المكث فترة بالمنطقة الادارية لاستكمال البحث فروع البشارية والأمرار المنتشرين بها. سألت المحافظ عثمان نقراى محافظ البحر الأحمر بالسودان النصيحة فى هذا الأمر وأشار عليّ انه من حقى التجوال داخل الأراضى السودانية بموجب خطاب الجهات الأمنية الذى أحمله اما دخول الأراضى المصرية يحتاج لموافقة السفارة وعلى الفور توجهت للسيد الوزير المفوض عبد العزيز عليوه قنصل مصر فى بور سودان وأطلعته على الأمر ولم يتاخر فى معاونتى طوال وجودى بالإقليم الشرقى ومنحنى خطابا بالموافقة وحملت خطابا آخر من إدارة الجوزات السودانية وتحمل البوليس السودانى المسئولية فى نقلى من بور سودان الى «محمد قول» ومنه الى حلايب واستقر بى المقام فى حلايب بعض الوقت ثم انتقلت الى «أبو رماد» واقمت بقاعدة الجراد فى ضيافة الاستاذ عبد المنعم الراوى مدير القاعدة والأخوة المهندسين وهممت بالعودة للقاهرة. وعلى الطريق وقف عم حسين الشاويش بنقطة المرور معترضا لمرور السيارة فهى تحمل أجانب.. نظرت اليه وقلت له «انا مني ياعم حسين.. انا مصرية وتلك اوراقى» وعلى الرغم من معرفته بى فقد رآنى مرارا قبل ذلك ولكنه قرر اننى أجنبية ولم يشغل باله بالنظر الى اوراقى فهو ليس بحاجة اليها فالتى أمامه ليست منى التى يعرفها ولكنها سمراء اللون نحيلة الجسم ولسانها ينطق بلهجة مختلفة. «اصبحت لهجتى فى الحديث تجمع بين عدة أشكال فهى خليط من السودانية والبجاوية والحبشية».

وتعقدت المشكلة عم حسين يزداد إصرارا على أننى أجنبية ويطلب منى العودة من حيث اتيت.. ويعلق قراره بالقبض عليّ بتهمة التسلل عبر الحدود وفى تلك المرة

لم يعترنى الخوف كسابقتها ولكن انتابنى حالة من الضحك لطرافة الموقف وسخريته اقترحت على عم حسين ان أقيم بالشلاتين حتى يعرض الأمر على رؤسائه.. يصرخ حسين «ياست ابعدى عنى دى مسؤلية ارجعى مطرح ماجيتى» وطبعا لم تنته المشكلة الا بعد أن التقيت بالقيادات الأمنية بالمنطقة وسمحوا لى بالعبور والعودة لموطنى.

هذا دفعنى للانشغال بالقضية والبحث فيها خاصة بعد ان لمست وعشت أحزان سكان الحدود فهم يعانون من مرض خطير يمزق وجدانهم اسمه «فراق الأحباب» والميكروب المسبب لهذا المرض اسمه الحدود الإدارية وصراعه مع الحدود السياسية الخط الذى قسم ظهر وحدة النوبة على النيل والبجا فى الصحراء. وللأسف فان هذا المرض ينتشر وبشكل واسع فى كل القارة الأفريقية. فقد استخدم الاستعمار خطوطاً وهمية من الطول والعرض ليس لها أية دلالة ولاقيمة سوى التفرقة بين الشعوب، وبعد ان تحررت افريقيا واستقلت دولها اشتعل فتيل الحدود التعسفية بين الدول وكانت أول قضية فى ملف منظمة الوحدة الأفريقية وهى قضية خطيرة والفصل فيها أخطر وأصعب فكل دولة تقول بحقوقها التاريخية فى ارض الدولة المتاخمة لها. والحقوق التاريخية لاتشمل الأرض فقط ولكن الأرض والشعب المقيم عليها. فكما نعلم أن افريقيا كلها تسكنها شعوب رعوية تنتظم فى شكل قبائل والحدود الوهمية من خطوط الطول والعرض قسمت القبائل لتتوزع بين دولتين أو أكثر. وإعادة رسم الحدود بين الدول المحافظة على وحدة القبائل أمر صعب والأصعب منه ان تصبح كل قبيلة دولة والمرض المنتشر بأفريقيا ليس له علاج سوى الوحدة بين البلدين وبناء على ذلك أغلقت الوحدة الأفريقية ملف الحدود واعترفت كل الدول بالحدود السياسية التى حددها الاستعمار وأصبحت هى الفاصلة بين سيادة دولة وأخرى.

الادارى والسياسى

ولكن تخطيط الحدود المصرية يشكل حالة شاذة وغريبة على القانون الدولى فما هى قصته؟ فى البدء لابد أن نتفق على أن وضع الفواصل بين الشعوب كان مطلبا

استعماريا وبالتالى جاءت الخطوط الموضوعة لخدمة الأغراض المقررة له وتمتد حدودها الجنوبية الى خط عرض ١٤° لتضم شمال السودان الى مصر.. ولكن ثوار مصر وعلماؤها وقفوا أمام هذه الفكرة بشدة وعنف السودان جزء لايتجزأ من العمود الفقرى لأرض مصر وهو حق تشهد به الدنيا منذ فجر التاريخ وبخبث شديد أعاد الاستعمار التخطيط وبتر جنوب مصر ووحدته بخط عرض ٢٢° خط ليس له اى معنى ولايتفق مع طبيعة المنطقة وأضراره خطيرة حيث قسم قبائل النوبة التى تسكن حول ضفاف النيل من أسوان وحتى «أبو حمد» وايضا قسم قبائل العبابدة والبشارية التى تسكن هضاب البحر الأحمر وفى عام ١٨٩٩ يظهر لأول مرة فى التاريخ حد فاصل املاه اجنبى ولم يؤخذ فيه رأى مصرى ولاسودانى .. وأصبح خط عرض ٢٢° هو الحد السياسى للأراضى المصرية الجنوبية. وأيضا بداية للأراضى السودانية.

تلك قصة الخط السياسى فما هى قصة الخط الإدارى ؟ القصة تبدأ منذ أن بدأ الاستعمار الانجليزى ترتيب اوراقه ليتمكن من السيطرة على السودان والتهامها بعد فصلها عن مصر فاكتشف انه اخطأ فى تقدير الحدود. فأضحت الحدود الشمالية للسودان المتاخمة لخط عرض ٢٢° فقيرة جدا بالاضافة الى ظهور مشاكل خاصة بإدارة القبائل وبتوجيهات من «كرومر» اصدر مصطفى باشا فهمى وزير الداخلية المصرى قرارا فى ٢٦ مارس ١٨٩٩ بإنشاء خط ادراى يمتد لمسافة ٣٧ كم شمال خط ٢٢° داخل الأراضى المصرية ليفصل عشر قرى وهى «التوفيقية – سرة غرب – سرة شرق – حلفا عنقش – فرس – جزيرة فرس – رغيم – دبيرة – أرحين – أكشيت»، لتصبح خاضعة للمديرين المقيمين بالسودان وتم تكليف لجنة مشكلة من ثلاثة ضباط عن التوفيقية والنوبة وحلفا لتنفيذ القرار ووضع العلامات المحددة للخط الإدارى وذلك بمعاونة عمد وشيوخ القرى وكان ظاهرا وقت اتخاذ القرار ان هذا الخط الادارى قائم لخدمة النوبيين سكان القرى ولكن «جليشن» الخبير الأنجليزى يكشف عن الحقيقة فى بحثه «السودان المصرى الانجليزى» فى عام ١٩٠٥ قائلا: «إن الدافع الحقيقى وراء ضم ٣٧ كم من الأراضى المصرية الى

الإدارة السودانية هو السيطرة على أربعة الآف فدان من الأراضى الخصبة والمزروعة على ضفاف النيل فيما بين فرس وحلفا حيث أن الأرض الممتدة جنوب حلفا وحتى كوشة هى ارض جرداء لازراعة فيها وتم تنفيذ القرار مع الأخذ فى الاعتبار ان السودان كلها كانت تحت الإدارة المصرية والمديرون مصريون واستمرت حتى خرج الجيش المصرى من السودان عام ١٩٢٥ ثم عادت الإدارة مرة ثانية بعد عودة الجيش فى عام ١٩٣٦ واستمرت حتى استقلال السودان عام ١٩٥٦ وتم الغاء الخط الإدارى بالمنطقة بشكل نهائى فى اتفاقية عام ١٩٥٩ والخاصة ببناء السد العالى . وأصبحت المنطقة ارضا مصرية والسيادة عليها لمصر.

ونعود ثانية لعام ١٨٩٩ لنشهد الترتيبات التى تمت فى هضاب البحر الأحمر فقد ظهرت مشاكل ودب الصراع بين القبائل التى قسمها خط ٢٢° واستمرت المداولة المناقشة والخطابات متبادلة بين وزارة الداخلية المصرية وإدارة المخابرات الحربية والادارة السودانية ويمثلها الانجليز حتى صدر قرار بتاريخ ٤ نوفمبر لعام ١٩٠٢ عن وزارة الداخلية ليتضمن اربعة بنود.

١ ـ يتم اقتطاع جزء من الأراضى السودانية وهى على شكل مثلث يمر بجبل الفوقانى غرب حلفا ويمتد لجبل بترارزوجا وبئر هامسيت وينتهى بخط ٢٢ ° لتصبح تحت الإدراة المصرية وتضم قبيلة المليكاب وهى فرع من العبابدة .

٢ ـ يتم اقتطاع مثلث قاعدته خط ٢٢° وقمته تنتهى عند الشلاتين ومساحته ١٨ الف كم مربع ليصبح تحت الإدارة السودانية ويضم بعض فروع من قبيلة البشارية.

٣ ـ ضم قبيلة العشباب وهى فرع من العبابدة الى بشارية المثلث الإدارى تحت إدراة واحدة تسمى مشيخة هاساى ووضعهم تحت الإدارة السوانية.

٤ ـ تفويض مدير أسوان لتنفيذ القرار وتحديد الآبار الخاصة بكل قبيلة.

قسوة الادارة السودانية

وتم تنفيذ القرار رغم رفض البدو لهذا التخطيط ورغم المساعى التى بذلها شيوخ العشباب والمهدوراب والعلياب بهدف وضعهم تحت إدارة واحدة وهى الإدارة

المصرية. حيث ان الخطوط الإدارية فرقت بينهم بالإضافة الى ان الادارة السودانية كانت تقسو عليهم فى جمع الضرائب وفى قيمتها ولكن لم ينصت احد لطلباتهم وصدر قرار آخر فى يونيه لعام ١٩٧٠ لتأكيد الخط الإدارى ونص على أن تصدر كل الخرائط الصادرة فى مصر والسودان ومثبت فيها الحد السياسى والحد الإدارى لكل دولة.

وأصدر مدير أسوان قرارا بوضع نقطة للشرطة المصرية فى حلايب يقوم بالعمل فيها ضابط ومعاونون مصريون ورفع عليها العلم المصرى عام ١٩٠٨ ولم تتمكن الإدارة السودانية من السيطرة على المنطقة ومباشرة عملها بالمنطقة الا بعد سيطرة الانجليز بشكل تام على السودان فى عام ١٩٢٥ ولكن عادت ثانية نقطة حلايب بالإضافة الى قوات حرس الحدود «الهجانة» الى المنطقة فى عام ١٩٣٦.

ويكشف لنا «جليشن» مرة ثانية عن مطامع الانجليز فى منطقة المثلث الإداى وهى المنطقة الغنية بالمعادن «المنجنيز ـ الرصاص ـ الزنك ـ التلك ـ الكروم» ومناجم الذهب وخاصة من روافد العلاقى «دير حايب ـ جبيت ـ سوريب ـ روميت» الأمر الذى دفع بالانجليز الى تخطيط خط ليفصل المنطقة عن مصر معتمدا على انها ستصبح خاضعة له بموجب وجوده فى السودان. ومايؤكد تلك النية ان هذا الخط لم يعمل على وحدة القبائل بل فتتها اكثر والدليل اعتراضهم عليه.

وبعد استقلال مصر والسودان ورحيل الانجليز ارسلت الحكومة المصرية مذكرة بتاريخ ١ فبراير ١٩٥٨ الى الحكومة السودانية تطلب فيها تسليم المثلث الإدارى للحكومة المصرية وتم ابلاغ السودان فى مذكرة اخرى بتاريخ ٩ فبراير ان مصر مقبلة على اجراءات الانتخابات الخاصة بالوحدة مع سوريا وسوف تصل صناديق الانتخابات الى الشلاتين وحلايب لاشتراك المواطنين فى الاقتراع، وردت السودان بمذكرة تطلب فيها إتاحة الوقت الكافى لاتخاذ التدابير اللازمة بسبب انشغالها بالانتخابات التى تتم بالتوقيت نفسه لتشكيل وزارة عبد الله خليل، ولكن التدهور فى العلاقات المصرية السودانية فى ذلك الوقت ادى الى تصعيد المشكلة حيث استولت الحكومة السودانية على صناديق الانتخابات ورفضت اجراء الاستفتاء.. مما دفع

الحكومة المصرية الى ارسال فرقة من الجيش الى الشلاتين وحلايب وعلى الجانب الآخر ارسلت السودان كتيبة من الجيش للمنطقة نفسها وعبأت المشاعر الشعبية ضد المصريين، وأسرع السودان وتقدم بشكوى لمجلس الأمن فى ١٩٥٨/٢/٢٠ طلب فيها عقد جلسة عاجلة لمناقشة الحالة الخطيرة على الحدود المصرية السودانية ولم يناقش مجلس الأمن الشكوى لسببين: اولهما ان الجيش المصرى لم يتعد خط عرض ٢٢° وهو الحد الجنوبى للأراضى المصرية والمعترف به عالميا والسبب الثانى أن السودان لم تتقدم بأية وثائق تثبت بها حقها التاريخى فى الأرض ونتيجة للمساعى الحميدة لبعض الدول تم تشكيل لجنة للمباحثات وللفصل فى المشكلة. ممثل فيها الجانب المصرى والجانب السودانى. ودائما أبدا مصر حريصة على وحدة البلدين بالاضافة الى ان الظروف التى كانت تحيط بالوطن العربى آنذاك تحتاج للتضامن مما دعا مصر بغض الطرف عن القضية واستمرت العلاقة الودية بين البلدين ولم تتخل مصر يوما عن ارضها وظلت السيادة المصرية على المنطقة مستمرة ومسئوليتها ايضا عن البدو مستمرة حيث يتم توصيل مياه الشرب بالمراكب الى ميناء «أبو رماد» وتتولى السيارات نقلها إلى المناطق المحيطة بالاضافة الى مظاهر السيادة التى ذكرتها فى السابق.

معاناة أسرة

والسؤال المطروح على الساحة كيف تطور الصراع على حلايب أو بمعنى أدق المثلث الإدارى ودفع بالسودان لتقديم مذكرة ثانية لمجلس الأمن لشكوى مصر؟

الحقيقة انه بعد انتهاء حرب الخليج اصدرت الحكومة السودانية قرارا بضم المثلث الإدارى الى الأراضى السودانية بشكل نهائى لتصبح محافظة قائمة بذاتها ولها محافظ بعد ان كانت تحت إدارة محافظة البحر الأحمر ومقرها بور سودان. وحاولت فرض سيطرتها على المنطقة بمنح تصاريح للشركات الأجنبية للتنقيب عن البترول والذهب، كما منحت شركة يابانية حق رفع الآثار لمدينة سواكن القديمة أو ميناء حلايب ووصل الأمر الى الاعتداء على حرية الحركة فى المنطقة ومنع المصريين من دخول «أبو رماد» وحلايب كما حدث معى بل لقد قبض بالفعل على عدد من

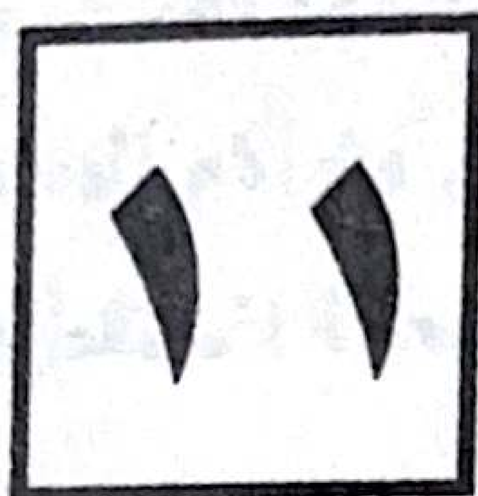
الجيولوجيين وتمت محاكمتهم فى الخرطوم بتهمة عبور الحدود وزاد الأمر سوء حينما ألقى القبض على بعض الصيادين المصريين وهم بدو العبابدة بتهمة صيدهم فى المياه الاقليمية السودانية «جزيرة حلايب» وقد تم الحكم عليهم وأودعوا السجون السودانية.

ورغم كل هذه الاستفزازات إلا أن مصر ظلت متمسكة بالود بين البلدين وحريصة على حسم الأمور بالمنطق والحق وتم تشكيل لجنة تضم الخبراء والمتخصصين من الجانبين للبت فى الموضوع وفى تلك الأثناء احتاج الأمر ان تكثف مصر من قوات حرس الحدود الموجودة بالمنطقة لمواجهة حركة التهريب على الحدود وخاصة تهريب السلاح وهذا حق لمصر مادام انه فى حدود ارضها ولكن السودان أسرعت ثانية وقدمت شكوى ثانية لمجلس الأمن فى شهر ديسمبر عام ١٩٩٢ بحجة أن الجيش المصرى دخل الأراضى السودانية ويبدو ان حكومة الخرطوم متجهة فى خط مضاد لوحدة الشعبين المصرى والسودانى الوحدة التى صنعها التاريخ والنيل وليس لمسئول سياسى دخل فيها ولافضل عليها. فقد ضمت البعثات التعليمية والجامعة «فرع الخرطوم» لإدارتها وتم طرد المصريين.

البدو فى المثلث الإداى يعيشون فى حالة من التوتر والرعب.. مصالحهم معطلة الشىء الذى يعرفونه ويثقون به انهم اصحاب الأرض يعيشون عليها من آلاف السنين. يحملون البطاقات المصرية والبطاقات السودانية اضحى الأب مصريا وابنه سودانيا والزوجة مصرية والزوج سودانيا واغرب حالة شاهدتها هى حالة سيدة سودانية الجنسية ووالدها من بور سعيد ولها خمسة ابناء ثلاثة منهم تم استخراج شهادات ميلاد مصرية. ووالدهم يحمل الجنسية المصرية والسودانية فى آن واحد.. فقط يظهر الأوراق الخاصة بكل بلد فى حدودها ما هذا الوضع الشاذ..ظروف الإدارة الغربية جعلت الاشقاء يختلفون.

وأجد نفسى مدفوعة بكل الحزن والخوف اللذين يسكنان قلوب بدو الصحراء وبكل الحب والأمل الذين يسكنان قلبى لمصر والسودان معا فأشعر بنفسى وكأنى

النيل يجري في السودان ليصب في مصر والشعب يقتسم وكأني شجرة جذورها
في السودان وفروعها في مصر. بكل الأمل نتوجه بالنداء إلى الحكومتين السودانية
والمصرية لحل النزاع القائم حول المشكلة لصالح الشعبين والقرارات كثيرة
ومنظمة الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الأفريقية شرط أن يكون التنافس على
القرارات ويزرع الحب والمودة ويزرع العداء والحق لابد أن يعود لأصحابه مهما طال
الزمن وحق مصر في الحلايب الإداري مثبت بالوثائق وبشهادة التاريخ وحق السو
دان أيضا مثبت بالوثائق والتاريخ وإذا كانت الحدود السياسية فرضت علينا ولم
نختارها فعلينا أن نتعامل مع هذا الواقع الجديد على أن نوفر الرعاية الكاملة للسو
دانيين ولهم حرية الحركة في الحدود الآمنة. الواقع العربي مرّ والهموم كثيرة تكتم
على أنفاس الشعب العربي من الخليج للمحيط والأمر لا يستدعي خلق هم جديد
والمشكلة لا بد لها من حل يحتاج إلى إحقاق الحق بالوثائق. والتفاوض.



البعـــد الاجتماعى للتنمية المتواصلة فى حلايب

(رؤية لتنمية المنطقة)

يشهد التاريخ بأن الإنسان استغرق ثمانية آلاف عاما انتقل فيه من العصر الحجرى القديم الى العصر الحجرى الأعلى ، واستغرق خمسة آلاف سنة ليدخل إلى عصر الصناعة، وكانت الطفرة الكبرى بقفز الإنسان الى عصر مابعد الصناعة خلال قرنين من الزمان وهذا يعنى أن التطور والتغير تم فى الماضى عبر أزمنة طويلة وبطريقة تدريجية، الأمر الذى ساعد الإنسان على التكيف المتوازن مع البيئة الاجتماعية والطبيعية. بينما التغير الحادث اليوم فى العالم سريع ومكثف ولم يتمكن الإنسان من ملاحقته والتكيف معه وأدى الى تعقد الأمور وتراكم الصعوبات فى وجه البشرية وأصابها بصدمة أطلق عليها المتخصصون «صدمة المستقبل».

واذا كان علماء الغرب يتحدثون اليوم عن تلك المشكلة ويبحثون فى أثرها على شعوبهم «شعوب الدول الصناعية الكبرى» فلنا أن نتصور ماصنعته تلك الصدمة بشعوب الدول النامية والمتخلفة. واخطر الآثار على وجه الاطلاق يتمثل فى فقدان تلك المجتمعات لتوازنهم على المستوى النفسى والاجتماعى والبيئى. فقد شبه «ليفى ستراوس» المجتمع البدائى فى إطار المقارنة بينه وبين المجتمع الصناعى بالساعة التى ترتبط بها سمات الانضباط والايقاع المنتظم والتوازن بينما وصف الثانى بعدم الاستقرار والاتساق. فالحياة فى المجتمعات التقليدية تتضمن فى حقيقتها أكثر الانساق الثقافية ملائمة للحياة.

وإزاء تلك المشكلة الضخمة التى تواجه البشرية على الكوكب الأرضى لابد من تضافر جهود العلماء لوضع التصورات الخاصة بسمتقبل البشرية وتوجيه التنمية

فى اتجاه التوازن مع البيئة الاجتماعية والطبيعية وهذا ماتهتم به «انثروبولوجيا التنمية».

ونحن الآن بصدد مناقشة التنمية المتواصلة فى الجزء الجنوبى من الصحراء الشرقية المصرية. وأود الإشارة الى أن كل ماسوف أطرحه من فكر وتصور للتنمية نابع من واقع امبيريقى ومن خلال معايشتى للبدو فى جميع مناطق انتشارهم بطول الصحراء الشرقية فى مصر والسودان والحبشة ولمدة عشر سنوات بدأتها منذ عام ١٩٨٢ وحتى عام ١٩٩٣.

الموقع الجغرافى

تمتد الصحراء النوبية أو هضبة العبابدة من وادى النيل غربا وحتى ساحل البحر الأحمر ومن خط عرض ٢٥ شمالا وحتى خط عرض ٢٢ جنوبا وتأخذ الصحراء شكل شبه منحرف قاعدته هى حدود مصر السياسية مع السودان بطول ٤٠٠ كم وضلعه الأعلى يمثله الخط الواصل بين مدينة أدفو على نهر النيل ومدينة «مرسى علم» على البحر بطول ٢٥٠ كم. ومساحتها تقترب من ١٠٠٠٠٠ كم وتمثل عشر مساحة جمهورية مصر العربية.

السكان والنشاط الاقتصادى

تسكن تلك المنطقة قبائل العبابدة والبشارية وهما فرعان من قبيلة البجا التى اشت منذ ٤٥٠٠ ق.م. فى الصحراء الشرقية الممتدة بطول ساحل البحر الأحمر ى مصر والسودان والحبشة ولازالت القبيلة بكل فروعها تمتد فى موطنها القديم ثمل ست كيانات كبيرة وهم «العبابدة - البشارية - الهدندوه - الامرار - لانقة - بنى عامر» وكانت البجا معاصرة لقدماء المصريين وكان منهم جنودا فى ى «أحمس» ملك مصر حارب بهم وأنتصر ومن هنا جاءت تسميتهم بـ «ماجوى» كلمة فرعونية تعنى الرجل المحارب وحرفت فيما بعد الى «ميجا» ثم «بجا». وع البجا موجودين بالسودان فيما عدا قبيلتى العبابدة والبشارية المنقسمين سر والسودان.

ويسكن العبابدة مدن «أدفو - دارو - بربر - الدامر - عطبرة» على نهر النيل وتنتشر فروعهم من قبيلة «عشباب» داخل الصحراء مابين مرسى علم وبرنيس ويتحدثون اللغة العربية المتضمنة للكثير من المفردات البجاوية ويتحدثونها باللهجة السودانية.

والبشارية تسكن مدن «اسوان - كريمة - خشم القربة - كسلا - سنكات - سواكن» وينتشرون فى صحراء عيتباى وحلايب والشلاتين وجبال علبة. وأغلبهم يتحدث اللغة البجاوية.

وبدو الصحراء يعملون بالرعى وجمع الأعشاب الطبية وصناعة الفحم والصيد البحرى ويعيشون فى خيام تسمى «بيت البرش» وتعدادهم يبلغ نصف مليون نسمة ويصعب حصرهم لأنهم دائمى الترحال وراء الامطار والمرعى لماشيتهم.

الفكر والمعتقد والشخصية

تتصف قبيلة البجا بالثبات والاستمرار النسبى ويبدو هذا واضحا من استمرارها بنفس الاسم وبنفس الموطن لمدة تزيد عن ستة آلاف عام. والثبات على نفس النظم القديمة التى ورثوها عن أجدادهم القدامى فمن ناحية النظام الاقتصادى نجدهم مارسوا الصيد والقنص من ٤٠٠٠ ق.م. وحتى ٥٠٠ ق.م. وبعد أن دخل الجمل الى مصر عرفوه ومارسوا الرعى حتى اليوم. ومن ناحية المعتقد نجد أن الديانة البجاوية وهى خليط من الديانة الفرعونية والرومانية والزنجية مازالت تعيش وتحيا وتمارس من خلال العادات والتقاليد التى تمارس فى الزواج والميلاد والوفاة والحياة اليومية بالرغم من إعلانهم بالاعتقاد بالدين الإسلامى وتعتبر اللغة البجاوية العائق الأساسى الذى يعوق البجا عن فهمهم للعقيدة والشريعة الإسلامية.

وكان للبيئة فضل عظيم فى عزلة هذا الشعب داخل الصحراء وحفظه بعيدا عن المؤثرات الثقافية التى يموج بها وادى النيل ونتيجة لتلك العزلة أضحى لدينا شعبا مميزا فى شكله الفيزيقى والذى يقترب كثيرا من ملامح المصريين القدماء وأيضا

فى ثقافته ولغته حيث تعتبر اللغة البجاوية شقيقة للغة الفرعونية وينتميان لأسرة واحدة هى أسرة اللغات الكوشية.

ويتميز البجاوى بالروح القتالية، فحب القتال قيمة أصيلة ومتأصلة فيه يحرص عليها وجذورها ترجع الى العصور القديمة حينما خرج من شعب الصحراء الإله «منتو» الذى عبده قدماء المصريين وجعلوه إلها للحرب ورفعوه لمرتبة الآلهة العظمى وجعلوه زوجا لـ «إيزيس» ولنا أن نتصور حال الشعب انحدر من إله الحرب ـ فالحياة فى فلسفته هى الحرب.. والحرب هى الحياة ويشهد التاريخ على تلك الصفة فهو ملىء بالمعارك الكثيرة بين فروع البجا، وبينها وبين جيرانها. وإذا كان حب القتال هو محور الشخصية البجاوية فإن الملامح الأخرى للشخصية تتمم وتكمل تلك الصفة مثل الصلابة والكبرياء وعدم الخضوع وأيضا الجمود العاطفى.

ومن خلال العرض السريع لفكر ومعتقد وشخصية البجاوى نتأكد من أننا أمام شعب يحتاج لأسلوب وفكر خاص يساعدهم ويعينهم على التنمية التى تأخذ بأيديهم لركب التطور وفى الوقت نفسه لاتعرضهم لأزمة فقدان الذات والتوافق الطبيعى الذى حققوه مع البيئة والحياة الاجتماعية خلال ستة آلاف سنة. ومن هذا المنطلق أطرح تصورى لتنمية المنطقة بشكل متوازى بين خطين الأول يتم فيه استغلال وتطوير الثروات الحقيقية التى تملكها الصحراء دون استحداثها والخط الثانى يتم بتنمية الشخصية البجاوية دن إلغائها أو تشويهها.

تصور مستقبلى لتنمية المنطقة

إن غياب الفهم الشمولى لطبيعة الصحراء وعلاقتها بالنظم الاجتماعية والاقتصادية جعل من كل خطط التنمية التى تم تنفيذها فى الصحراوات المختلفة قاصرة وغير محققة لاهدافها القصوى لانها تمثل نقلا لفكرنا وتطور فى مركب ايكولوجى ذى طبيعة مختلفة ولكن المطلوب استحداث أسلوب يتجانس مع البيئة الثقافية والاجتماعية للصحراء.

إن التنمية فى أبسط مفهوماتها هى دعم وتطوير لطاقات موجودة بالفعل وليست استحداث أنماط جديدة مغايرة للواقع وليس لها جذور فيه، وعلينا أن نتعامل مع

الصحراء من منطلق أن اقتصادياتها تختلف عن اقتصاديات الوادى . فنحن حينما نصف الصحراء بالفقر فأننا نستند الى محكين أساسين وهما نقص المياه والأراضى الزراعية فى حين أنهما شرطان أساسيان لنمو وتراكم الثروة المعدنية. ولابد أن يراعى ذلك عند التخطيط للتنمية وأول سؤال نهتدى به ماذا تملك الصحراء؟ وكيف ننميه ونطوره ؟

١ ـ إن ندرة الموارد المائية وعدم استمرارية المساحات القابلة للزراعة تضع النشاط الزراعى فى مرتبة بعيدة عن الأولوية كأساس لاقتصاديات مستوطنات الصحراء، فالجزء الجنوبى من الصحراء الشرقية والذى تبلغ مساحته ١٠٠ ألف ك.م. فقير فى الأراضى الصالحة للزراعة فيما عدا منطقتين : ـ

الأولى: وتمثل شواطىء بحيرة ناصر والتى تمتد لمسافة ٣٠٠ ك.م. جنوب اسوان وتقدر مساحتها بحوالى مليون وربع فدان وبها موارد مائية مصدرها بحيرة السد بالاضافة الى المياه الجوفية .

الثانية: منطقة وادى حوضين الممتدة من الشلاتين وحتى حلايب وتبلغ مساحتها ١٨ ألف ك.م. وبها مخزون كبير من المياه الجوفية ومصدرها السيول المنحدرة من الجبال لتصب فى البحر.

ولتنمية تلك المناطق وزراعتها لابد من اجراء الدراسات المتخصصة لتحديد توزيع المياه الجوفية ونوعيتها وكميتها وعلاقتها بالموارد الطبيعية الأخرى على أن يؤخذ فى الاعتبار عدم تدمير وإرهاقها بزراعة المحصولات النقدية، ويكتفى بزراعة «الدخن» وبعض أنواع الأعلاف التى تقتات عليها الماشية، مثلما كان يفعل البدو فى الماضى وقبل موجة الجفاف التى اجتاحت افريقيا.

٢ ـ الرعى والثروة الحيوانية

إن الرعى نظام حياة وليس مجرد مصدر للدخل، فالزواج والمهر والعقوبات القضائية والمراكز السياسية كلها مرتبطة بما تملكه القبيلة والشخص من رؤوس الماشية ، ومن العبث عند التخطيط لتنمية المنطقة محاولة القضاء على الرعى

باعتباره مرحلة متأخرة من النظم الاقتصادية. ومن الحتمية تطوير هذا النشاط وذلك من خلال ثلاثة خطوط متوازية وهى : ـ

أ ـ التحسين الوراثى والسلالى لأنواع الحيوانات «الإبل ـ الضأن ـ الماعز» التى يقوم على تربيتها بدو الصحراء وذلك من خلال إقامة محطات لإنتاج الانواع الممتازة والمنتخب فيها الصفات الجيدة لانتاج اللحم واللبن والصوف، وبيعها للبدو مع توعيتهم بالاهداف المرجوة من ذلك .

ب ـ التحسين البيئى ويقصد به العمل على تنمية المراعى الجيدة وذلك بزراعة الوديان المنبسطة بأشجار الاعلاف والتى ينمو الكثير منها بشكل طبيعى وتستخدم مياه الآبار المنتشرة داخل الصحراء لذلك وهى غير صالحة للاستخدام البشرى ولكنها تلائم أنواع الاشجار التى تنمو بالجبال.

جـ ـ التحسين الاجتماعى ويتضمن تشجيع الصناعات اليدوية القائمة على منتجات الحيوان كصناعة الجلود وصناعة السجاد مع إنشاء جمعيات تعاونية لتسويق تلك المنتجات ويكون لها دور فى تدريب الايدى العاملة.

الثروة المعدنية

الصحراء تذخر بالكثير من الخامات والرواسب المعدنية مثل «الذهب ـ النحاس ـ النيكل ـ الكروم ـ الحديد الالومنيوم ـ اليورانيوم ـ التلك ـ الباريت ـ الرخام ـ الكاولين ـ الطفلات ـ المرو ـ الجرانيب» وغيرها من الثروات التى ميز بها الله أرض الصحراء عن أرض الوادى . ويجب أن تكون الأولوية فى التنمية للمشروعات التعدينية التى تقوم على استخراج الخامة وتصنيعها على أن تكون تلك الصناعات هى النواة التى تنشأ حولها القرى والمدن الصحراوية. ويتم ذلك من خلال ـ

أ ـ اقامة البنية الأساسية فى الصحراء وأهمها شبكة الطرق التى تربط اطراف الصحراء بالمدن مع توفير مياه الشرب وذلك من خلال حفر الآبار على عمق كبير بالاستعانة بتكنولوجيا البترول أو تحلية مياه البحر أو مد خط أنانبيب من النيل الى داخل الصحراء .

ب ـ تقوم هيئة المساحة الجيولوجية وهى المسئولة عن الكشف والتنقيب عن الثروات المعدنية فى الصحراء بطرح كراسات متضمنة كافة المعلومات عن المعادن التى تم اكتشافها وأماكن وجودها وطرق استغلالها على المتخصصين والعاملين فى مجال استخراج المعادن وصناعتها فى محاولة لتشجيع القطاع الخاص لاقتحام هذا المجال والاستثمار فيه.

جـ ـ تشجيع شباب الخريجين من كليات العلوم والهندسة بتوفير القروض اللازمة من وزارة الحكم المحلى والصندوق الاجتماعى لعمل المشروعات التعدينية داخل الصحراء.

مع الأخذ فى الاعتبار أن تلك المجتمعات المحدودة التى ستقوم على الصناعات التعدينية فى أماكن منتشرة داخل الصحراء مهمة جدا لممارسة السيادة على الأرض ومع أستمرارها ستنمو وتكون نواة لمدن كبيرة فى المستقبل.

الثروة السمكية

البحر الأحمر هو الباب الشرقى للصحراء ولقد اتجه البدو فى السنوات الأخيرة للصيد البحرى باعتباره مصدرا للطعام والرزق، تواجههم مشاكل كثيرة تعوق الاستمرار. وتعتبر راس بناس أكبر مناطق تجمع الصيادين على الساحل وهناك تجمعات أخرى متفرقة بطول الساحل ومنها «حماطة ـ برنيس ـ البوابة ـ الحميرا ـ وادى الجمال ـ الشلاتين» ويحتاج الأمر إلى وضع خطط عملية لتنمية الصيد البحرى :

ـ إنشاء شركة مساهمة تشترك فيها محافظة البحر الأحمر مع المستثمرين العاملين بمجال السياحة بالغردقة وسفاجا لتعمل بتنمية الصيد البحرى وتتولى الآتى :ـ

أ ـ تزويد الصيادين باحتياجاتهم من أدوات الصيد ومستلزماته.

ب ـ منح كل تجمع من تجمعات الصيادين ثلاجة سعة خمسة أو عشرة طن تعمل بالطاقة الشمسية «ويجدر الإشارة الى أننى رأيت هذا النوع من الثلاجات لدى هيئة كندية تعمل فى مجال تنمية الصيد بمنطقة سواكن بالسودان».

جـ - تقوم السيارات الثلاجة بالمرور على التجمعات التى سيتم رصدها وتسجيلها لتجمع محصول الصيد وتتولى الشركة وضع خطة للتسويق فى جميع أنحاء الجمهورية.

د - يستفاد من الدراسات السابقة فى هذا المجال والتى أعدها مركز البحوث السمكية التابع لهيئة تنمية بحيرة السد العالى وأيضا المعهد القومى لعلوم البحار التابع لاكاديمية البحث العلمى .

هـ - وضع سياسة سعرية يتم من خلالها تحديد الدخل المناسب للصيادين لتحفزهم على البقاء والاستمرار فى العمل على أن تراجع تلك السياسة كل ستة أشهر للتوافق مع الأسعار المتغيرة فى السوق وحتى لايواجه المشروع المشاكل الضخمة التى تواجهها هيئة تنمية بحيرة السد العالى فى هذا المجال وبهذا الخصوص.

و - عمل دورات تدريبية للبدو لتعليمهم الوسائل الحديثة فى الصيد، والسعى لحل مشاكلهم.

٥ - الثروة الطبية

تنمو بالصحراء أنواع كثير من الأعشاب الطبية، منها مايعرفه البدو ويسعون لجمعه وبيعه فى أسواق دراو وأسوان مثل «حلف البر - الحرجل - الدمسيسة - الحنضل». وهناك العديد منها بمنطقة حلايب وجبال علبة يعرفه البدو ولكنهم لايهتمون بجمعه لجهلهم بقيمته العلاجية بالإضافة لعدم وجود فرصة لتسويقه. وتلك الثروة تحتاج للاهتمام من جانب الهيئات البحثية وشركات الأدوية وذلك من خلال:-

أ - عمل دراسة مسحية للصحراء يتم فيها تسجيل كل الأنواع الموجودة مع تسجيل أسمائها العلمية وخصائصها واستخدامها وأهميتها وتتولى كليات الصيدلة مجتمعة على مستوى جامعات مصر بانجاز تلك الموسوعة.

ب - تتولى شركات الأدوية القومية من خلال مراكز البحوث التابعة لها بالتعاون مع إدارة الحكم المحلى فى مرسى علم وحماطة والشلاتين وحلايب بعمل دورات

تدريبية للبدو يتم فيها إعلامهم بكافة التفاصيل عن تلك الاعشاب وبطرق جمعها وحفظها على أن تتولى تلك الشركات شرائها أو تسويقها بالداخل أو بالخارج.

جـ - بعد إجراء الدراسات البحثية والتسويقية عن تلك الأعشاب والوصول الى نتائج تؤكد أهميتها وجدواها يمكن العمل على زيادة الرقعة المزروعة بتلك الأعشاب.

ولكى تتم التنمية الاقتصادية بالتصور المطروح لابد من الأخذ فى الاعتبار عدة منظومات لها صلة وثيقة بالتنمية وإغفالها سوف يدمر أى جهود للتنمية، وتلك متعلقة بالتنمية الاجتماعية وأقصد بها التنمية الفكرية والعقائدية لشعب الصحراء انطلاقا من فكرة مؤداها أن الحضارة والتحضر ليست هى أساليب الحياة التى نتبعها فى المدينة فالعالم اليوم يدعونا للعودة الى الطبيعة .

١ - السياحة

هناك فكرة تهدف لتعمير الصحراء من خلال فتح أبوابها للاستثمارات السياحية وإنشاء القرى السياحية بوادى الجمال وراس بناس والشلاتين وحلايب، وأننى ومن واقع حياتى مع البدو وأحذر من هذا الاتجاه لأن عواقبه وخيمة ستؤدى لتدمير شعب الصحراء للأسباب التالية : -

أ - إن هناك فاصلا طبيعيا بين شمال الصحراء بمدنها «راس غارب - الغردقة - سفاجا - القصير» والتى تتميز بالطابع السياحى والمنطق يؤكد هذا الإتجاه وتنميته بها أما الجزء الجنوبى والذى يبدأ من «مرسى علم - أدفو حتى حلايب - حلفا» فطابعه بدوى تقليدى وهى المنطقة التى يتركز فيها بدو العبابدة والبشارية.

ب - دخول السياحة الأجنبية الى تلك المنطقة التقليدية والبدائية فى نظم التكنولوجيا يعنى غزو الثقافة الأوروبية لتلك المنطقة مما يعرض شعب الصحراء لأزمة صراع الثقافات والنتيجة الحتمية لذلك هى فقدان البدوى لتوازنه النفسى والاجتماعى مع بيئته وعقيدته وقبيلته. فليس من المنطق فتح الأبواب على مصراعيها أمام شعب عاش منعزلا ستة آلآف سنة.

جـ - السياحة كمصدر من مصادر الدخل ترتبط ارتباطا وثيقا بالظروف

السياسية والأمنية بالمنطقة العربية واستمرارها ونموها بشكل مطرد مسألة غير مضمونة ومرهونة بظروف خارجة عن إرادة الدولة والمستثمرين وهذا يشكل خطورة ولايمكن الاعتماد عليها فى صناعة الحياة داخل الصحراء، والوضع الحالى للسياحة فى مصر يشهد على ذلك.

د ـ من منطلق المصلحة القومية لمصر لابد وأن ترسى دعائم التنمية على أسس ثابتة نابعة من استغلال الثروة التعدينية والحيوانية والسمكية.

٢ ـ التعمير وبناء المسكن

تقوم وزارة التعمير بجهود ضخمة لتعمير الصحراء، ولكن تلك الجهود بذلت بدون دراسة ولذلك تمت متضمنة الكثير من نقاط الضعف التى تقف عائقا أمام جمع ثمار الجهد المبذول.

ـ إن الالتزام بإقامة مسكن ثابت يعنى الاستقرار فى المكان وهذا يتنافى مع طبيعة النشاط الذى يمارسه البدو وهو الرعى .

ـ معظم البدو الذين سكنوا بيوت التعمير تحولوا الى مظهر من مظاهر البطالة المقنعة حيث سعوا للعمل بوظائف خفراء بالمكاتب الحكومية المنتشرة بالصحراء.

ـ البدو الذين لم يجدوا فرصة للعمل بالحكومة جعلوا من مساكنهم مخازن لامتعتهم وعادوا ثانية لبيوت البرش لتناسبها مع طبيعة عملهم وحلهم وترحالهم، وكان من الحتمية بناء المشروعات الإنتاجية قبل بناء المساكن تمشيا مع بديهية تقول بأهمية لقمة العيش خاصة أن البدوى لايعانى أية مشكلة فى توفير المسكن والمأوى .

ـ بدو البجا لايحبذون العيش فى تجمعات سكنية وأقل مسافة تفصل بين الكوخ والآخر تزيد عن ٢ك.م. ويرجع هذا الى طبيعتهم الشرسة والتى تدفعهم للعراك والشجار لاتفه الاسباب والمساكن الحديثة جعلتهم ملتصقين السبب الذى أدى لزيادة المشاكل بشكل يهدد الأمن والضبط الاجتماعى داخل كيان القبيلة.

ـ كل المساكن التى شيدتها وزارة التعمير استخدم فيها المواد الأسمنتية وتلك لاتتفق مع مناخ الصحراء ممادفع الى هجر الغرف واستخدامها كمخازن والنوم فى حوش المسكن .

بالاضافة الى أن أسقف المساكن بنيت بشكل مسطح وفى الشتاء تتجمع فوقها مياه الأمطار وكان من الأنسب بنائها بشكل هرمى لتفادى المشاكل المتراكمة، ومعظم المساكن بنيت فى مناطق معروفة بأنها منازل للسيول مما يعرضها للتدمير بسبب السيول وقد حدث التدمير فى بعض الوحدات بمساكن التعمير بمدينة مرسى علم العام الماضى .

ـ إن قلة المياه جعل من دورات المياه بتلك المساكن مصدرا للكثير من الأمراض بسبب تكاثر الذباب والبعوض وإنتشارهما بشكل مفزع، حيث أن نصيب كل أسرة طنا من الماء كل ١٥ يوما.

٣ ـ الإعلام والدعوة

رغم وصول الإرسال التليفزيونى والإذاعى للمنطقة إلا أن هذا ليس مؤثرا حيث أن معظم البدو منتشرين داخل الجبال بالإضافة الى أنهم لايتحدثون اللغة العربية وأقترح الاتى : -

ـ العمل بنظام القوافل على أن تضم القافلة الأخصائى الإجتماعى ـ الطبيب ـ مسئول الإعلام ـ الداعية الإسلامى ويصاحبهم أحد البشارية الذى يجيد اللغة العربية الى جانب لغته الأم لمعاونة فريق العمل فى أداء مهمته.

ـ مساعدة البدو على التمسك بالعادات الطيبة وعلى سبيل المثال نظام القضاء العرفى الذى يتعاملون به منذ الآف السنين ويؤدى دورا مهما فى حفظ السلام خاصة فى المشاكل البسيطة ويتم ذلك بمعاونة أقسام الشرطة الموجودة بمرسى علم ـ الشلاتين.

ـ لابد من الاهتمام باختيار القادة والكوادر العاملة فى أجهزة الحكومة الموجودة بالصحراء حيث أن المنظومة الفكرية والسلوك الشخصى لهؤلاء الافراد لهما دور خفى يعمل على نجاح أو فشل اتجاه التنمية لأن البدو يقلدون تلك النماذج باعتبارها حضارية.

ـ يتولى قصر ثقافة الغردقة بعمل وتشكيل فرقة للفنون الشعبية من أبناء العبابدة والبشارية لحفظ تراثهم وفنونهم من جانب ومن الجانب الآخر عرضها بالتليفزيون لتعريف الجمهور على إخوانهم فى الجنوب.

الفهرس

رقم الإيداع : ١٠٠٦٤ / ١٩٩٣

I. S. B. N.

977 - 07 - 0293 - 5

air raid غاره جويه



طبعت بمؤسسة دار الهلال